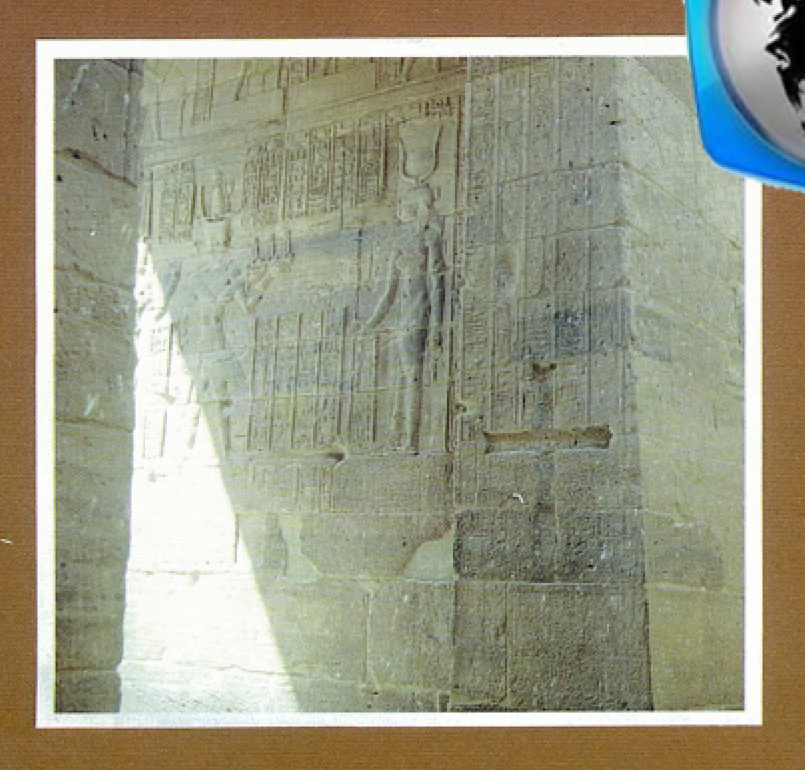


مزاج التماسيح

رءوف مسعد



مكتبة مدبولى

مزاج التماسيح

رءوف مسعد

الكتاب : مزاج التماسيح (رواية)

تأليف : رءوف مسعد

الناشر : مكتبة مدبولى ـ ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة

ت: ٥٧٥٦٤٢١ ـ تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

الطبعة الأولى : ١٩٩٨ – طبعة خاصة.

الطبعة الثانية ٢٠٠٠ مكتبة مدبولي.

رقم الايداع: ٩٩/١١٤٠٧.

الترقيم الدولى: 4 - 276 - 208 - 977

لوحة الغلاف : مهداة من الفنانة: فاطمة الطنانى.

رءوف مسعد

مزاج التماسيح

رواية

مكتبة مدبولى

٢٠٠٠

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مدبولى

6 Talat Harb SQ. Tel: 5756421

٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة – ت: ٥٧٥٦٤٢١

أهدي هذه الطبعة الثانية

إلى

أنّا ماريكا.

أخص بالشكر

كمال القلش،

كتبت هذه الرواية

لبنتي

يارا مسعد بسطا،

ولابني

ديدريك مسعد بسطا "ديددي"

... سيحملان، طوال حياتهما، اسمي، وجزءاً كبيراً من سمتي، ومزاجي، وقلقي..

آملاً أن يعيشا في عالم يسوده التقبل الديني، والعرقي.. عالم لا يتحكم فيه العسكر والميليشيات الدينية.. لا تسوده أوهام وأكاذيب تجار الدين وتجار السلاح.

٣٠- أبريل- ١٩٩٨ أمستردام



مقدمة الطبعة الثانية

ليس من الغـريب، أن يغيّر الكاتب نصه، من طبعـة لأخرى.. على الأقل لا أحس أنا بغرابة. لأن النص ملكي، أتعامل معه بالإضافة أو الحذف قبل، (وبعد) الطبعة الأولى. فحينما أصدرت هذه الرواية،في ظروف خاصة، ومعقدة، وعلى نفقتي الخاصة، بعد أن رفضتـها روايات الهلال، وبعد أن عـرفت أن من خلال التجربة العمليـة أن احترامي لنفسي، وما أكـتبـه، يتـوجب عليّ، أن أتحـمل أنا المسؤولية الأدبية والمادية كاملة، ما دمت قد انتهجت هذا النوع من الكتابة. كذلك أعدت ترتيب بعض الفصول، أي عمل مونتاج جديد "للنص الجديد".

بقي شيء لا بد من شرحه للقاريء المتابع لكتاباتي:

إن ما أضفته أو حذفته في الطبعة الثانية، لم يكن بهدف الحصول على رضاء "المؤسسات"؛ مؤسسة النشر، أو مؤسسة الرواية، أو مؤسسة مكارم الأخلاق، أو المؤسـسة الدينيـة؛ رجالها وأفكارهم، .. الـهدف أكثر بساطة ومـباشرة: هــو أن أخلّص الروايـة من بعض ترهلهـــا، وثرثرتهـا وأن أقوي منطقـها الخـاص؛ أي أجعلها حزمة واحدة متماسكة وقوية.

لا أعلم إن كنت قد أفلحت!



الكتاب الأول

"حينما تقول لي، بأنك ذاهب إلى فاس،
فهذا يعني أنك لن تذهب إلى فاس،
لكني علمت أنك ذهبت بالفعل إلى فاس،
فلماذا كذبت عليَّ، وأنا كنت أظنك صديقي!"

ـ أمثولة مغربية ـ

القاهرة – عام ٢٠١٠
الخميس.. صباحاً

كلاشينكوف روسي فوق مذبح الرب

يستيقظ القمّص ملاك عبد المسيح كل صباح في الساعة السادسة (تقريباً) في الغرفة المخصصة له والملحقة بكنيسة سيدة الآلام لطائفة الأقباط الأرثوذكس في شبرا مصر (كما هو مكتوب بخط يخلو من الجمال على اللوحة النحاسية الصدأة المثبتة على الحائط الحجري من الناحية اليمين وأنت داخل بجوار الباب الحديدي القديم)..

اليوم، فعل الشيء ذاته فهو رجل العادات المستقرة: طسّ وجهه بالماء البارد من طشت الصاج الأبيض الموضوع على كرسي بالقرب من سريره الحديدي، ملأته له بالماء، أخته العانس تفيدة عبد المسيح قبل أن تأوي إلى مرتبتها الموضوعة على الأرض بجوار فتحة المطبخ الذي ليس له باب. بالقرب من الستارة السوداء التي تحل محل الباب للمرحاض التركي. أصرّت هي، على أن تعلق على مسمار قريب من فتحة بيت الأدب - كما تحب أن تطلق على المرحاض التركي - أوراق الجريدة القديمة وقد قطّعتها قطعاً متساوية، مربعة، بالمقص الذي ورثته عن أمها المقدسة دميانة. أصرّت تفيدة على إلغاء ماسورة المياه التي كانت موجودة بجوار فتحة بيت الأدب. كان الغرض الأساسي منها، أن يستنجي الشخص بعد التبرز بالماء. قالت تفيدة إن غسل المؤخرة بعد التبرز، طقس إسلامي لن تدخله إلى بيت القمص خادم الرب، فسدّت فتحة الحنفية بقطعة من عجين القربان الذي كانت تجهزه في مساء السبت وتتركه حتى فجر الأحد لتخبزه في الفرن الصغير المقام في الفناء خلف مبنى الكنيسة، بعد أن تختمه بالختم المقدس (صليب مسدس الأذرع) سلمه المطران شخصياً للقمص

ملاك عبد المسيح حينما تم ترسيمه راعياً لكنيسة سيدة الآلام منذ سنة.. تقريباً.

وهكذا.. بعد أن يطس القمص ملاك وجهه بالماء المختلط دوماً برائحة البخور المتصاعد من المبخرة النحاسية الموضوعة تحت أيقونة العذراء، المثبتة بمسمار فوق الحائط المقابل القديم من ناحية السرير، يهرول إلى بيت الأدب يتبول واقفاً وقد سحب جلابيته إلى ما فوق خصره (الآخذ في البدانة الآن) متأملاً إحليله كما يحب أن يسميه منذ أن اكتشف الاسم بالصدفة في كتاب "رجوع الشيخ إلى صباه".

التقطته تفيدة الأمية من بائع الصحف القديمة، تقايضه عليها بما تجده في البيت من تفاهات أو ما ينساه المؤمنون في الكنيسة من سقط المتاع. كان الكتاب مدسوساً وسط مجموعة من المجلات القديمة التي تفرشها تفيدة على السفرة ـ كما تحب أن تسمي الطاولة القديمة الصغيرة الحائلة اللون ـ التي يأكلون عليها وجباتهم الثلاث.

اكتشف القمص الكتاب وأخفاه عن تفيدة الفضولية وجلّده بجلدة من الكرتون.. خاصة بعد أن تبين نوع الرسومات التي فيه. يتصفحه بين وقت وآخر، حينما يهف على مزاجه؛ فالقمص لم يكن قد تجاوز الثلاثين، ولا يجرؤ على مفاتحة تفيدة في موضوع الزواج ــ زواجه هو ــ فهي ترفض الفكرة من أساسها، مذكّرة إياه بقول الرب إن النساء من نسل حواء؛ الزوجة للشيطان في هذه الأرض، لإغراء أبناء آدم الذكور وخاصة القمامصة الذين مهمتهم في الحياة خدمة الرب ورعاية أخواتهم البنات. تفيدة تُذَكّره بذلك مرة واحدة على الأقل في اليوم. لم يكن هو بالساذج أو الغافل عن النوايا الخفية لتفيدة التي تريد الاحتفاظ به لنفسها، وبالتالي بمكانتها، كمدبرة للأبرشية - كما تحب أن تسمي نفسها؛ وصانعة وحيدة للقربان المقدس - والتي سوف تهتز بالتأكيد حينما تشارك امرأة حتى لو كانت زوجته، فراش أخيها الحديدي.

تكفي النذور عادة بالاحتياجات الأساسية لمطبخ تفيدة. أحياناً تكون النذور مجرد بضعة شموع؛ وتعتبر تفيدة أنها علامة على غضب الرب على البلد لكن في معظم الأحوال تكون النذور خليطاً معقولاً من الطعام والخضروات والفاكهة

والنقـود. هذه هي أحلى لحظات اليوم كله للـقمص مـلاك. المفاجـأة اليوميـة. لم يكف أبداً كل يوم عن تخـمين الأشياء التي سـيأتي بها المؤمـنون إلى المذبح وفاءً لنذورهـم، يفرح كالأطفال حـينما تصيب تخميناته. لكنه لم يزعل أيـضاً حينما تخيب توقعاته. يقول الدنيا كده، حكمة ربنا.

اليوم أحس بروح غريبة تحوّم فوقه. أحس أنها نذير بشيء ما، وكاد أن يتراجع إلى أمـان غـرفـتـه، لكنه وجد نفـسه في مدخل الكنيـسة تدفعـه قوة خفـية، تمتم بتعـويذته القصيرة "السـلام عليك يا مريم" رغم إحسـاسه أنه يريد أكـثر من هذه التعويذة؛ فكّر أن ينذر للرب وهو يخرج المفتاح الكبير الحديدي من جيبه و يرمق جندي الحراسة وقد استند بملل كسـول على ذراع مدفعه الرشاش. لمح في الوقت نفسه مـجموعة من المؤمنين ينتظـرون فتح الباب، سجّل عـقله المتوتر أجـسادهم الغريبة عليه (وجـوههم مخـبأة خلف كـوفيـات كثيفة - تـعللاً ببرد الصـباح- وتنسدل على أجسادهم، الثياب الواسعة الداكنة). انزعج لأنه لم يستطع بسبب خديعة الثياب أن يحدس من هم.

تبعوه مباشرة إلى الداخل وأحس بأطراف ثيابهم تحف بجبته الكهنوتية فلمها حول نفـسه مغـتاظاً، دون أن يلتفت للخلف. أنفـاسهم الغريبة في قـفاه. أحدهم أغلق باب الكنيسة من الـداخل وشعر بصوت الترباس الكبـير الصدىء يزيّق في عروقه. التـفت للخلف محتجاً، لم يستـطع أن يكمل التفاته فقد دفعـته للأمام يد قـوية؛ ليس بغلظة لكن بحسم. وجاءه الصـوت الآمر "إمشي على طول يا أبونا" .. الصوت محـايد واضح النبرات ليس به تهديد لكنه أحس بالنبرة الحـاسمة في مخارج ألفاظه وذبذبتها الواطئة التي تكفي لأن يسمعها بوضوح.

الممـر الضيق الـواصل من الباب والذي يعـبـر بالواحـد بين صفـوف الدكك الخشبية اللامعة من القدم والتى استمعت لمناجاة الخطاة للرب، وهمس أصواتهم الملحاحة التائبة النادرة..

وقف أمام سـتارة الهـيكل الأرجوانية الداكـنة والمطرز عليها بـالذهبى صورة العذراء سـيدة الآلام مفكوكـة الشعـر ممزقة الثيـاب تتطلع بحزن إلى ابنهـا يسوع

المصلوب على الخشبة ومكتوب تحته باللغة القبطية والعربية: صناعة المعلم يعقوب الأسيوطي عام ألف وخمسمية وستة للشهداء في شهر بشنس مايو يونيو ألف وسبعمية وتسعين على ميلاد سيدنا يا رب اذكر تعب عبدك (مكتوبة بنفس واخد بدون نقاط أو فواصل).

وقفوا خلفه. أحس بالحركة. التفت بجسده كله؛ ليراهم، سجدوا جميعهم وحوائجهم مركونة أمامهم. تحول رعبه الصامت إلى غضب حارق وهم أن يضربهم أو على الأقل يصيح فيهم منفساً عن الخوف الذي شل تفكيره منذ أن قرر أنهم من "الإرهابيين" وأنهم قاتليه لا محالة. فقد قتلوا من قبل قمامصة في الصعيد وحاولوا إحراق كنيسة بقمصها.

رمق الساجدين وغيظه يتداح بسرعة، ليحل محله فضول قوي. رجعت إليه شخصيته الكهنوتية - أو فلنقل استجار بها بقوة إرادته - .. ركع أمام الهيكل يتلو صلواته ويقوم بفرائضه، وإن كان صوته ما زال يرتعش. نهض وباركهم "فلتحل علينا جميعاً بركة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح وتشفع لنا عنده الأم الطاهرة سيدتنا العذراء"

نهض الساجدون وركعوا يتقبلون البركة. مد لهم يده بحكم العادة؛ فقبّلوا الخاتم المنحوت عليه العذراء.

قال صاحب الصوت الآمر "عاوزين نعترف". هذه المرة لم تكن نبرات الصوت أمرة، بل مستعطفة.

همس له "كلكم؟" أجاب "إحنا مش كتير.. خمسة" الصوت من خلف الكوفية التي تغطي الوجه غريب عليه تماماً. هو يعرف أصوات رعيته ويستطيع أن يستدل على صاحب الصوت أو صاحبته حتى من خلف الستارة التي تفصله عن الشخص المعترف. هز رأسه بصمت مشيراً إلى مكان الاعتراف. أزاح الستارة ودلف إلى الهيكل ليضع فوق الجبة الوشاح الكهنوتي الخاص بالاعتراف. ركع أمام المذبح يتلو صلاة الاعتراف التي طالما قالها بشكل ميكانيكي، وعقله غالباً ما يكون منشغلاً بأمور أخرى. اليوم صلى بإخلاص وببعض الحرارة. لم ينس أن

يشكر العذراء - والمسيح - على حمايتهما له هذا الصباح.

اعترف صاحب الصوت الآمر، بأنه قد سرق السلاح الذي معه والذي يخبئه داخل الصرة التي تركها بالقرب من الهيكل. قال إنه يطلب من الرب المغفرة من أجل السرقة والتي قام بها لأنه يريد أن يدافع بسلاحه عن بيت الرب وعن خدّام الرب وعن إخوته في المسيح. قال إنه يتمنى أن لا يستخدم سلاحه في القتل. قال إنه لن يتردد في القتل، إذا ما وجد ضرورة لذلك خلال قيامه بمهمته في الدفاع عن دينه وعن إخوته في المسيح. قال له إنه يريد منه، أن يبارك سلاحهم، وأن يمسحه بالزيت المقدس.

القمص ملاك عبد المسيح يستمع وقد انتابته حالة غريبة.. أحس بأنه عاش هذا الموقف من قبل. قال لنفسه (لعلي عشته في عصر الشهداء).. لم يدهش كثيراً من اعترافات الملثم فقد سمع همساً مثيراً وكثيراً عن جماعة تسمي نفسها فرسان مار جرجس، وجماعة جديدة أخرى. أطلق عليها الناس اسم "الملثمون".

خلف البارفان المشربية القديمة الخاص بالاعتراف يستمع إلى الملثمين. يباركهم بعد أن يحللهم من خطاياهم. يحس وهو يستمع إلى اعترافاتهم (وكلها متعلقة بسرقة السلاح وأشياء أخرى ليست هامة) بوطأة الثقل الذي ينزاح من على صدره ويبتعد عنه إلى مسافة بعيدة وإن كانت غير آمنة. مخاوفه وتوترات أمعائه وانتصابات إحليله المؤلمة بدون تصريف، وهواجس تفيدة واستلابها لحياته وتفاهة مرتبه وسوقية أعضاء الكنيسة وحقارة غرفته التي تقتحمها روائح المرحاض وشخير تفيدة واضطراره (لاستدانة) نبيذ المناولة الذي يمزجه بالماء في القنينة ليعيد ملئها قبل أن يستطيع الحصول على الميزانية الجديدة، لشرائه من جرجيوس صاحب محل بيع الخمور على ناصية الشارع الذي يقول له ممازحاً بلؤم "ربنا حط النعمة في قلوب المؤمنين اللي بيتناولو كل يوم يا بونا" لذلك رغم غيظه من حظر التجول الذي فرضوه عليه قبل أن يفرضوه على المدينة، أحس ببعض الراحة الخفية، لاضطراره المكوث أطول وقت ممكن في البيت، لن يضطر لأن يستمع في الشارع من الصبية إلى نشيدهم اليومي، حينما يلتقونه "شد العمة شد، تحت العمة قرد". الشارع يخيفه؛

لهذا يطور من روتينه اليومي في المساحة الصغيرة المحددة له وهى مثلث المرحاض وترابيزة السفرة وغرفته، ثم مربع الفناء الذي يفضي إلى الكنيسة: كتبه الدينية القليلة والراديو الذي أصبح خبيراً الآن بمحطاته.. هذه الحياة التي يدرك بعقله البسيط الثقافة أنها لا تليق بالبني آدمين وإن كان لا يعرف لماذا أصابته بحالة من الغضب المكتوم، لا يجد أمامه سوى تنهيدة لينفجر فيها فتنسحب عايطة إلى المرحاض (حيث لا توجد لها غرفة تستطيع أن تنسحب إليها) ويسحب هو نفسه مكسوفاً إلى غرفته لا يدري ماذا يفعل بحياته وهو ما زال بعد في منتصف الثلاثينيات من عمره.

قال له رئيسهم "عاوزين نتناول" فدخل مرة أخرى إلى المذبح وركع أمام القربان الملفوف في فوطة بيضاء نظيفة تفوح منها رائحة البخور. في الناحية المقابلة قنينة النبيذ ونادى الرب: أن يقبل منه نيابة عن المؤمنين رغبتهم بأن يأكلوا من جسد المسيح ويشربوا من دمه.

وقفوا صفاً مستقيماً وقد أحنوا رؤوسهم. وقف قبالتهم وقدم لهم القربانات الصغيرة بيده اليمنى بينما أمسكت اليسرى بالفوطة البيضاء تحت القربانات؛ حتى لا تتساقط الفتافيت المقدسة على الأرض. كل واحد من الملثمين الآن، أزاح لثامه وهو يركع على الأرض ليرشم علامة الصليب فوق صدره ويمضغ القربانة بتمهل مستمعاً لصوت الكاهن، يتلو كلمات المسيح في العشاء الرباني " خذوا كلوا، هذا هو جسدي" وقدم لهم كأس النبيذ الكبير الذي سكب فيه النبيذ بسخاء من القنينة وكرر الكلمات القديمة قائلاً "اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا"

قبلّوا يده وباركهم راشماً فوقهم علامة الصليب. خرجوا متقهقرين وجوههم معلقة على سيدة الآلام. حينما وصلوا بالقرب من الباب، انحنوا مرة أخيرة كأنهم يطلبون الإذن في الخروج راشمين علامة الصليب على صدورهم. استداروا. فتح أحدهم ترباس الباب فانهمر الضوء كصفعة مفاجئة على وجوههم الطالعة من الظلمة الخفيفة الداخلية. أحنوا رؤوسهم وأحكموا وضع الكوفيات على وجوههم وسقطوا في ضوضاء زحام النهار المبكرة.

ظل واقفاً لحظات طوال يتابع الكوفيات الصوفية الداكنة وهي تهبط وترتفع برقة وبإيقاع مرتبك.

مزاج التمساح

هل كان ذلك على شاطىء النهر أو شاطىء البحر؟ أو لعله شاطىء بحيرة؟ وإذا كان البحر، فأي بحر؟ الأحمر أم المتوسط؟... استقر في النهاية على البحيرة، وقرر أن يكون مكانها في بولندا، لكنه لم يحاول حتى أن يحدِّد اسمها أو مكانها بالضبط. فكّر: إن التحديد سوش مهم. إذن ما هو المهم؟ الملامح؟ الرائحة؟ الأسماء؟

في جلسته الآن في المقهى يقلّب في ذاكرته حياتين.. و جسدين.

ففي الحياة الأولى - حياته - يتمعن ما ينتج عنه هذا التقليب، بحذر وبحيادية أيضاً.

أما الحياة الثانية، فقد بدأ يعيد تخليقها من حياته. الحياة الثانية ليست حياته بالضبط، لكنها أيضاً حياته. الفارق الوحيد بين الحياتين، أنه يستطيع في الثانية أن يفعل ما يريد بها وبمن فيها: أن يمسح، ويضيف، أن يجمّل ويقبّح، أن يغير من الأماكن والأزمنة. ومع ذلك أحس أن الحياتين تنزلاقان من يده، خاصة الثانية، التي تحاول أن تتماهى مع حياته هو؛ كأنها تبحث عن شيء مألوف تريد أن تطمئن إليه.

هو الآن في منتصف الكتابة. منتصف روايته. روايتان.

يعرف المحاذير التي يواجهها كاتب مثله، حينما يخلط الخاص بالعام، الحقيقة بالحقيقة الأخرى. الكاتب - مثله - الذي لم يحترف الكتابة، لكنه يمارسها أيضاً بانتظام. خارج مؤسسة المحترفين، الذين لا يحبونه؛ لأنه يهدد وجودهم المستقر البليد الساكن، بتهوره ورعونته، وتبوله فوق خطوط التماس المقدسة. مثلما يتعامل مع النساء - مثلما كان يتعامل معهن - يريد الولوج في أسرارهن وينقب

متلذذاً؛ كي يستمتع بلحظة حميمة، قد يدفع بعد ذلك ثمنها غالياً.

لكن المشكلة، حتى النساء لم يعد بمقدورهن أن يقدمّن له ما يريد.. أو لم يعد بمقدوره هو؟.. كتلك الكتابة التي تنزلق الآن.. داخل حياته، وتنزلق الحياتان أيضاً.

فمنذ أن قرر أن يكتب هذه الرواية، وأن يمزج الحياتين معاً وأن يعيد السيطرة متعمداً على حياته هو؛ أن "يكتبها" من جديد، اكتشف أنه يستطيع، وبمجهود غير بسيط، أن ينسحب من الحياتين، فيخلق لنفسه حياة ثالثة مؤقتة يتفرج فيها ومنها على الحياتين، الأخرتين.

.. وهكذا رأى الجسدين على شاطيء البحيرة: ليس في تمام عريهما. بنطال مفكوك ومسحوب إلى أسفل الحقوين، جينز باهت الزرقة يدكك عراويه العريضة حزام من الجلد بني داكن تلمع كباسينه النحاسية الصفراء تحت الشمس الصيفية الخفيفة التي أنبتت العرق في نهاية السلسلة الفقرية منساباً ببطء في دفقات صغيرة إلى الفتحة التي تتوسط كتلة اللحم والعضل والأعصاب مشدودة تنفتح وتنغلق في حركة لاعلاقة لها بالجسد المتصلة به والذي اختفي الجزء الأعلى منه حتى ما قبل الخاصرة في القوس الكبير لفخذين سمراوين يطبقان بكعبيهما العاريين على لوحي الظهر يثبتان الجسد الذي بان بياضه الذهبي مؤكداً ذاته المختلفة عن الجسد الأسمر. لم يستطع أن يتبين صاحبه (أو صاحبته). اليدان المنغرزتان أظافرهما في لحم الظهر وعضله لا يظهر منهما سوى الأصابع القوية الخالية أظافرها من أى لون. لم تكن هناك حركة أو نأمة سوى تلك الهزة الخفيفة من الردفين لقط كسول ينظف فروته على مهل وعنده كل الوقت في عالمه الخاص الذي يستطيع أن يتعامل مع الزمن من خلال لسانه فقط. البحيرة ساكنة والعصافير "لابده" فوق الأغصان والجسدان "لابدان" بين الأصابع القوية.

سرت في أعصابه همهمة محببة.

يرى – الآن – الشاطيء شبه الخالي في الغروب. المصيفون يتمشون على شاطيء البحيرة بثيابهم الصيفية الملونة.

يكتشف لدهشته أنه يعرف المكان و يستطيع أن يستحضر تفاصيله، يحاول أن

يتذكر تفاصيل الجسد الذي كان معه. يحاول اللجوء إلى الجسد. أن يحتمي به من تداخل الأجساد فيه، كما يحتمي المسافر في الصحراء ببطن ناقته حينما تهب عاصفة الرمال.

* * *

نظر في ساعته، ما زال هناك وقت على موعد حظر التجول رغم هرولة الناس وعصبيتهم البادية (ما زال وقت كاف لأغيّر ويمكن كمان آخد حمآم قبل حفلة فوفو). ابتسم وهو يتذكرها. ابتسامة من يتذكر خطيئة محببة. تنبه إلى انتشار العربات المصفحة والجنود بملابس الميدان، بكثافة أكثر من الأمس، وفي وقت مبكر أيضاً عن موعد حظر التجول المعتاد، الذي يبدأ من غروب الشمس حتى شروقها. أحس ببعض القلق الخفيف، لكنه سارع في خطوه، مجتازاً الحواجز الحديدية التي بدأ الجنود يغرزونها في الشارع، وهم يلغطون مع بعضهم. لم يفته أن يلاحظ - بشماتة - ثيابهم الرثة وأحذيتهم الضخمة البالية والتي تبدو أكبر من أقدامهم، وأيضاً اصفرار وجوههم وسوء التغذية الواضح التباين مع وجوه الضباط الوردية وأحذيتهم المصقولة وثيابهم الجديدة المحبوكة على أجسادهم التي تميل إلى البدانة المبكرة رغم صغر سنهم الواضح. الضباط الكبار لا يقفون مع الجنود خلف الحاجز؛ إنهم في قصورهم وقد استيقظوا لتوهم من نومة القيلولة ومددوا أجسادهم اللحيمة فوق كراسي الشيزولونج في بلكوناتهم المسورة بالزجاج المضاد للرصاص. يثيرون غثيانه.

صوت الطلقات المفاجيء، والصراخ الذي أعقبها جعله يقفز إلى مدخل البناية القريبة وهو يرتعش من الخوف والتوتر، وحينما أخرج رأسه بحذر ليتبين ماذا حدث؛ أتته اللطمة الغادرة خلف أذنه اليسرى.

إحساسه الأخير بأنه يسقط وأن جسده أصبح ثقيلاً جداً وبأن هناك عشرات الأيدي التي تشده إلى أعلى داخل البناية. أنفه ما زالت تواصل وظيفتها قبل أن تحتويه الظلمة اللزجة. شم رائحة الدم وشم رائحة العرق المنبعث من أجساد لم

تتحمم لفترة طويلة وشم رائحة الطعام الذي أكله قبل ساعة ينبجس من حلقه.

* * *

حاولت السلطة - قبل انهيارها الأخير - أن تحارب الميليشيات الدينية، أن تحاربهم بأسلحتهم - بالمصاحف وبالبنادق السريعة الطلقات - وخصصت مساحات - وأوقات، في الميديا المقروءة، وتلك المسموعة والمرئية لدحض التفسيرات الدينية للميليشيات بواسطة مشايخ السلطة، الذين رقصوا على الحبلين، تحسباً للمستقبل. ثم جاء الوقت الذي تحرك فيه "الجنرالات" وأعلنوا "أنهم لم يستطيعوا صبراً" كما جاء في بيانهم الانقلابي الأول، وقبضوا بليل على البلد، وأعلنوا تأسيس نظامهم "المؤقت" .. باسم الجمهورية العسكرية الديموقراطية. أصبح اسمها في الميديا المحلية والعالمية "ج.د.ع".

أعلنوا في الأسبوع الأول من استيلائهم على السلطة إجرائين: حظر التجول، والثاني، إجبار المواطنين الذكور من سن السابعة وحتى ما لانهاية، على قص شعورهم بشكل معين ومنتظم أيضاً.

خصص التليفزيون، التابع للسلطة، برامج ثابتة لإرشاد المواطنين إلى قصة الشعر المطلوبة.

الخميس مساءً

بعد ساعتين من الاختطاف
ماذا قال الخاطف للمخطوف

قال له

- أكرر أسفي لاستدعائك بهذه الطريقة، فلم أكن واثقاً أنك سوف تأتي بنفسك بعد لحظة: بالإضافة أن الوقت يجري.. الوقت يسبقنا.

صمت كلاهما..

أخذ هو يتأمل محدثه: لحية خفيفة تحيط بوجه أسمر شاحب. عينان نافذتان حالكتا السواد تحت حاجبين سوداوين مقوسين داكنا السواد. أنف كبير مستقيم يعلو الفم الحسي المكتنز الذي لم يبتسم حتى الآن. متوسط الطول، فقد كان لا يزال واقفاً. يرتدي سروالاً نظيفاً من القطن الداكن وقميصاً أبيض اللون من القطن أيضاً وحذاءً رياضياً داكن اللون أيضاً. ما لفت انتباهه هو ذلك الهدوء الذي يلف الرجل. رجل؟ لعله ما زال في منتصف العشرين.. لكن صلابة متوفزة ونشاط مكتوم يحكم حركاته التي تكشف عن توتر داخلي رغم الهدوء المحيط به.

قال محدثه: نشرب شاي الأول قبل أن نتكلم.

توجه إلى مائدة خشبية صغيرة عارية وتناول الترموس الموجود هناك وصب الشاي في كوبين زجاجين صغيرين، تصاعد بخاره مختلطاً برائحة النعناع الممتزج بالشاي.

قال محدثه: دعني أقدم نفسي؛ أنا ابو أحمد ولعلك تعرف أنه مجرد اسم حركي. دعني أجيب على تساؤلك؛ لماذا أنت بالذات؟ يا سيدي.. إنك تملك مجموعة من الاتصالات أهمها مع المجموعة التي نعتبرها نحن مجموعة سياسية من أقباط المهجر الذين لهم تأثير على الحكومات الأجنبية.

كان يفكر بسرعة بأن ما حدث له حتى الآن من اختطاف ورعب، لمجرد أنهم يريدون أن يبلغوه رسالة ما؟! يريد أن يقول له يا أبو أحمد أخطأت العنوان فلست أنا بالشخصية المقبولة عند جماعتنا كما تسميهم أنت؛ إنهم يعتبرونني شخص هامشي وغامض. الحقيقة يا إنسان لا أريد أن ألعب معك أو معهم فقد تقاعدت من زمن طويل.

حاول أن يبدي الاهتمام المؤدب بما يقوله أبو أحمد.

لعل أبو أحمد يمتلك ذلك الحدس المرهف الذي يجعل أصحابه يخمنون إلى

حد صحيح ما يفكر به الآخرون، إذ قال له مبتسماً: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه. نحن نعرف قدرك ونعرف قدر أنفسنا أيضاً ولسنا نريد توريطك في شيء لا تريده ولن نغصبك حتى على حمل رسالة فلست أنت بالشخص الذي تكون كل مهمته ساعي البريد.

صمت كلاهما يختبران قوة بعضهما البعض.

قال لنفسه: أبو أحمد هذا يبدو شخصاً معقولاً؛ على الأقل لن يشهر سلاحه في وجهي إذا اختلفت معه في الحوار، لكن الذي يدهشني حكاية قدر نفسي هذه وهل سوف يصدق أني مجرد شخص، أكتب بالليل مقالات وتعليقات لكي أسلي نفسي وأنا أعلم بالتأكيد أنها لن تنشر لسبب بسيط جداً؛ بأن أحداً من معارفي القدماء في الصحافة والميديا لن يكلف نفسه حتى إلقاء نظرة عليها، وأني لنفس السبب الأبسط لا أحلم بأن أظهرها لأحد منهم.

قال لـ"أبو أحمد": دعني بداية أن أحدد بعض الأشياء التي قد تكون غائبة عنك نتيجة لخطأ ما من أجهزة رصدكم. تريدون الحديث مع شخص، يملك الإمكانيات التي ذكرتها أنت قبلاً؛ فأنا..

قام أبو أحمد فجأة من المقعد الذي كان يجلس عليه. رفع يده يوقف سيل الكلام المتوقع، واتجه وهو ما زال رافعاً يده إلى ركن في الغرفة حيث كان يوجد سرير صغير حديدي والتقط من فوقه مجموعة من الأوراق رتبها بسرعة وهو يرجع إليه ويدفعها له بعنف بين يديه.

تبين خطه من الوهلة الأولى: هذه هي مجموعة مقالاتي وخواطري ومذكراتي، ويومياتي، التي لم يشاهدها أحد. أحس بالغضب الذي يحسه حينما يقتحم أحد خلوته وينتهك خصوصيته التي ناضل طويلاً ضد أهله وحزبه وحتى ضد رونسي، من أجل الاحتفاظ بها. نظر غاضباً إلى أبي أحمد الذي أجابه بنظرة معتذرة قائلاً: لم يكن أمامنا سوى هذه الوسيلة.

صاح فيه غاضباً: طرقكم لا تختلف في شيء عن طرق الحكومة والميليشيات. الغاية تبرر الواسطة. وخصوصيات الناس ليست لها عندكم أو

عندهم أية قيمة. كيف تريدني أن أثق فيك أو حتى أصدق ما تريدون أن تقوله لي وأنتم تفعلون..

قاطعه أبو أحمد: على مهلك يا رجل. لا تقارن غاياتنا بغايات الآخرين. أكرر أسفي بشأن الطريقة التي حصلنا بها على أوراقك، لكن ألا تعتقد أنك بمجرد وضع أفكارك على الورق في شكل مقالات وخواطر تفقد خصوصيتها؟ (نظر إليه بخبث وهو يبتسم للمرة الأولى) لعلك تريد بكتابتك بهذه الطريقة أن يقرأها آخرون، مع علمك الأكيد كما كتبت في أكثر من صفحة بأنك لا تأمل في نشرها. على كل حال هذا موضوع جانبي، كنت فقط أريد أن أجيب على تساؤلاتك بأنك الشخص المناسب.

دق أحدهم باب الغرفة المغلقة فذهب أبو أحمد ليفتحه ودار همس خفيض. نظر إليه أبو أحمد وهو ما زال بجوار الباب المفتوح قائلاً: أستمحيك عذري.. هناك بعض الأشياء العاجلة التي تتطلب حضوري، سأتركك لبعض الوقت وسيحضرون لك طعاماً وما تطلبه من قهوة أو شاي (ابتسم له مرة أخرى، ابتسامة رقيقة آسفة وهو يقول) يمكنك بالطبع أن تلقي نظرة سريعة على ما كتبته، لعل هذا ينشّط ذاكرتك بعض الشيء.

أغلق الباب خلفه بهدوء.

قلّب بتمهل في الأوراق وهو ينظر باندهاش للأشياء التي كتبها منذ وقت ليس بالطويل. العناوين تبدو كأن شخصاً أخراً كتبها لكن الخط خطه: "حوار مع صديقي الإرهابي".. "هل الحكومة تريد محاربة الجماعات أم ترويضها؟.." "مشايخ التليفزيون" "صحة المعلومات التي تقدمها الدولة عن الصراع بينها وبين الجماعات".. "إسلام سياسي أم سياسة إسلامية".. "مأزق الخندق الواحد مع العسكر ضد الجماعات".. "الكنيسة والموقف من الأحزاب الدينية" "موقف الحبر الأعظم من الإصلاح الكنسي".. "ديكتاتورية الدولة وثيوقراطية الجماعات"... وعناوين أخرى كثيرة.

قرأ ".. أدهش كثيراً من التصريحات المستمرة للدولة والحكمة من رفضها

التصريح بقيام أحزاب دينية إسلامية لأن هذا معناه من وجهة نظرها التي تصرح بها السماح للمسيحيين بتشكيل أحزابهم الدينية. وهذا حسب زعمهم يهدد ما يطلقون عليه اصطلاح الوحدة الوطنية. مبعث دهشتي أن أوروبا الغربية التي تقود الحرب الشرسة ضد الإسلام السياسي تحكمها أو تتبادل حكمها أحزاب لا تخفي هويتها الدينية، وهي تندرج تحت مسميات مثل الحزب الديموقرطي المسيحي أو الوسط المسيحي أو الليبرالي المسيحي. وماذا عن الفاتيكان نفسه؟ أليس الصورة المكتملة لحكم رجال الدين ولإبداء رأيهم بل وفرضه أحياناً، إن سمحت الظروف، في المسائل الدينوية؛ مثل الإجهاض، وحبوب منع الحمل، والطلاق، وبالطبع المسائل السياسية مثل الجبهة العريضة التي تجمعهم في محاربة الشيوعية والأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية. وماذا عن دولة تقوم أصلاً على أساس ديني ويعترف بها العالم، وهي إسرائيل، التي ترتكز أسسها على الميثولوجيا الدينية بالأساس. وإني أتساءل هل نظام قمع المعارضة في إيران "الإسلامية" يختلف عن الأسلوب الذي كان يتعامل به، نظام السافاك أيام الشاه، ومعاملة إسرائيل للفلسطينين وقتلهم أسرى الحرب...

وقرأ أيضاً "أسئلة لا أعرف الإجابة عنها".. "ما هو موقف الجماعات فى مصر من حرية العبادة، أو حتى حرية عدم العبادة أو عدم الإيمان. الموقف من المسيحيين. هل سيعتبرون المسيحي مواطن درجة ثانية أم من أهل الذمة. إذا كان الإسلام هو الحل.. فهل سيحل مشاكل الإسكان والبطالة والفقر، وكيف سيكون ذلك؟ هل هنالك ما يمكن تسميته بالإسلامين المعتدلين؟ وهل يمكن الحوار معهم بعيداً عن الإدارة القائمة وما هي الضمانات التي سيقدمونها؟ وهل سيحترمونها على المدى الطويل؟ وما هو دورنا كمسيحيين في هذا الحوار؟"

قرأ أيضاً

"ماذا عن المشايخ في حزب الحكومة.. موقفهم من حرية البحث والاجتهاد؟، لماذا يشجع التليفزيون الرسمي، الأراء التي تثير الفتنة؟ ماذا عن، تأكيد الهوية الدينية في البطاقات الشخصية.. ماذا يعني هذا؟ هل أقف مع حكومة لا

ديموقراطية، بحجة محاربة إسلام سياسي لا ديموقراطي؟

ألقى بالأوراق جانباً بيد مرتعشة.

حمار ابن حمار أوقعت نفسك في شر تفكيرك.

* * *

لم يختلف تفكير الميليشيات المتقاتلة كثيراً عن تفكير الدولة.. إذ توقف تفكيرهم عند القرون الوسطى في التعامل مع المستجدات من أزمات الحياة اليومية.. كرروا ما فعله أسلافهم برفضهم كل فكر جديد لا يقوم على المبادىء الدينية: حرق البابوات نظرية كوبرنيك، وصلب بعض الخلفاء للمفكرين والفقهاء. لم تكن عمليات الحرق والصلب دفاعاً عن أسس الدين كما زعموا بل عن كعكة السلطة.. (وتاريخ أمراء الكنيسة والبابوات وتيجانهم الذهبية وعشيقاتهم البضات وابنائهم غير الشرعيين، الذين نصبوهم أساقفة وبابوات وأباطرة، لا يختلف كثيراً عن تاريخ الجواري والغلمان. والخلفاء، والخراج، الذي كان يأتي محملاً على الجمال إلى قصور بغداد ودمشق والغوطة).

وهكذا ...

راجت تجارة الخمور والمخدرات؛ فهي مصدر مهم لتمويل الميليشيات، رغم اختلاف هوياتها الدينية والسياسية، وأطروحاتها العلنية الدعائية. السلاح والخمور والمخدرات لم ينقطع انهمارها على البلاد كلها؛ لتزايد سوقها الرائجة، وإلحاح الطلب عليها من الجماعات والأفراد. وقد خلقت وفرة السلاح وامتلاك الأفراد له واقعاً جديداً، لا يستطيع أحد تجاهله رغم وعي الأطراف المتقاتلة بأن امتلاك "المدنيين" للسلاح يخلق صعوبات جديدة لهم في السيطرة عليهم؛ حيث ينبت أطرافاً جديدة مسلحة تدخل الصراع وتغير موازينه، إلا أن الطمع، والرغبة الإنسانية في الاستحواذ، كانت أقوى من الحسابات السياسية والعسكرية.

راجت بالتالي تجارة التمساح؛ قنصه وتربيته وقتله لاستخلاص عنبره من عضوه التناسلي، ليساعد الذكور الذين سحبت منهم الطبيعة امتيازهم الذكري..

على إعطائهم قدرة جديدة، ومؤقتة، للحفاظ على مواقعهم في الفراش، ..
وهكذا للمرة الأولى منذ قرون سحيقة، تماهت الدولة، والميليشيات، والأهالي (من الذكور) في أسلوب التفكير. الاحتفاظ بالموقع.. بأي ثمن!

المدهش أن النساء هن اللاتي كن يقمن بالترويج لهذه التجارة (أو لعله من الطبيعي أن يقمن بذلك) يشجعن شركائهن من الذكور على استخدام إحليل التمساح، ويقدمن لهم النقود لشرائه، ويتابعن أخباره المثيولوجية، وينشرن "روعة" نتائجه، ويتابعن أسواقه الرائجة، التي تتخطى الحواجز المقاتلة، وأصبحت تجارته لا تعرف أو لا تعترف "بحدود" جغرافية أو دينية.

ومثلما انغمست الأطراف المتحاربة من عسكر وجماعات، في البحث عن أسلحة جديدة، وفتاو دينية تدعمها، ظهرت الثقافة الجديدة، ونبتت على أطرافها إنجازات في المسرح والشعر والأغان، والتي شيرت، بل والنوادي المشابهة لنوادي مشجعي كرة القدم، وظهر الإحليليون في الميديا المرئية والمكتوبة، يتناظرون ويتجادلون ونقبّوا في الكتب القديمة بحثاً عن نصوص تؤيد أقوالهم وتدحض أقوال الجبهة المعادية للإحليل التمساحي من أصدقاء البيئة وحراس الطبيعة والجرين بيس.

فوفو أصبحت رئيسة "التجمع القومي الديموقراطي التمساحي" وأعطته الميديا اسم "تقويم السح"!

أما إحليل التمساح نفسه، فقد عمدّته الميديا الذكية التجارية، باسم "مزاج التمساح" لعدم إثارة غضب "الآمرون بالمعروف.. الناهون عن المنكر" من المسلمين والمسيحيين، باعتبار أن ذكْر الأعضاء التناسلية، للبشر، أو الحيوان؛ معصية.

الخميس ذاته مساءً

في الجانب الآخر من المدينة وعلى شاطىء النهر حيث حي الزمالك الفاخر

الذي تحتله السفارات والفيللات الأنيقة منذ الأيام الخالية.. أيام الحكم الملكى والكولونيالي.. استيقظت فوفو، بعد ساعات من خطفه عصراً (وحديثه مع الخاطفين) استيقظت فوفو التي هي فتحية مبروك الشربتلي، في غرفة نومها المطلة على النيل، من الطابق الرابع عشر. يناديها خلصاؤها (القلائل) فوفو شربات. وخدمها والميديا وطلآب الحاجات بلقب المدام البرنسيسة.

لم تكن فتحية في يوم من الأيام على صلة من قريب أو بعيد بالأسرة المالكة (السابقة).. لكن إذا أردنا توخي الدقة، فيجب علينا إذن أن نعترف بوجود "علاقة".. بين أسرة الشربتلى والأسرة المالكة (السابقة).

كان جد فوفو عبداً مملوكاً وموروثاً أباً عن جد لفرع صغير من الأسرة المالكة. حينما صدر مرسوم تحرير العبيد منذ حوالي القرن رفض الجد الشربتلي مغادرة القصر (حيث كانت وظيفته الوحيدة هي صنع الشربات التي أجاد صناعتها من والدته الأمة التي كانت تخدم في القصر أيضاً والتي استجلبها تجار الرقيق من القوقاز). ارتاع الشربتلي الجد وسقط على وجهه باكياً يطلب من "سيده ولي النعم" السماح له بالبقاء في القصر نظير لقمته وكسائه مثلما كان في السابق قبل التحرير. لم يتردد الأمير، خاصة وأن حالته المالية لم تكن مزدهرة، بل أعجب بما اعتبره ولاء العبد لسيده الذي لم يكن في الحقيقة ولاءً بقدر ما كان خوفاً من المجهول وراء أسوار القصر ممتزجاً بذلك النوع من عنجهية العبيد الذين يوقفون حياتهم على خدمة أسيادهم ولا يتصورون للحظة أنهم سوف يقدمون هذه الخدمات حتى لوكانت بأجر مجز وفي مناخ مختلف، لأشخاص آخرين. وهكذا استقرت أسرة الشربتلي داخل أسوار القصر بأصولها وفروعها المختلطة بدماء العبيد القوقازية والتركية، حتى انهار النظام كله، ووجدت أسرة الشربتلي نفسها لأول مرة تتعامل مع البشر العاديين.

حظهم الحسن - هذا ما سوف تكشف عنه الأيام بعد ذلك - أجبرهم على التعامل مباشرة مع الضباط، الذين أطاحوا بالأسرة المالكة. أيامها كانت فوفو ما زالت في تلك المرحلة التي تعقب المراهقة. جسدها تتغير معالمه بسرعة. الوالد

لم يستطع تحمل صدمة استبعاد أسياده القدماء؛ فمات بعد شهور قليلة محسوراً. وجدت أم فوفو نفسها (تتمتع بمسحة بسيطة من الجمال وإن كانت تمتلك البشرة الوردية والشعر الأشقر والعينين الزرقاوين بحيث تتميز بشكل واضح عن أهالي البلد ببشرتهم السمراء وشعرهم الأسود وأعينهم الداكنة السواد) وجدت نفسها تعمّق معرفتها بهذا الموقف الجديد. اكتشافها لأصل معظم الحكام الجدد، الذين تكاثروا بسرعة مدهشة بعد الاستيلاء على السلطة وملحقاتها من قصور ومجوهرات وتحف ونساء تطبيقاً للتقليد الحربي القديم بأن المنتصر، من حقه السبي. وهكذا وقعت أموال الأمير وقصره، في القرعة السرية عند تقسيم الغنائم في حجر أحد الضباط من أصول طبقية لم تكن أحسن كثيراً من طبقة الشربتلي.

لم يكن الأمير العجوز أو أسرته في البلاد حينما سقط النظام الملكي. هرب الخدم من القصر وقد حملوا معهم الأشياء التي كانوا يتمنون أن يسرقوها فى السابق لولا خوفهم المقيم من عقاب الأمير الذي كان ينفذ قانونه الخاص علناً في حديقة القصر: جلد وكي بالنيران. لم يتبق في القصر سوى أسرة الشربتلي.

السيدة أم فتحية استطاعت في أيام الفوضى الأولى؛ من الحفاظ على رباطة جأشها (فلم تكن بذلك الولاء الأعمى لأسيادها مثل زوجها بل كانت تكن لهم الاحتقار لأسباب سيأتي ذكرها).. استطاعت بمفردها أن تسرّب (إلى السراديب السرية للقصر) كل ما وقعت عليه من أشياء ثمينة حتى تلك التي لا تعرف قيمتها: اللوحات الزيتية لكبار فناني العالم والسجاجيد الشنواه والفازات الكريستال والمخطوطات القديمة المكتوبة بماء الذهب والمكاحل العاجية وعلب السعوط المطعمة بالماس والمسابح من العقيق والأراجيل من الأبنوس والمناضد الصغيرة المصنوعة من سن الفيل وقطع الصابون الفاخر ومهامز الخيل صناعة شيفلد في إنجلترا والصور الفوتوغرافية الجنسية وارد باريس وسجاجيد الصلاة من تبريز وأصفهان وأدوات المطبخ من السويد وعشرات الأشياء التي ليست لها قيمة مثل ورق التواليت والبخور.

في اللحظات الأخيرة وأحذية الجنود الثقيلة وأصواتهم الغليظة تقترب من القصر تذكرّت أحقاق الزجاج التي تحتوي إحليل التمساح وارد السودان. تعلم بخبرتها العملية الشخصية فائدتها السحرية على الرجال الذين طعنوا في السن - مثل الأمير- تعيد لهم شبابهم الفتي وقدراتهم الذكورية. كان الأمير في شيخوخته يحب ان يستدعيها من وقت لآخر حينما يتذكرها لتقضي معه ساعات في فراشه العتيق الكبير. تقوم بوضع المعجون اللزج ذي الرائحة المسكرة على الأماكن التي يحددها لها فوق جسده، وتراقب مذهولة ومستثاره رد الفعل السريع الذي لا تخطئه عينها اللماحة وجسدها الراغب. لم يكن زوجها يعترض حينما يستدعيها الأمير بواسطة الشماشرجية العجوز المكلفة باستدعاء النساء اللاتي في القصر مهما كانت وظائفهن الوضيعة للرد على النداءات التي يعلنها الفم الأترم للأمير العجوز؛ بل كان الشربتلي يعتبر ذلك شرفاً له ولأسرته. ومع أنه لم يشك في أن فتحية ابنته ومن صلبه إلا أنه اعتبر أن اشتراك الأمير معه في جسد امرأته أعطى لفتحية الحق الأميري في الدم الأزرق. ولهذا أسماها حينما ولدت "فتحية" على اسم أميرة من الأسرة المالكة.

من أسباب موت الزوج حسيراً هو أن قانون السبي أعطى المنتصر الجديد الحق أيضاً في الزوجة التي لم تعترض على تغيير أسياد الفراش. ورغم أن السيد الجديد لم يكن يعلم بالدقة وضع أسرة الشربتلي في القصر إلا أنه صدّق ما قالته له أم فتحية بأنهم يمتون بصلة قرابة للأمير (لم تحددها ما إذا كانت بعيدة أو قريبة).. لعله كان يريد أن يصدّق ذلك، خاصة أن مستندات الأم والبنت من الشعر الذهبي والبشرة الوردية والأعين الزرقاء، تؤكد ادعائاتها.

مات الزوج محسوراً وهو يرى هذا الضابط (العادي) الذي لا يعرف آداب المائدة يحتل قصر الأمير وفراشه، وبالتالي زوجته أم فتحية التي تشرف جسدها بالجسد الأميري.

كبرت فوفو وخرطها خرّاط البنات وهي في بيت العز.

استطاعت أمها أن تقنع الضابط الذي سباها أن يتزوجها (سراً بالطبع) ولكن السر لم يحفظ طويلاً في البير إذ عرف به القائد وأمره بأن يعلن الزواج رسمياً، حيث كان يرفض فكرة المحظيات والزواج السري بين رجاله الذين صعدوا إلى دائرة السلطة الفعلية.

حينما ترقى رجلها ونال رتبة الأميرالاي، قررت أن تناديه بلقب "الأمير".. وطلبت من الخدم أن يحذوا حذوها. اعتبر الأصدقاء ما يحدث، نكتة، لكنهم لم يبالوا أيضاً أن ينادونه باسم "الأمير".

بالطبع تحولت أم فتحية إلى مدام زيزي البرنسيسة بعد تحوير بسيط لاسمها. اسمها الأصلي ساعدها على ذلك.. زنوبة.

سارت الأيام وفوفو يزداد إلمامها بالحياة من خلال الدروس اليومية العملية التي تطبقها مدام برنسيسة على الأمير وكل من يحيط بهم من بطانة وأصدقاء ورجال أعمال وسماسرة وعشاق وساسة ورجال دولة، خاصة بعد تعيين الأميرالاي – الأمير – سفيراً في واشنطن، دي سي.

حينما دالت دولة الأمير.. رجعت الأسرة مرة أخرى للوطن. استقرت الأسرة في أعلى بناية في الزمالك، حينما بدأ عصر العمارات العالية. اشترى الأمير – باسمها بالطبع – الطابق كله ووضعت فيه ذلك الخليط المدهش من كنز السرداب والأثاث الأمريكي الحديث. وحينما مات "الأمير" ذات صباح وهو جالس في المرحاض، تحدثت الصحف عن مأساة الوطن بفقده.. هكذا أعلنت البيانات الرسمية.

وهكذا..

استيقظت فوفو هذا الصباح الذي بدا مليئاً بالاحتمالات الطيبة: فسوف يتعشى عندها هذه الليلة السفير الأمريكي الذي ألمح لها أنه يود أن يلتقي بقائد الانقلاب الأخير الذي وافق مرحباً (فالأسرة تعرفه منذ أن كان يعمل كضابط صغير في خدمة الأميرالاي) وكانت قد نجحت منذ أيام قليلة في ترتيب موعد -عشاء أيضاً – بين السفير الأمريكي وقائد "المجاهدين" وذلك من خلال سائقها

الخاص الذي كشف عن هويته منذ البداية واحتفظت هي به في خدمتها عملاً بالمثل "ما لايقتلني يقويني".

علاقاتها بالسفارات المختلفة تتيح لها تمويناً منتظماً من المواد التي تحتاج إليها مائدتها الحافلة دوماً بالسياسيين ورجال الأعمال والدبلوماسيين والانقلابيين والحكام المقبلين والفنانين وأولئك الذين تنحصر مهمتهم في الاستماع وكتابة التقارير لأكثر من جهة وبالطبع الصحافيين الذين يواصلون تذكير الناس بها.

شخص واحد سيتخلف عن عشاء الليلة (ولم تكن فوفو ساعتها تعرف ذلك).. هو ذلك الذي يجلس الآن ساهماً على المقعد الحديدي. في ضيافة أبو أحمد.

هو أيضاً كان يفكر في هذه اللحظة بعشاء الليلة الذي لن يحضره؛ فقد كان يحس بجوع بالغ.

من الأوراق الخاصة..
كيف التقيت بفوفو للمرة الأولى؟

كنت يا سيدي في الواشنطن دي سي. هناك قابلت الراجل الأهبل السفير بتاعنا. أهبل بجد. كان يظن أني زميل سلاح له وهو بالطبع معذور يا سادة فقد خرجت من المعتقل لتوي وسفروني في جولة لبلاد الأمريكان باعتباري عميل للسي آي إيه ومهما حاولت نفي الحكاية فلا يصدقك أحد. كانوا عاوزين اتصال بالأمريكان رغم كل الكلام الفاضي بتاع محاربة الإمبريالية الأمريكية من إذاعة صوت العرب. قرروا إني بتاع الأمريكان. وفي النهاية سلمت أمري لله وتصرفت باعتباري الرجل الخفي. العصر كله كان عصر الرجال الخفيين خاصة بعد أن وجدوا عندي الملفات التي كنت أقتبسها من الأرشيف لرجالات الانقلاب والتي كانت بسيطة وهايفة ولكنها تعطي بعض الضوء على بعض

الحاجات الشخصية. اعتبروها سر قومي، وخاصة بعد أن نشرتها التايم أو النيوزويك.. لا أعلم من وشى بي ولا من ساهم في الإفراج عني. هذه الأشياء هنا تتم بالصدفة وغالباً في لحظات يكون فيها المسؤول المعني تحت تأثير مجلومانيته الخاصة أو القومية وكله واحد. المهم.. السفير كان بيحب الناس تناديه بلقب أمير مع إنه كان مجرد ضابط صغير أيام الانقلاب ضد الملك والأمراء بالطبع. تزوج أم فوفو إللي أيامها غالباً كانت داخلة على العشرين في أواخر سنوات المراهقة. فايرة. لضمنا مع بعض تحت رعاية العين الصقرية للبرنسيسة زوجة الأميرالاي والعين البلهاء للأميرالاي.

أحسست بفوفو ترفرف فوق خاصرتي فمددت يدي بحركة شعبية من تحت المائدة أبحث عن يدها التي أعطتنيها إياها ضاغطة بأصابعها التي قادتني بعد ذلك إلى ذيل الفستان القصير. فقد كانت الموضة أيامها هي المني جيب الرائع قبل صدور الفرامانات الدينية إياها بجعل ذيل الفستان يجمع كناسة الشارع. اكتشفت بعد ذلك وخلال الفحص المعملي للحالة كما يقول يوسف بك وهبي بأن عود الكبريت قد تم اشتعاله أكثر من مرة. قررنا أنا وفوفو أن هذه الحكاية لا تنطبق على الأميرات اللاتي هن الزبدة والبهريز إنما على العوام والدهماء وبنات السبيل. مش مهم. وجاءت الأيام وراحت الأيام وتحولت علاقتنا إلى علاقة بيجمالونية. أصبحت أنا الجورو والمعلم والحكيم وصاحب الملفات والعلاقات والخبرات وإدعيت وجود حزب ملكي ولي علاقة به.

مزاج الكتابة

أسيوط – الكلية الأمريكية – ١٩٥٠

جاء يوم الأحد الموعود وقد حافظت على وعدي بالطهارة للقس إبراهيم،

مستعيناً على ذلك بالصلاة، وربط حجر في ظهري حتى "أنجو" أيضاً من الاحتلام طبقاً لنصيحة القس إبراهيم (كنت ترى مجموعة من أولاد الداخلية ينقبون فناء الكلية بحثاً عن الأحجار ويتباهون فيما بينهم بحجمها وضخامتها).. وذلك استعداداً "للمناولة" الأولى بالنسبة لي.. أي أن أصبح مسيحياً حقيقياً؛ بأنْ أشرب من جسد المسيح وآكل من جسده تطبيقاً للتقليد الذي قام به المسيح في "ليلته الأخيرة" قبل صلبه، فيما يسمى العشاء الأخير.

جلسنا في الصف الأول الذي يجلس فيه عادة أساتذة الكلية كامتياز خاص لنا. وألقى المدير الأمريكي للكلي، الدكتور إسكلي، موعظة خاصة. جلسنا في الجزء الأخر من الكنيسة الموجودة في كلية البنات. حيث كنا نذهب نحن الأولاد، للصلاة هناك ولعل السبب هو رغبة الإدارة في عدم انتقال بنات الكلية، عبر شوارع أسيوط للصلاة في كنيسة كليتنا.. في الجزء الخاص بالبنات، تجلس أختي ومعها بنات السودان (كما يطلق عليهن) ينظرن إليّ مبتسمات ومشجعات وخاصة حينما وقفنا جميعاً بعد أن نادى القس إبراهيم على أسماءنا الثلاثية ببطء متعمد نردد وراءه العهد المقدس.

في الأحد الأول من كل شهر بعد ذلك كنت "أتناول" جالساً في الصفوف الخلفية التي أحب أن أجلس فيها بعيداً عن رقابة أخي الأكبر وبعيداً عن عين الألفة الصارمة. وفي السنتين اللتين قضيتهما بمفردي في الكلية بعد أن تخرج منها أخي الأكبر ولحق به أخي الذي يكبرني. لم أذهب بعد ذلك أبداً للمناولة، بل انقطعت عن الذهاب للكنيسة بعد أن اصطحبت، مع الألفة الذي كان يسمح لي بالتزويغ، ويكتب اسمي في قائمة الحضور.

ذهبت إلى أسيوط ثلاث مرات بعد أن تخرجت من الكلية بعدة سنوات. الأولى وأنا في ملابس السجن مرحّل من سجن إسكندرية حيث كنا نحاكم أمام محكمة عسكرية، بتهمة قلب نظام الحكم. كنا: أبوسيف يوسف أبوسيف، السكرتير العام للحزب الشيوعي المصري وإسماعيل المهدوي الصحفي الذي، ترجم الكتاب الشهير "المادية الجدلية" لجورج بولتزير، ألقى به عبد الناصر بعد

الإفراج في مستشفى المجانين لسنوات طويلة. وسامي خشبة الناقد والصحفي الذي تدرج في المناصب حتى وصل (الآن) مديراً لهيئة المسرح أو شيئاً من هذا القبيل، حسين شعلان الذي عمل فترة رئيساً لتحرير صحيفة الأهالي المعارضة، ويحيى مختار، الكاتب النوبي المعروف (الآن) وعاملان نقابيان هما أحمد سالم ومحمد بدر، والمرحوم الكاتب عبد الحكيم قاسم والشاعر شوقي خميس، وطالبان من كلية الطب (أيامها) شوقي مجاهد وفريد رمزي. (كان القاضي الرئيسي هو الفريق هلال عبد الله هلال الذي استسلم دون قتال في حرب سبعة وستين في جبهة سيناء، وتمت محاكمته عسكرياً بعد الهزيمة وإقصائه من الجيش، لكنه لم يختف تماماً من الحياة العامة، بل تسلم منصباً مدنياً مهماً بعد ذلك. إنهم لا يختفون، مهما حدث!).. وهكذا وصلنا أسيوط بعد رحلة في لوري الترحيلة المكشوف من الإسكندرية إلى القاهرة.

كان ترحيلنا في الشتاء إلى سجن مصر الذي هدمه السادات بعد استيلائه على السلطة في حركة مسرحية، لنستريح فيه بضع ساعات ثم لوري آخر إلى أسيوط التي قضينا فيها ليلة. وضعوني مع أربعة آخرين في زنزانة الإعدام نظراً لتكدس السجن. في الصباح ركبنا، والأغلال في أيدينا (صناعة الصين الشعبية)، عربات جيب روسية، إلى معتقل الواحات. لا أذكر السبب الذي جعل العربات الجيب تتوقف طويلاً أمام السجن قبل الترحيل. أعرف موقع السجن بالضبط لأني كنت أراه كل يوم عدة مرات - حتى أصبح مألوفاً تجتازه عيناي دون أن أراه - على الشاطىء الآخر لترعة الإبراهيمية في مقابل الكلية. المرة الثالثة كنت في لاند روفر مكيف الهواء مع صديقين هولنديين (السفير الهولندي - أيامها في القاهرة، وصحفي هولندي) في طريقنا من القاهرة إلى قنا بالطريق البري لنذهب منها إلى وادي حماصرة في الجزء الجنوبي الشرقي من البحر الأحمر لحضور مولد سيدي أبي الحسن الشاذلي. في هذه المرة توقفنا ساعات قليلة في أسيوط لنشتري بعض الطعام (جبناً وعنباً وخبزاً ومياه معدنية) لنتركها بدون أسف لنخيم على تخومها. أصبحت مدينة شديدة القذارة مضجة مزدحمة تمتلىء شوارعها

بشعـارات الجماعـات الإسلامية واختفت بناتهـا خلف الخمار، ورجـالها خلف ثيابهم الباكستانية ولحاهم، أو في زراعات القصب العالية ومغارات الجبل يعدون العدة ورباط الخيل.

مـا الذي جعلني أتذكـر أسيـوط وكل هذا الهم بعـد كل هذا العمـر. خبـر صغـير قرأته في الصـحف (اليوم) عن "استشـهاد ضابط من الشـرطة برصاص "الإرهـابيـين" في كمين في أسيـوط". خبر أصبح عادياً يقرأه الواحـد يومياً في الصحف المصرية. تجاوزته اقرأ أخبار العنف الأسري، وغيرها من أنواع الجرائم وخاصة النصب التي انتشرت في مـصر. شيء ما جعلني أرجع مرة أخرى إلى خبـر الضابط واقرأ اسـمه بإمعان. كـان زميلي في أسيـوط. أعتقـد أنه كان من القرى القريبة من أسيوط.. أهله من المزارعين الميسورين. لعله كان يكبرني بسنة أو أنا الذي كنت أكـبره. لـم نكن أصدقـاء حـميمين لكنه كان يـحب أن يحوّم حـول مـجموعـة السودان. قبلناه دون ترحـيب ودون امتـعاض. التقـيت به بعد ذلك عدة مرات كلها بالصدفة. المرة الأولى وهو طالب في كلية الشرطة مختالاً بثيابه. كنـت أنا وقتها أدرس الصحـافة ومنضم لتنظيم ماركسي سـري. تبادلنا أخبـارنا وطلب عنواني فأعطيتـه عنواناً خاطئاً وكلية مختـلفة (أليس هو كلب الحـراسـة الطبقي؟!) التـقيت به بعـد ذلك وأنا في سجن الإسكندرية خلال محاكـمتي. كـان هو الضابط المشـرف على ترحـيلنا من السجن إلى المحكمـة وبالعكس. التـقت عينانا للمـرة الأولى بدهشة صـاعقـة. أنا حليق الرأس على الزيرو حـلاقة صـالون السـجن ومكبل بالكلبـشات وهو في بذلـته العـسكرية الأنيقة وإن كان قد بدأ يظهر له كرش صغير غير أنيق. للوهلة الأولى أحسست به يريد أن يقـبل عليّ كعـادته القديمة هاشـاً محـيياً، وأنا للوهلة الأولى بدأت أحـضّر كـذبة أبرر بهـا العناوين والمـعلومات الخـاطئـة التي أعطيتـه إياها منذ سنوات. كل منا اسـترجع موقـعه بعد هزة المفـاجأة الأولى. أدار وجـهه ولكني لمحت الوجه الذي تضرج فجأة. اكتشفت أنه لا داعي لأن أبرر له أي شيء وأنا في وضعي هذا. ظللنا نسـترق النظر لبعضنا كـأنه يحاول التأكد بل رأيـته يقرأ

بإمعان قائمة المسجونين الذين في عهدته. كنت أحسب حسابات سريعة في ذهني: هل أكلمه وأبدي معرفتي به وهل سيكون هذا سبباً في إحراجه خاصة أن المكان مليء بضباط المباحث العامة.. أم أتركه هو يحدد الخطوة الصحيحة. قررت الاختيار الثاني. لم يقدم على أية خطوة بل حينما خرجنا من قاعة المحكمة لم أره. بحثت عنه سريعاً لكني لم أتبينه. لعله يقف يراقب الموقف عن بعد أو لعله ترك الخدمة لزميل له. رأيته بعد ذلك بسنوات في جنيف حيث كنت أعمل في الإجازة الصيفية منظفاً للمراحيض في مكاتب الأمم المتحدة. تقابلنا صدفة في بار، مساء يوم جمعة. شاب شعره وظهرت التجاعيد العميقة في وجهه. حوالي عشر سنوات على لقائنا الأخير... لحظات حذرة في البداية، لكنه أقبل عليّ هاشاً - كعادته - أغرورقت عينا كل منّا بالدموع، حاول بتلعثم أن يبرر موقفه المتجاهل لي يوم المحاكمة، لكني قلت له إن الموضوع كله غير مهم وإني مقدّر لموقفه. احتسينا كميات كبيرة من النبيذ أصرّ هو على دفع الحساب، وخرجنا إلى الشارع نتطوح ونضحك ونحن نتذكر أيام أسيوط ونتبادل المعلومات عن زملاء الماضي. اتفقنا على اللقاء مرة أخرى. في موعد اللقاء لم أذهب، وتجنبت هذا البار لفترة شهر.. الفترة التي سيقضيها في جنيف. كان قد اعترف بعد مراوغة طويلة منه وفقدان اهتمام مني أنه حضر إلى جنيف للتدريب. لم أهتم أن أسأله أي نوع من التدريب، تذكرت وأنا أبرر لنفسي عدم الذهاب إلى موعده. كنا نعتبره أحد الطلاب الذين يعملون لحساب الإدارة في الكلية.. أي يتجسس على الطلبة الآخرين ويبلّغ عن من يدخن ومن له "علاقة" بطالب أخر. كنّا نعرف أن بعض الطلاب الفقراء يقبلون القيام بهذه المهمة لكن هو؟ الميسور الحال؟

ها هو يموت في أسيوط وليس في بلد سواها!

* * *

حينما يترك الخاطف المخطوف لوحده فتنتابه الهواجس

اتسلمت؟ حد كان مراقبني؟ طيب مين؟ مين إللي عايزني؟ حتى الناس دول موش قادر أحطهم في خانة. هل هم مجرد وسطاء؟ مرتزقة؟ ليهم مصلحة؟ بس مصلحة إيه؟ أكيد كنت متراقب، على الأقل في الأسبوع الأخير. وإزاي ما خدتش بالي؟ أطلع وأدخل زي الحمار.. خطوط سيري واضحة ومحددة. ده من تأثير السن والعجز والعادة. الروتين المريح واللي بيصبح جزء من الحياة اليومية. لكن أكيد عايزين مني حاجة. إيه هيه؟ وإلا كانوا خلصوا عليّ في ساعتها، كلب وراح في كلابه. البلد زي الغابة، بلد سايبه ما لهاش صاحب. لكن مادام عايزين مني حاجة، تبقى الحاجة دي عندي، وطول ماهمه عايزينها، حايحافظوا على حياتي، عايزيني حي، طول ما الحاجة دي لسه عندي، لكن أول ما أديها لهم، هوب رحت يا حدق في شربة ميه. بس إيه هي الحاجة دى؟ حاول تفتكر. خليك هادي وأعصابك جامدة. تكون فوفو سلمّت الورق؟ ما هي مالهاش أمان برضه. لو شافت ليها مصلحة ولو بسيطة، تبيع أبوها وأمها كمان. ليه الواحد ما بيتعرفش إلا على النوع ده من القحايب. بس ده موش مظبوط، وداد ورونسي، ورونسيه، جدعان آخر جدعنة، تلاقيهم بيسألوا نفس السؤال. ليه الواحدة ما تتعرفش إلا على رجالة أولاد وسخة. الواد الرشيدي مثلاً، إيه إللي خلى واحدة زي البنت وداد ترتبط بيه وهيه ضفرها برقبته، قواد قراري، لكنه اختفى برضه زيّ غريبة، تلاقي حد خطفه.. معرّص عادي.. مئات وآلاف زيه ماليين البلد وعايشين في البلهنية. لكنه دخل بين أسنان السلطة، بين أنيابها، وهي في لحظات انهيارها الطويلة البطيئة المؤلمة. لكن البنت فوفو دايماً تنفد بجلدها، قصدي بلحمها. عمرها كام دلوقتي؟ إحنا في إيه وللا إيه؟ الواحد مخه بيشت منه زي الرهوان. فكر بهدوء وإللا حتلاقي نفسك زي الواد الرشيدي في الباي باي. المفروض إني معاش. أروح في حته مشمسة. بيت بجنينة صغيرة. أزرع شوية

خضروات، وأجيب فلاحة تخدمني وتدلكلي صوابع رجليّ. أنا معاش من زمان، بس موش واخد بالي، عامل زي الشيخ سيد. الحمد لله الواد الشيخ سيد شخصية لا يمكن أن تتكرر. ده ببركة الأوليا، تصور يكون فيه ناس تانيه زي الشيخ سيد. تلاقيه قاعد بيشرب بيره، وبيفتي كالعادة. تلاقيهم غلطانين فيّ. زمان، كانت الحكومة هي إللي بتعتقل الناس. أما اليومين دوله، الميليشيات. فاكريني حد تاني مهم. بس الناس دول ما بيطلعوش حد إفراج. أخي هؤوه. رصاصة في القلب. ويرموك في الزبالة، ولا من شاف ولا من دري. فوفو ما فيش غيرها.تربية إيديك ياسيدي. رونسيه دايماً كانت تقوللي بلاش رمرمة. لأ موش رونسيه. رونسي هي اللي بتقول بلاش رمرمة. كانت دايماً تضرب المثل برونسيه باعتبارها رمرامة قراريه، رغم الباشوات والقصور والخدامين. كله من الخدامين. فوفو بنت الخدامين. ويا ريت خدامين، عبيد يا أستاذ. تلاقيهم من نفس عيلة العبد إللي قتل حمزة وجاب كبده بتكليف من بنت الأصول السيدة هند بنت أبي سفيان. علشان تاكلها. خدامين، وعبيد وباشوات، نفس الحكاية. إصحى للون زي ما بيقولوا ولاد البلد. بيقولوا إن كان صباعك عسكري، إقطع دراعك كله. مقايسة ولامناقصة. بكام يا فوفو بكام؟

الخميس ذاته ليلاً

أعطوه طعاماً مطبوخاً شهياً، وكوباً من الماء البارد. وقف خلفه حارس مسلح حتى انتهى من الأكل. سمك بالرز، وسلاطة خضراء ومخلل. قال لنفسه بالتأكيد سواحلية، أو من أي زفت مينا. تذكر ما قرأه مرة من أن السواحلية يتميزون، رجالاً ونساءاً بمؤخرات كبيرة. والسبب؟ أكل السمك بالرز! ضحك. لم يستطع أن يكتم ضحكاته.

قيدوا يديه مرة أخرى (من الخلف) بحبل ثقيل. قادوه معصوب العينين عبر

درج هابط عدة أمتار. أحس أنه يسير في سرداب أو سراديب.. عرف ذلك من صدى الأصوات رغم همسها. صعدوا به مرة أخرى عدة أمتار. أحس بالهواء البارد الجاف. لعلني على مشارف الصحراء. سيقتلونني الآن. لكنهم وضعوه برفق، على مقعد سيارة. فكوا العصابة من عينيه. جاءه صوت من جانبه الأيمن "تلاقيك خرمان.. إحنا آسفين. أصله ما خدناش بالنا. ما حدش فينا بيدخن. ومع ذلك يا أخي الفاضل هاك علبة سجائر وإن كنت أرجو من الله أن يكرمك ويعفي عنك وتبطّل السجائر".. كانت السيارة القوية الآن تنهب الليل الصحراوي. لاحظ أن حارساً مسلحاً يجلس بجوار السائق (سلاحه الرشاش ظاهر بتعمد واضح) ويتحدث بين وقت وآخر هامساً في الووكي توكي. يجلس على يمينه، أبو أحمد. تلقى علبة السجائر بشكر حقيقي وأشعل سيجارة بدون تردد وهو يحس بالراحة الحقيقية لأول مرة منذ حوالي خمس ساعات أو أكثر.. منذ أن خطفوه.

في الوقت نفسه

في الوقت نفسه كان الضيوف يتوافدون على الشقة الكبيرة التي تطل على النهر من جهته الغربية والتي تعلو سطح البناية، تقف شاهقة بطوابقها العشرين فوق الزاوية التي يحيط بها النهر في نهاية الجزيرة في الزمالك.. يستطيع من يقف في الشرفة العالية أن يلقي نظرة طويلة متأنية فوق الجزيرة، وعبر الجسر الذي يربطها بالشاطىء الآخر حيث يسكن العمال والخدم الذين يعبرون النهر في المعدية الصغيرة كل صباح ليعملوا كخدم وسواق وبستانية لساكني الجزيرة.

فوفو تقف في الردهة التي ينفتح عليها المصعد مباشرة وقد انسدل فوق جسدها الأربعيني المتلىء، قفطان أسود حريري مطرز بخيوط من الذهب، ووضعت فوق شعرها المذّهب (المصبوغ حديثاً) تاجاً صغيراً (من أسلاب

السرداب ويخص - كان يخص - جدة الأمير) محلى بفصوص من الفيروز والعقيق الحر. قدماها في خف صغير من الساتان الأبيض مشغول كله بالذهب هدية من أمير - حقيقي - عربي أحد الزبائن المستديمين السريين لمنتجات تماسيح الأميرة (هذا هو اسمها التجاري) لم تكن ترتدي تحت القفطان سوى حمالة الصدر التي تعتبرها فوفو ضرورية لتشد إلى أعلى صدرها فتبرز، من فتحتين صغيرتين في الحمالة - حتى لحسيري النظر من الجنرالات - بقعتين بنيتين متصالبتين، خلف النسيج الرقيق للقفطان المشقوق من الجانبين (من منتصف الفخذين) حتى نهايته التي تمس الخفين الذهبيين.

بعد العشاء، عادة ما تجلس على عرشها المرتفع (وهو عرش حقيقي صغير اشتراه الأميرالاي من المزادات السرية لأثاثات القصور التي كانت تحتلها الأسرة المالكة السابقة، والتي كانت تقام لتوزيع الأسلاب على الضباط المنتصرين).. العرش وضعته فوفو بموهبتها في الإخراج المسرحي، في الزاوية البعيدة والعارية من أية ديكورات في الغرفة التي تستقبل فيها الصفوة (وطلاب الحاجات بالطبع) بعيداً عن المدعوين الآخرين. المقاعد التي سيجلس فوقها أولئك الذين تسمح لهم بالمثول أمامها موضوعة في قوسين يحيطان بالعرش.. مقاعد واطئة بالنسبة للعرش، ومساند الظهر بها محدوفة إلى الوراء: الجالس عليها يكون شبه مضطجع، وعيناه على فتحة القفطان و ما يظهر من الفخذين من فتحتي القفطان المنحاش بإهمال، يبدو كأنه غير متعمد، إلى أعلى لكي تأخذ الأميرة راحتها في جلستها على العرش، وحولها خلصائها وقد وضعت قدميها فوق نمر محنط في وضع الوثوب، تاركة للجالسين أن يستخدموا مخيلاتهم وهم يلقون بنظراتهم الحسيرة على اللحم المتماسك (الذي لا يزال) تصعد نظراتهم من القدمين المرتاحتين فوق رأس النمر، إلى المصب - أو المنبع - الغامض الذي لا تحرسه سدود من الثياب.

تعتمد على سمعتها التي تزداد غموضاً على مر الأيام. فليس هناك من يستطيع أن يجزم بأنها أعطت جسدها لأحد من الذين يحيطون بها، وهي حريصة

على تأكيد هذه المقولة، التي هي صحيحة في الأغلب إلا في حالات نادرة تكون واثقة فيها من قدر عال من الكتمان.

يقف أمامها في الناحية الأخرى من غرفة العرش عبد أسود (هدية من أمير عربي آخر مشهور بشراء العبيد الأفارقة، من دولة إفريقية تبيع رعاياها بشكل شبه علني) ومهمة العبد محددة (على الأقل بالنسبة لزوار الغرفة) يقرأ رسائلها الصامتة التي ترسلها بعينيها فيتقدم إليها ليخلع عنها الخف (أوالحذاء أو الشبشب حسب الظروف) وينحني يدلّك لها ساقيها أو يصب لها الشراب في الكأس الذهبية. إنه يخصها وحدها. وهي لا تسمح أيضاً لأي من الزوار بأن يشرب - حتى ولو كوباً من الماء في حضرتها في غرفة العرش - هي الوحيدة التي تدخن، مستلقية على عرشها، أرجيلة من البلور والذهب يقوم العبد الأسود باشعالها ورعايتها.

بغريزتها المرهفة اكتشفت غيابه. عقلها الذكي الحساس يعمل بسرعة. لقد تسلم دعوتها ووعد سائقها بالحضور. تتماسك وإن كانت قد سجلت في مخها غيابه الذي يبدو الآن مؤكداً مع نفاد موعد حظر التجول. ينغرز قلقها عميقاً في صدرها، لكنها تخفي كل ذلك وهي ترحب بزوارها، الذين يتسلمهم خدمها المدربون ويقودونهم إلى أماكنهم المحددة. يقدمون لهم الشراب والمزات الخفيفة. تمتلىء الشقة الواسعة بالمدعوين؛ قائد الانقلاب، ونائبه (كل منهما يخشى الآخر فلا يفارقه) ثم السفير الأمريكي الذي أحضر معه حرسه الخاص كذلك السفير الإسرائيلي (وحرسه الخاص) وممثل السوق الأوروبية المشتركة ومدير الجامعة ورئيس تحرير صحيفة الأهرام والرئيسان الحالي، والسابق لمجلسي الشعب والشوري. محررون من صحف المعارضة (الوفد ـ الشعب ـ الأهالي) التي ما زالت تصدر. مندوبون من الصحف التي تبيع صفحاتها لمن يشتري بالدولار أو بالين وتصدر من قبرص مثل الجيل والميدان والأسبوع والنبأ... إلخ. مخرجون للسينما والمسرح. ممثلون وممثلات. وزراء سابقون وتجار السوق السوداء. موردو

سلاح ومهربـو مخدرات. كهنة (من الأديان الثلاثة) وراهبة أمـريكية تعمل وسط الزبالين. سـالي تومسـون ومسـؤول المخابـرات الأمريكي ونظيـره الروسي وممثل الموساد الذي حـضر في زيارة سرية من دولة عربيـة أخرى حيث يقيم "مـضاربه" هناك، باعتبـاره، رئيس المعهد العبـري الثقافي. وحضر، أيضـاً ممثل الأمم المتحدة لحـقـوق الإنسـان وأمـراء عـرب والمطالب بعـرش إيران، وحكـام ورؤسـاء جمهـوريات أفارقة أطاحت بهم انقـلابات عسكرية، دبرها سـفـراء الدول الذين يقفون بجوارهم الآن يـتبادلون الحديث، والنكات والإشاعات والمعلومات، التي يعلمون أنها مضللة.

سالي تومسون – أيضاً– كـانت تبحث عنه. أرسلت من يقول له، إنها ترغـب في لقـائه لأمر شـخصي – كـما أوضـحت – ووعـد هو أيضاً بلقـائها في حـفل العشاء عند فوفو. كان هو من قدمها إلى فوفو وفتح لها هذه السكة. لم يكن أحد يعلم – من كل أولئك الذين سجلت عقولهم في صـمت بسرعة غيابه – لم يكن أحد يـعلم أنه الآن يقاد مـعصـوب العينين في سـراديب المدينة وممراتها السـرية، ليلتقي بشخص آخر كان من المفروض أن يكون أيضاً في هذه الحفلة ولكنه فضّل أن يحضر بعد أن ينهي ما يقوم به الآن (وقد أرسل لـفوفو يخبرها بأنه يريد لقائها بعد أن ينصرف زوارها).. كان ينتظره في الطرف الآخر من المدينة وفي السرداب الذي تقع فيه القـيادة السرية للملكيين، الذين، سوف يحـددوا إعلانهم، أو عدم إعلانهم، إعلان تشكيل الحزب الملكي وحكومةالمنفى، خلال الساعات المقبلة.

لكنه لم يعـرف، حتى الآن، السبب الحقـيقي لخطفـه. حاول أن يقنع نفـسه، بأنهم (الخـاطفـون) أخطأوا في هويتـه. عامـلوه حتى الآن، بدون عـنف، ما عـدا الخبطة التي أصابوه بهـا على أم رأسه.. لم يكن يعرف أيضاً، أنهم كـانوا يراقبون تحركاته مـنذ أسبوع، منذ أن تسلم مندوب الحـزب الملكي مجموعة من الأوراق من فوفو اعتـبرها وثائق مهمة، واعتـبر كاتبها، شخصـية لا بُدّ من "لقائه" بـأيـة طريقة، حتى لو كانت بالخطف.

في الوقت نفسه

كانت الاستعدادات، تجري بهستريا مقدسة للاحتفال السنوي بانتصار مار جرجس الفارس والقديس الروماني، على التنين، في ديره البعيد في الصحراء والذي ظهرت فيه أعجوبته الجديدة من خلال أيقونته التي اشتعلت، فجأة، ولكنها بقيت كما هي لم تحترق.

أعلن المفسرون إياهم؛ أن مار جرجس، نفد صبره وها هو يعطي للبشر المؤمنين والمهرطقين علامة جديدة.

نفد صبره وهو ممتطي جواده المتوفز منذ قرون طويلة شاهراً سيف نقمته الناري. يريد أن ينقض على التنين.

ظهرت المجموعات، وأفراد من المؤمنين المقاتلين، عمّدوا أنفسهم "فرسان الشهيد العظيم مار جرجس" و"قتلة التنين" ويقال إنه ظهر لآخرين أطلق عليهم الناس اسم "الملثمون"، لا يعرف أحد أسماءهم، لكنهم، يظهرون - فجأة - فوق جيادهم، في الأماكن والقرى، التي يعاني غالبية أهلها، من المؤمنين المسيحيين، من عنت السنية، من الجماعات الإسلامية (حيث اعتمد الاصطلاح كتسمية رسمية في هذه الأماكن) يظهرون، بدون إنذار، ليعيدوا الأمور إلى نصابها، كما يعلنون، ليختفوا مرة أخرى.

السيف الملتهب المشتعل بالنار في الأيقونة الكبيرة المرسومة بماء الذهب (من صناعة العبد الفقير المقدس تاوفيلس شاروبيم المنقبادي) رمز المعجزة سمع بها الناس، ولم يشاهدها أحد لم تحترق الأيقونة بل ظلت مشتعلة تقاوم المحاولات الأولى لإطفائها. وحينما علم الراهب تاواضروس. الموضوع تحت الإقامة الجبرية في الدير بأمر مباشر من الحبر الأعظم بعد ذيوع شهرته في التنبؤ وعمل السحر للنساء العواقر فيحبلن مهما كانت أعمارهن.. حينما علم بأمر النيران المشتعلة التي لا تؤثر فيها وسائل الإطفاء، صرخ صرخة عظيمة محذراً كل من يحاول

الاقتراب من الأيقونة لإطفائها، بأن ما يحدث أعجوبة من القديس الروماني وإن النيران علامة وإنذار.

وحينما سأله الرهبان المرتعدون أن يفسر، أخذ يرقص تحت الأيقونة وهو يرتل بلغة قبطية قديمة مقدسة لا يعرفها سوى القلة من الرهبان المتنسكين.

ذعر الأب رئيس الدير مما حدث (خاصة وأنه كان يعامل الراهب بكثير من الخشونة طبقاً للتعليمات السرية التي كانت تصله من مكتب الحبر الأعظم) وحاول أن يتكتم الحكاية فلا تنتشر وسط المؤمنين خاصة في هذه الأيام العصيبة.

رهبان الدير قرروا أن لا يفقد الدير هذا الامتياز المفاجيء خاصة وأن الدير الذي يقع في قلب الصحراء أخذ يفقد منذ سنوات زواره، ونذوره.. لبعد المسافة، ورداءة الطريق وتوتر الوضع الأمني الجديد.

لا يعلم أحد بالتحديد كيف انتشرت أخبار المعجزة، لكن الرأي السائد أن مار جرجس ساهم هو بنفسه في ذيوعها بطرقه العجائبية التي اشتهر بها. النتيجة أن العشرات والمئات من المؤمنين واصلوا زحفهم الصحراوي للتبرك بالأيقونة المقدسة، وتحول الدير المنعزل إلى مزار هام وجاءت إليه السيارات والباصات تحمل المؤمنين والمؤمنات، يركعون في خشوع أمام أبواب الدير (فالأيقونة المقدسة التي ما زالت مشتعلة، كما يقول الرهبان، أخفوها داخل الهيكل) ولم يستطع الزوار رؤيتها والتبرك بها، وإن قدموا نذورهم للرهبان..

نصبوا خيامهم في ساحة الدير وخارجها، يتقاسمون زادهم، ويتبادلون الأخبار، التي تدور حول الراهب تاواضروس، وكيف أنه قبل أن يتم نفيه في الدير ذهب حافياً يحمل صليبه النحاسي الكبير إلى مقر الحبر الأعظم، يطالب بإعلان الحرب المقدسة، وطرد "المحتلين المسلمين" وإخراج الكنوز المخبوءة لبيعها وشراء الأسلحة. وكيف أن، الحبر الأعظم، رفض لقاءه وأمر بطرده من المقر، وبنفيه إلى الدير.

يتجول الراهب - الآن - وسط الخيام ممارساً حريته الجديدة بعد أن استخذى رئيس الدير، أمام أمواج المريدين والمؤمنين وحتى أمام الرهبان الصغار، الذين

كـوّنوا نواة حـرس خـاص للراهب، بعـد أن ظهـرت إشـاعـة، بـأن هناك خطة لاختطافه وقتله (لا يريـد أحد أن يشير بإصبع الاتهام إلى شخص محدد أو جهة معينة).. يتجول مبتسمـاً يبارك المؤمنين الذين يركعون أمامه يريدون تقبيل يده، أو حتى لمس ثوبه الخـشن (الذي لم يخلعه منذ زمن طويل الموشوم بالصلبـان وعليه آثار الطعام) ويؤمهم في صلاة الغروب في الساحـة الفسيحة المحيطة بالدير حيث أقام مـذبحاً من الأحـجار، فوق أكـمة ويسجـد خلفه آلاف من الرجـال والنساء والأطفال يتـجهون بوجوههم المبللة بالدمـوع ناحية الشرق ناحـية بيت لحم - أو هكذا خيل إليهم - يبتهلون أن "لا يحول المخلص وجـهه عن شعبه الرازح الآن تحت نير مضطهديهم".

تردد الصـحراء القـفرة منذ الآف السـنين، الآن، أصوات التـراتيل والابتهـال المتهدج "يا رب ارحم.. يا رب ارحم".

* * *

بدأ المدعون ينصرفون تباعاً بعد أن طعموا وشربوا من مائدة فوفو التي تميزت بكرمها، وبأطبـاقها غير المتوفـرة، حتى في السوق السوداء. أشـارت فوفو بعـينها إلى سالي تـومىء إليها أن تنتـظر حتى ينصـرف المدعوون الذين حقـق كل واحد منهم هدفـه من التواجد في الحـفل.. تمت الاتصالات المرجـوة بين الأطراف التي تفضل أن تتم لقاءاتهـا خارج غرف السفارات "بالصدفـة" وخلال حديث "عابر" انتـقلت مظاريف النقـود بعمـلات مـختلـفة بين أيدي مـتنوعـة. كذلك الأفـلام الصغيـرة التي صورتها كاميـرات مخصصة عـالية التقنية. تبودلت عـبارات يبدو للمستمع غير المعني تافهة وعادية، لكنهـا تحمل في طياتها التعليمات والتهديدات والإطراء والتحذير والزجر والإنذارات.

العـبد الواقف على بـاب غرفـة العرش، أفـسح لسـالي الطريق إلى الداخل. أغلق الباب خلفها في انتظار وصول فوفو، بعد فراغها من ممارسة طقوس وداعها للمدعوين. رفضت الليلة أن تشـرّف أياً منهم بلقاء خاص. كانت في انتظار ممثل

الحزب الملكي. إنها تعلم أهمية الخطوات التي يقوم بها ومدى تأثيرها على مجمل حياتها - أو بالتحديد ما تبقى منها - فالدم الأزرق الذي تدعي جريانه في عروقها التي بدأت تتصالب الآن بفعل الزمن، لن يستطيع الصمود في ادعائه، أمام ممثل للدم الأزرق الأصلي. الذي أعلن أنه يحمل، وثيقة رسمية، من قسم الوثائق والمحفوظات، في مكتبة الكونجرس الأمريكية، فيها القول الفصل لتحديد أصول وفروع وأوراق شجرة العائلة المالكة... لكن مجرد طلبه لقائها الليلة يعني لها الكثير خاصة بعد أن عرفت من مصادرها بالنشاط المحموم له منذ وصوله من الخارج منذ أسبوع.

في البداية لم تعر الموضوع كبير اهتمام. السفير الأمريكي ألح لها، بأن بلاده تتابع تطورات الموقف الجديد باهتمام، وأن "الممثل" يحمل وثيقة سفر أمريكية دبلوماسية، كذلك قال لها، بأن بعض الشخصيات المؤثرة في صنع القرار في بلاده تتابع باهتمام خاص مشوب بالعطف - حسب قوله - المطالب المشروعة للأسرة المالكة السابقة، التي أطاح بها نظام لم تستطع بلاده إقامة جسور للتعاون معه، وأن الضرر الذي نجم عن ذلك في المنطقة كلها كلف بلاده الكثير. خاصة بعد الحرب الأخيرة في الخليج البترولي حيث المصالح الاستراتيجية لبلاده تكمن في الصحراء البترولية المقدسة.

أدركت فوفو أنها تواجه موقفاً جديداً عليها؛ لهذا أرسلت السائق بالرسالة إليه.. "مرشدها" كما تحب هي أن تطلق عليه لتكسب الوقت، والحكمة قبل لقائها المرتقب (كانت تريد أيضاً أن تستبق ممثل الحزب الملكي، و"تعترف" لصديقها، بأن الأوراق، التي تركها أمانة عندها، ضلت طريقها، واتجهت بالصدفة، إلى الأيدي الملكية.. واحتمال يكون الواد السكرتير لعب بديله وأنه من الممكن أن نستفيد سوياً، ما تزعلش) لكن ممثل الحزب الملكي، قام بحركة الاختطاف المفاجئة، التي لم تعلم فوفو شيئاً عنها حتى الآن؛ عازلاً إياها عن مصادر حكمتها، واضعاً دهاءها المستمد من سلالة العبيد والذي صقلته تجارب الحياة في خط المواجهة المباشر معه. لهذا طلبت من سالي الانتظار.

منذ أن تعرفتا، كل منها، على الأخرى بواسطة الصديق المشترك استمتعتا كثيراً بمعرفتهما لبعضهما البعض؛ فقد اكتشفتا بسرعة وبكثير من الجزل، اشتراكهما في الاهتمام بأشياء كثيرة. ليست فقط تلك المتعلقة بالسلطة أو اقتناص المعرفة المؤدية إليها.

وهكذا اضطرت فوفو، أن تعترف لسالي بحكاية الأوراق، متجاهلة الكثير من التفصيلات، التي رأت أنه من الحكمة أن لا تخبر سالي بها في الوقت الحاضر على الأقل، كما قالت لنفسها. تحتاج هي إلى سالي، لمعرفتها بعلاقات وارتباطات سالي بجهات متعددة.

فوفو تربي التماسيح
لتتاجر في إحليلها

بدأت الفكرة تزن على دماغها، حينما قرأت (قرأ لها السكرتير، فهي لا تقرأ) خبراً في الصحف بأن حديقة الحيوان تعرض للبيع مجموعة من التماسيح الوليدة، بسبب ازدحام البركة المخصصة للتماسيح. الذي شغل بالها، إنها تريد لهذه التماسيح، أن تتزاوج وأن تتناسل بكثرة. ففي سبيل الحصول على كمية معقولة من إحليل التمساح، لا بد من قتل تمساح واحد على الأقل. اتصلت بمدير الحديقة – من خلال سكرتيرها الشخصي – الذي قال أنه يتحدث باسم الأميرة، المهتمة بشراء كل التماسيح بضاعة حاضرة وبضاعة المستقبل أيضاً، لتربيها في مزرعتها الخاصة. لأنها – كما قال – بتواضع كاذب تحس بالشفقة على التماسيح الجوعانة، التي ينهب الموظفون أكلها ولم يقل له بالطبع، أنه يعرف ما وراء الخبر، وما بين السطور وهو أن ميزانية الحديقة، منهوبة بانتظام وتترك مهملة بتعمد؛ تمهيداً لبيعها لبناء عمارات تمليك على أرضها المشرفة على النيل. أضاف السكرتيرالأريب، بأن سعادة البرنسيسة، ليس عندها الوقت الكاف لرعاية هذه

المخلوقات اللطيفة، فهل يتكرم السيد المدير بأن يوصي على تعيين أحد من الأساتذة الدكاترة التماسيحيين، ليشرف على المشروع من فوق ويعين تحته من يريد من المساعدين؟ ولما أبدى السيد المدير عظيم شرفه بأن تكون زبونته هي الأميرة، حيث سيطمئن إلى مصير تماسيحه اللطيفة بدلاً من أن تقع في أيدي من لا يسوى (وبالطبع لم يشر السكرتير إلى المصير المنتظر للتماسيح وتجاهل السيد المدير سؤالاً بسيطاً هو ما الذي سوف تفعله أميرة بكل هذه التماسيح الوليدة التي وصل عددها إلى العشرين).. ألمح بأنه لا يطمئن إلى أي من الأساتذة الدكاترة في القيام بالمهمة التمساحية، لكنه سيفكر إن شاء الله في حل يرضي جميع الأطراف المعنية.

وضعت فوفو المشروع كله بين يدي الخباز الذي سيسرق نصفه. عاملته منذ البداية كخادم عندها؛ رفضت أن تتناول اللقمة (التي كانت من الكافيار) معه على ذات المائدة التي تركتها له وحده ولخمته بالعديد من أدوات المائدة (أعطت الأوامر للسفرجي الفرنسي أن يضعها على المائدة كيفما اتفق) وتلذذت بمراقبة حيرته وعجزه وهي مستلقية على الشيزلونج، تطعم كلبها (البكيني) من نفس الكافيار، قائلة إن الطبيب منعها من أكل الكافيار (وهذا كذب) لأنه بيوجع بطنها وأنها لا تدخله البيت، إلا، لأن الكلب يحبه. وبالطبع بلع المدير التماسيحي الإهانة الواضحة، وساعده على بلعها النبيذ المعتق الفرنسي في الكأس البلوري التشيكي. قالت له إنها تريد للتماسيح أن تتزاوج وأن تتناسل.. أي أن يكونوا من ذكر وأنثى. تضاحك: يعني زي فلك نوح. تجاهلته متعمدة (فهي لا تعرف حدوتة الفلك النوحي) تراجع مستخذياً. أكد لها أنه متفهم لطلبها وسيضمنه لها. في الحقيقة ليست له خبرة تماسيحية أو أية خبرة في نوع الحيوان. إنه من عائلة السيدة زوجة وزير الزراعة، الذي تقع حديقة الحيوان تحت مسؤوليته. كان (قبل أن يتولى الوزير الزراعي الوزارة) يعمل مدرساً للغة العربية بإحدى المدارس الثانوية.

نقل التماسيح في العربة المخصصة لها من الحديقة إلى البركة التي أعدت على عجل في مساحة من الأرض المهجورة، كان السفير السابق قد اشتراها من

صديقه وزير استصلاح الأراضي بسعر التراب؛ ثلاثة قروش للمتر المربع "كل حبة رمل فيها حتساوي أوقية دهب. عارف ليه؟ لأنه فيه مشروع طريق دائري حول المدينة يمر في وسط الأرض بالضبط. الدولة ستقوم بشراء الأرض من أصحابها بسعر السوق ساعتها. أنا اشتريت للمدام ولكل ولد من الأولاد حتة صغيرة. سيادتك الواحد بيطلع من الوزارة مديون. سيادتك لولا الواحد بيد خدمة عامة للوطن ما كنتش خدت الوزارة.. أبداً وحياتك"

انتقلت التماسيح، ومعها حارسها الذي يعرفها منذ عشرات السنين بالاسم الشخصي لكل تمساح وتمساحة، وباسم الدلع أيضاً.

أخذت التماسيح تعيش في بحبوحة من العيش، حتى أتاها هادم اللذات ومفرق الجماعات ولم يكن سوى الحارس ذاته، الذي حاول أن يتمنّع في البداية، عن اغتيال تماسيحه الحبيبة لكنه خيّر بين الموت جوعاً، أو موت التماسيح فاختار الحياة لنفسه.

فوفو تفكر في تماسيحها. أخبار مقلقة، وصلتها مؤخراً: أن مجموعة البشر الذين استقروا، منذ بضع سنوات حول البركة، بنوا لهم أكواخاً من الصفيح والكرتون. يتوسعون الآن في البناء بالطوب والأحجار، وأن بعض التماسيح، تختفي بطريقة مجهولة (كما قال الضابط الحارس المكلف من القيادة بحراسة البحيرة باعتبارها مشروعاً قومياً، لم تكن فوفو تحب أن يقترب البشر العاديين منها أو من ممتلكاتها الأرضية، أو الحيوانية. تعلم بخبرتها، إنهم سوف يتسللون بهدوء خلال جيل أو جيلين على الأكثر، ويستولون على المنطقة كلها. بل وسيدّعون إنها أرضهم ورثوها أباً عن جد. لهذا قررت أن تحسم الموضوع هذه الليلة، حينما يأتي قائد العسكر للعشاء بأن تطلب منه أن يحمي أرضها، وأن يبعث بتجريدة مسلحة لطرد الدهماء. لكنها تعلم المحظورات، التي سوف تنبت لها حينما يدخل العسكر إلى أرضها، فلن تتمكن من إخراجهم منها. إذن عليها أن تحسبها جيداً. أحست أن الحياة مليئة بالمشاكل.

وهكذا، كانت تفكر في صديقها القديم (المختطف) والذي واصلت العلاقة

معه، حتى حينما انتهت الحكايات الجسدية بينهما، وذلك لحاجة كل منهما للآخر. فحينما تنقطع خطوط الهاتف، ترسل سائقها الخاص بعربتها الخاصة للبحث عنه.

ومع أن جسدها المراهق في تلك الأيام الغابرة، قد تنبه لحقائق الطبيعة مبكراً، وبالرغم أن أمها قدمتها للأمير الحقيقي العجوز كجزء من خطتها في الاستيلاء عليه نهائياً، وضمه إلى غنيمة سبيها في حربها السرية، حينما بدأ أقارب الأمير الخرف، يتوافدون على القصر ويتعاملون معها باحتقار، بل ويزجرونها، رغم معرفتهم بالعلاقة بينهما. تعرف الأم أيضاً، إنها إذا لم تتمكن من تأمين مستقبلها بعد موت الأمير، أو حينما تتهاون قبضته على قصره، فسوف تجد نفسها في الشارع. حسبتها بسرعة وحسم. فالبنت فارت وجسمها يطلب الأكّال. رغم أن الأكّال الذي تقترحه الأم؛ أهتم الفم ودخل مرحلة الخرف، إلا أن المتربصين بالبنت، من خدم وعبيد وحتى من الأقارب الفقراء للأمير يتحينون الفرصة لتذوقها. على الرغم من أن البنت ليست ببلهاء؛ لكنها ما زالت غشيمة. إقناع البنت ليس بمشكل. بنتها وعارفاها.

قبل الأمير، اكتشفت البنت الرجال الآخرين في القصر (لا يعلم أحد بالدقة هل هي التي بدأت بطلب الأكالين، أم هم الذين بركوا على الأنجر.. على كل حال هذه تفصيلة غير مهمة في سياق الأحداث المهمة التي سنوردها هنا)..
المعلومات المتاحة لنا تصف "الوضع الطبيعي" للبنت: تستلقي على ظهرها لهم، من وراء ظهر أمها. عاملوها كواحدة من طبقتهم بدون مساحة، أو رغبة في الغزل، أو الرقة أو حتى اكتشاف الجسد على مهل والاستمتاع به. دقائق وينتهي الموضوع. لم يختلف الأمير عنهم إلا في شيء واحد كان بالرغم من القوة الفجائية المحدودة للإحليل، لا يستطيع الفعل. يستخذي تحت قدميها. تندهش هي من التناقض المهول في موقف الأمير ومواقف الآخرين. كانت تستمتع أكثر مع الآخرين. تحس إنها على راحتها. أحست لفترة طويلة بالتقزز من الأمير، رغم نصائح أمها وتنبيهها عليها بأن الأمير "شغل" يجب أن تحافظ عليه، وأن توليه

اهتمـامها، خاصـة بعد أن عرفت الأم بحكاياتهـا، التي انتشرت في القـصر، ولم تستطع ردعهـا. تصـدت لها البنـت، وهددتها بأن تنسـحب من "الشـغل" واللي يحصل يحصل، وطظ فيهـا وفي الفلوس. رضخت الأم الحكيمة وازدادت دهشة البنت وهي تكتشف قوتها المفاجئة، على أمها التي يخافها الجميع.

* * *

حينما مد يده من تحت المائدة وتسللت أصابعـه بين أصابعها ونظر إليها بتلك العيـنان الحكيمتـان (أو هكذا تخيـلت) نبض قلبهـا بالرجفـة والدهشة. وحيـنما تواعدا سراً لتلتقي به في الغد في فندقه. لم يأخذها مباشرة إلى غرفته كما توقعت هي، بل أنشد لها أبياتاً من شعر عمر الخيام (لـم تسمع عنه من قبل) وحينما ذهبا إلى الغرفة نـثر الورد على الفراش وقبّل أطراف أصـابعها، وتشـمم شعـرها وهو ينضو ثيابها بتمهل، ويخبّرها عن جمال كـتفيها وعن اكتمال نهدها وعن هشاشة خصرها وصلابة عاج ردفيها. طوال حـياتها لم تسمع سوى البذاءة من الأمير، أو اللهـاث المتعـجل المختـلط برائحة الثـوم والبصـل والعرق والقـذارة والعطن من فحول السـوق. لأول مرة أيضاً تحس بقيـمة جديدة لجسـدها. لأول مرة تعرف أن للجسد وظائف أخرى غير تلك التي خبرتها في السابق مع الآخرين، أو غير تلك التي ألفتها وهي تنتزع لذتها بنفسها.

ضحكا وتمازحـا، وهي تفتح جـسدها للاكتـشاف المفـاجيء لها، وذلـــك الإحساس الجديد، بجسد لـم تكن تحبه ولم تكن تحترمه.

أحب اللعب معها. بدأت تسـتمتع حقيقة، بجسد آخـر. لم تكن دهشتها بأقل من دهشته ولم يكن فخرها بجسدها الجديد بأقل من فخره باكتشاف جسدها هي.

هو الذي أنهى العلاقـة (بعد ذلك بسنوات) بذلك الكبرياء الجـريح الذكوري الذي يعرف الانسحـاب في الوقت المناسب قبل الانهيار التام. حكمـتها الموروثة من أسلافها، تجعلها تنظر إلى الأمور بعين براجماتية، تتقبل انسحابه بتفهم وبدون غضب.. كانت أيامها على مشارف الثلاثين، وهو داخل في الخمسين. الآن وبعد

تلك السنوات، يحتفظ كل منهما للآخر بذلك الود الخاص الذي يحمله بعض البشر لذكرياتهم الحية. بدون حسرة وبدون خجل وبكثير من المرح.

الحياة الخاصة لفوفو.. وتماسيحها

لم تكن فوفو تتوقع ازدهار مزرعتها، بهذه السرعة؛ فقد دخلت مشروع تربية التماسيح بدون خبرة عملية، أو كما يقول أهل الاقتصاد بدون دراسة جدوى.. دخلت فوفو المشروع، بغريزتها الأنثوية وليست التجارية. تريد نوعاً من السيطرة على "السوق" الجنسي في البلد وبالتحديد على ما يطلق عليهم في علم السياسة، صانعي القرار.

.. بالتدريج، تعلمت البنت استغلال الرغبات الجسدية المحبطة، أو تلك الدفينة في أعماق ذاكرة وجسد أصحابها، وخاصة من الزبائن الكريم دي لا كريم، الذين يخفون هذهِ الرغبات تحت قناع سميك من الوقار، أو التدين بصفتهم الرجال الذين يصنعون القرارات وينفذونها، وفي أيديهم النحيلة أو الغليظة ترتبط حياة أو موت الآخرين، سعادتهم أو بؤسهم.

في البداية لم تكن تحب أن تذهب إلى "المزرعة" في تلك المنطقة النائية التي تشرف على الصحراء والنهر، لكنها - وبعد اكتشافها لازدياد الطلب على البضاعة - بدأت تقوم برحلات منظمة إليها، بل، أمرت ببناء استراحة صغيرة لها هناك بعد أن قامت بشراء الأراضي المحيطة برخص التراب. جلب لها سكرتيرها، الجنائنية الذين سيعتنون بالحديقة التي أرادت أن تزرعها حول الاستراحة ومعهم بالطبع، أصحاب الخبرة من المهندسين الزراعيين الذين سيحولون المنطقة الصحراوية الجدباء إلى واحة ظليلة. مع هؤلاء الناس جاءت طائفة أخرى من البشر، ليستقروا بالتدريج في المنطقة وحول البحيرة.. عائلات صغيرة، مجرمون هاربون من أحكام، تجار صغار يبيعون السجائر والمعلبات وأدوات المنزل

البلاستيكية الرخيصة. نجار وحداد وكهربائي وسباك، تجار جلد التمساح، الذين يتعاملون مع الورش البدائية في المدينة التي تقوم بصناعة الأحذية والحقائب، باعة أشرطة كاسيت.. إلخ.

لم تبال فوفو بهم في البداية. رحبت بهم في صمت باعتبارهم قدراً لا مفر منه. وهكذا ظهرت مستعمرة صغيرة متماسكة بعض الشيء حول بحيرة التماسيح، ترتبط بالقرى الصغيرة المجاورة بوسائل مواصلات بدائية شبه منتظمة.

سكان المستعمرة، تقبلوها، كما تقبلتهم؛ فهي بالنسبة لهم الأميرة التي تقوم بمشروع تجاري، ونتيجة لعلاقاتها بالسلطة قامت شركة الكهرباء بمد تيار كهربائي للمزرعة (استطاع السكان أن يسرقوه بواسطة الكهربائي الذي باعه لهم بسعر مهاود) كما تم توصيل المياه العذبة، وخاصة بعد أن اعتبر وزير الري، أن المزرعة والحديقة الملحقة بالاستراحة، مشروع يفيد الاقتصاد القومي بل "باعه" للأمم المتحدة باعتباره، مشروعاً للحفاظ على البيئة الحيوانية التمساحية التي "كادت أن تنقرض" كما جاء في تقريره الرسمي.

قررت فوفو الاحتفاظ بمجموعة من الخدم والطباخين والسفرجية بشكل دائم في الاستراحة، أحياناً يكون معها بعض صانعو القرار الذين يريدون إقامة صفقات خاصة بعيداً عن أعين منافسيهم. شيء واحد تمسكت هي به، هو، عدم وجود نسوان غيرها (على حد تعبيرها) في الاستراحة. لم ترتح أبداً لوجود خدم من النساء. تفضل الرجال لسبب بسيط بالنسبة لها على الأقل؛ النسوان حشريات "ويعملوا مشاكل" وطبقّت نظريتها هذه على النسوان الذين يتحلقون حول صانعي القرار. وبذلك أصبحت هي الأميرة الأسطورية بحق وحقيق، في عالم من الذكور.

بين وقت وآخر كان مزاجها يهف عليها، فتنزل من الاستراحة متنكرة في ثياب الفلاحات البسيطة، التي اشترتها بنفسها من سوق القرية المجاورة، تبحث عن "صيدها" كما تحب أن تقول لنفسها (مبتسمة) فتقود سيارتها بنفسها، حتى مشارف القرية التي عرفت أن بها مولد ما وتترك سيارتها، تهبط إلى القرية ماشية،

وقد بالغت في تكحيل عينيها وتحزيق الفستان الفلاحي على جسدها الذي لا يزال فيه الرمق. صائدة من نوع خاص، تختار فريستها من الشباب الهائج، الذي استثارته رقصات العوالم والغوازي، وأحجار الحشيش والموسيقى الصاخبة. تترك الفريسة؛ تسحبها إلى الحقول المظلمة بعد أن تساوم بدون هوادة على الثمن البسيط الذي تطلبه، مقتنعة أنه ما فيش حاجة ببلاش في الدنيا دي، بالإضافة أنها تستمتع أكثر حينما يعاملها الرجل باعتبارها امرأة فالتة ومحترفة لأنه، ساعتها يريد أن يأخذ من جسدها أقصى ما يمكنه. ألم يدفع الثمن. حريصة أيضاً على أن تعطيه حقه. تدهشها التناقضات في سلوك الرجال، حينما تظهر حقيقتهم "عارية" أما الموالدية - كما تحب أن تطلق عليهم - ليست لهم "طلبات خاصة" بعكس صانعي القرار (وهم قلة تتعامل معهم بشكل سري وحذر) تكون طلباتهم أحياناً مفاجأة لفوفو التي رأت في حياتها المثيرة، الكثير من المفاجآت. الموالدية؛ يريدون الفعل بدون فلسفة (تعبيرها المفضل).. صانعو القرار.. حدوتة!

كانت حريصة أيضاً أن لا تكرر زياراتها إلى قرية واحدة في أوقات متقاربة، واحتفظت بأجندة صغيرة، تصدرها هيئة الطرق الصوفية عن الموالد ومواعيدها وأمكنتها.

تحب هذه اللعبة، تحب هؤلاء الرجال الذين تفوح منهم رائحة الطعام والتبغ الرخيص، وخشونة أجسادهم وغلاظة أفعالهم، بل وعدم احترامهم الواضح لها باعتبارها بنت ليل.

امرأتنا على ضفاف النهر
سالي تومسون

المرأة المقصودة، تعمل لحساب السي آي إيه. أمريكية اسمها سالي تومسون. لا تسكن في الجزيرة الأنيقة الكوزموبوليتانية، في الزمالك التي يفضّل الأجانب

السكنى فيها بعيداً عن ضجيج أولاد البلد، وروائح طبيخهم، وزيطة عيالهم، الذين يحتلون الشوارع منذ الصباح المبكر وهم شبه عرايا.

التقاها في حفل استقبال.. لا يذكر الآن لأية سفارة. تجيد العربية مع لكنة أمريكية. جسدها المتوسط الامتلاء والمتوسط الطول، وملامحها الأمريكية العادية الشاحبة بعض الشيء لم تشد انتباهه؛ لكنه مع ذلك ظل يراقبها، يفصل بينهما مجموعات من البشر، يأكلون ويشربون ويلغطون. أحس بالضجر، فوجد لنفسه مقعداً صغيراً في ركن هاديء من الحديقة الواسعة، فلم يكن يريد المرواح.

لم يرها لكنه أحس بها تقترب منه. قالت له بلكنتها الأمريكية العربية: سرحان في إيه. رفع رأسه فاصطدمت عيناه بتقويسة البطن الصغيرة البارزة في الفستان الصيفي الخفيف. شيء ما في داخله جعله يمد يده ويديرها برقة حول الردفين يحوطهما ويشدهما خفيفاً تجاهه فمس بطرف أنفه وجزء من خده أسفل بروز البطن ولعل الحركة المفاجئة التي تعرضت لها، كادت أن تفقدها توازنها للحظة قصيرة، فبعد أن مالت عليه رجعت بجسدها قليلاً إلى الوراء.. ليس بعنف وليس بحسم حقيقي، ولكنها حركة شخص لا يريد أن يجد نفسه فجأة في أحضان شخص غريب، في حفل استقبال رسمي. استمرت واقفة ولم تخلّص نفسها من ذراعه التي تحيط بمؤخرتها (التي أحس بصلابتها وتكورها ولامست أصابعه حز اللباس التحتاني مستقبلة دهشة المعرفة بأن السروال الصغير يضغط حزه خفيفاً على منتصف الردف) كان يعرف أن عليه أن يسحب يده من فوق جسدها. كان يعرف أنها تنتظر الآن حركته المقبلة.. هل سيعتذر؟ هل سيتظاهر بأنه لم يفعل شيئاً؟ ملّس بيده ببطء صاعداً بها من الردفين إلى الخصرالمرتعش بدهشة فاجأته. تمهل لحظة ثم سحب يده. الوجه الشاحب كسته حمرة خفيفة وبانت الأسنان البيضاء المستقيمة بين الشفتين الممتلئتين. قال (كاذباً): كنت أفكر فيكي. ضحكت مندهشة قائلة؛ لماذا؟ أنت تعرفني؟ راغ من الإجابة. قالت: لكني أعرفك. أقصد أعرف من أنت فقد قرأت لك اليوم مقالك الأسبوعي. أضافت

بتواضع كاذب: مع أن العربي بتاعي مش كويس. قال في سره يا بنت الأحبة، دي المجلة اللي بكتب فيها يقروها خمسة بس. أردف بصوت هامس ولكنه مسموع "يحط سره في أضعف خلقه" قالت مش فاهمة. أشار بعينيه وبكف يده إلى ردفها. ضحكت بصوت عال. قالت إن عندها منحة للدراسة في الجامعة الأمريكية هنا لتحضير بحث حول الصراع الديني في المنطقة وخاصة هنا. قالت إنها انهت دراستها اللغة العربية في أمريكا. قالت له أشياء عن نفسه، زعمت أنها جمعتها من الأرشيف. سألها أي أرشيف. أجابت مبتسمة: الأرشيف. هو فيه أرشيف غيره. اتفقا على موعد في الغد، تأتي عنده على العشاء. ركّز على "عندي". أعطاها عنوانه. لاحظ أنها حفظته ولم تكتبه.

أتت بنفس الفستان. تعشيا على المائدة الصغيرة في الصالة. استمتع لأول مرة منذ زمن طويل برفقة امرأة ذكية وتحب الشرب أيضاً. تحدثا عن الكتب والأفلام، عن الساسة والدين. تبين له أنها تحب الكلام – مثله – وإن تجنبت بذكاء وحرص، عدم الخوض في حياتها الخاصة. قالت إن والدها قسيس بروتستنتي. نظرت إليه معابثة، وهي تسأله ببراءة – بدت له مصطنعة – تكفي أوراق الاعتماد هذه لتخرجني من قائمة الشك بأني عميلة للسي آي إيه؟ أعجبته جرأتها في الدخول في الموضوع مباشرة؛ لذا أجاب جاداً: كلا، ولكن مش مهم لأن عندك ما يغفر لك خطاياك، وليس عندي ما يفيدك. أجابت متضاحكة، يحط سره في أضعف خلقه. أعجبه أنها تستخدم "أساليبه". تجلس مرتاحة على الأريكة الكبيرة وقد خلعت صندلها ولمت ساقاً تحت فخذها، بينما الساق الأخرى تتجلى مرتاحة متأرجحة، عارية القدم المطلية أظافرها بلون عنابي. مستندة بظهرها على حافة الأريكة، واضعة ذراعيها خلف رأسها مبرزة صدرها (الصغير نسبياً كما لاحظ) بقسوة إلى الأمام.

شهق شيء فيه. اقتحمته الغرفة التي، رأى فيها منذ سنوات لم ينسها، في ذاكرته الخوانة، رأى ساقاً متارجحة تنتهي بقدم ما يزال يذكر لونه ونبضه تحت شفتيه. أزاح بحركة بطيئة وابتسامة أسيانة الغرفة القديمة قدم الزمن. مد ذراعه بين

ظهرها والأريكة وسحبها تجاهه. مالت بجسدها عليه فلحس رقبتها وأحس بطعم بشرتها والرائحة المنبعثة من جسدها. رائحة جسد نظيف مغسول لا تكف مسامه عن فرز العرق الخفيف الذي يكسو البشرة ويرطبها (نحن الآن في شهر يوليو) مالت بجذعها تجاه صدره ومسحت رأسها نازلة فوق بطنه. فردت جسدها مستلقية على بطنها غارزة كوعيها فوق فخذه، مسندة رأسها على كفيها، وقالت دون أن تنظر إليه: ليس لي مزاج حقيقي الليلة لأن أفعل شيئاً بجد. لا أريد أن أذهب إلى الفراش ولا أريد أن أفسد الليلة في الوقت نفسه. هل تفهمني؟ أجاب بأنه يفهمها جيداً (كان صادقاً) وأنه أيضاً لا يريد إفساد الليلة (كان صادقاً أيضاً) فكل منهما كان يحدد منطقته الخاصة مثل الحيوانات وقت السفاد. منطقته الخاصة، التي لا يعتدي عليها حيوان "غريب" وأيضاً منطقة قوة كل منهما. فهو قد وصل إلى تلك المرحلة من العمر التي يخشى فيها الذكور العقلاء، من جنس البشر، لحظة المواجهة مع الجسد الآخر والخوف الموروث من الخيبة الكابوسية، وما يليها من الشعور بالرثاء للنفس وما يعقبه من الاشمئزاز من ذات الواحد. وصل إلى تلك المرحلة من التحكم في العلاقة، بين رغبته الحسية وقدراته الجسدية. علاقة تكون أحياناً غير متكافئة. المرحلة التي تتساوى فيها لحظة الانتهاء، مع مئات المرات، من لحظات أخرى مماثلة. وصل الآن إلى المرحلة التي يستطيع فيها، الكشف عن رغباته الشديدة الخصوصية والبوح بها بل وممارستها، دون إحساس بالخجل ودون الحاجة إلى تبريرها.

سحب جسده برفق من تحت كوعيها. جلس على الأرض مواجهاً إياها بينما أدارت هي رأسها التي مازالت مستندة على الكفين تنظر إليه بتلك الحكمة التي ترثها بعض الإناث من جداتهن البعيدات ساكنات الكهوف. حكمة الفضول والتقبل ومعرفة، أن الجسد، له وظائف سرية مختلفة.

سكب بعض النبيذ الأحمر الدافىء على قدمها وسمانة ساقها. شال فستانها إلى ما فوق الخصر. بان له اللباس القطني الأبيض القصير الضيق الذي يكسو فقط الجزء المنحدر من الردفين، في منطقة اتصالهما التي يبين لونها الوردي

الغامق، تحت النسيج الأبيض القطني الخفيف، بينما يبرز الجزءان الآخران من الردفين منتصبان على العضلتين العاريتين الصلبتين للفخذين. نظرا إلى بعضهما وابتسما. مال برأسه يحسو النبيذ الداكن الحمرة من فوق البشرة الذهبية التي لوحتها الشمس النحاسية. قالت جادة: بس ما تشربش لوحدك.

* * *

صلبان وأهلّة... وللناس المسرة!

لم يعرف أحد بالتحديد متى ظهر الراهب الحافي، أو من الذي أطلق عليه هذا اللقب، في المدينة المقسّمة التي تفرز كل يوم بل أحياناً كل ساعة ظواهرها الجديدة من العنف والموت والجوع والتحايل في الاستمرار على الحياة؛ حياة المدينة العاصمة؛ القاهرة اللامبالية في وجودها الأزلي بما يحدث لساكنيها، وحياة سكانها التي تمتد مثل أذرع الأخطبوط التي ينبت ذراع جديد إذا ما قطعت ذراعاً.

هكذا ظهر الراهب الحافي، ذات صباح عند إحدى نقاط التماس المتعددة، التي تفصل بين تنظيمات المتحاربين المتنافسين.. هذه النقاط التي يعرفها أهل المدينة العاصمة، جيداً من خلال خبرتهم الدامية لكل من يقترب منها بدون إذن أو اتفاق مسبق بين الجهتين التي تفصل بينهما نقطة التماس (هذا هو التعبير المنافق الذي أطلقته الميديا على هذه الأماكن) والتي يعرفها السكان باسمها الحقيقي: مصيدة الموت.

أصاب الذهول أفراد الميليشيات، الذين يقفون على جانبي الحاجز الصغير، المكوّن من بعض البراميل الفارغة القديمة وأكياس الرمال التي خرقتها طلقات الرصاص؛ ينظرون بتلك الدهشة والخوف التي ينظر بها الإنسان البسيط، إلى ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة مثل كسوف الشمس. رجل يرتدي ملابس سوداء سابغة ويتدلى من رقبته صليب كبير أسود، معلق بسير جلدي يصل إلى

منتصف صدره. وجهه تكسوه لحية سوداء كثة وخطها شيب كثير، يتصل بها شاربه الذي اختلط بياض شعره بسواده.. الأنف الذي يهيمن من عليائه على هذا الجزء من الوجه. ألهب دهشتهم القصوى، شعره الطويل، الذي ينسدل الآن على كتفيه، يغطي جزءاً من ظهره وجانباً من صدره. الشعر أيضاً وخطه شيب كثير لكنه لا يزال يمتلك عنفوانه الخاص به. حتى الآن لم يلاحظوا أن الرجل حافي القدمين، وبالطبع لم يكونوا على علم بالتقليد الرهباني البالغ القدم، للراهب الذي يترك ديره أو قلايته الانفرادية، تنفيذاً لرؤيا تأمره بالخروج إلى "الناس" وإبلاغهم أمر الرب.

في حالة ثبات الرؤيا، يحتفل الدير كله بالراهب ويغسلون جسده ويطعمونه، وهو يجلس في مكان الشرف، بجوار رئيس الدير ومندوب من الحبر الأعظم، تكون الرسائل العاجلة، قد وصلته بالفعل عن ادعاء الراهب بالرؤيا، وطلب الإذن، بتنفيذ الإجراءات المتبعة في هذه الظروف والتي يوافق عليها الحبر الأعظم بدون تردد.

بانتهاء العشاء والاحتفال الديني الذي يعقبه، ينضو رئيس الدير من على جسد الراهب، ثياب الرهبنة التي يرتديها الرهبان في هذا الدير، والذي ألبسها الرئيس بنفسه للشخص (الراغب في التنسك) الذي اجتاز اختبارات الانخراط الصارمة القاسية، إلى راهب.

اقترب الراهب من مصيدة الموت بقدم ثابتة وإن كانت حافية.

ران الصمت على جانبي مصيدة الموت وخاصة على الجانب الذي أتى منه الراهب فقد تبعه جمهور أخذ يتكاثر بسرعة منذ أن وقف في وسط ميدان السوق، هذا الصباح ليعلن رؤياه وأمر الرب الذي كلفّه به واختاره لذلك.

* * *

حينما خلع رئيس الدير ثياب الراهب من على جسده، ركع هذا ممسكاً

بأيقونة شفيعة الدير، ولم تكن سوى العذراء المقدسة نفسها وقربها من شفتيه وهو يقسم بالقسم المقدس المهول: أقسم بالسيدة العذراء أم المخلص والكلية القداسة التي لم يمسسها بشر والتي تجلس الآن على يمين الآب وتركع تحت قدميها الملائكة بأن العذراء المقدسة نفسها ظهرت لي بكل قداستها في الرؤيا وأقسم بالشهداء والقديسين الذين يسبحّون ليلاً ونهاراً أمام عرش القدوس بأن السيدة المقدسة أعطتني العلامة التي تضرعت لها صائماً وراكعاً في هيكلها المقدس أن تريني إياها حتى أكون مستحقاً بأن أحمل أمرها المقدس وأن أقوم بتنفيذه فوراً بمشيئة الرب وبركة الروح القدس وشفاعة سيدتنا العذراء المقدسة التي تشهد الآن على قسمي وأنا ممسك بأيقونتها الطاهرة والتي أتضرع إليها أن تحرقني فوراً بالنار وتصيبني بالعمى والكساح والبرص إن كنت لم أقل الحق.

صمت رهيب ران على القاعة التي تضيئها الشموع في ذلك الدير القديم، الذي يقال إنه بني في ذات المكان فوق المغارة، التي التجأت إليها العذراء، حينما هربت من فلسطين ومعها الطفل يسوع، وخطيبها يوسف النجار، تنفيذاً لأمر الرب.

قطع رئيس الدير الصمت والانتظار المتوتر، بانتظار هبوط لعنة العذراء على الراهب بعد قسمه المهول إن كان كاذباً؛ بأن أنهضه من على الأرض الحجرية العارية الخشنة، صاح وهو يقبّله في فمه: "مستحق.. مستحق". صاح الرهبان في صوت عال وهم يمسحون دموعهم: مستحق.. مستحق.

هنا فقط أعلن الراهب ولأول مرة أمام الجميع بفحوى الرؤيا.. فقد أمرته العذراء بوضوح لا لبس فيه بأن "انزل إلى الناس وأوقف نهر الدم حاملاً صليب ابني فوق صدرك وقل لأولادي في مصر إني لم أنسهم وإني أبكي من أجلهم. إذهب الآن".. صاح رئس الدير "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وللناس المسرة" هتف الرهبان من بعده "مستحق.. مستحق".

أحضر رئيس الدير ثوباً أسوداً سابغاً حائل اللون به بعض لطخات دم قديم لم يغسل. يعتقد رهبان الدير، أنه يخص راهباً، استشهد فوق أسوار الدير يدافع

عنه ضد الغزاة من بدو الصحراء الذين كانوا، يقومون بغارات منتظمة على الأديرة المنعزلة، في الزمن القديم. خلع عنه ثوب الرهبنة وألبسه ثوب الشهيد. أحضر بيضة نعامة صغيرة، حال لونها الأبيض إلى الأصفر بسبب القدم.. بيضة صغيرة مفرّغة مما تحتويه من أسرار الحياة لكن الدير أعطاها حياتها الخاصة وأسرارها المقدسة، بجعلها رمزاً لاستمرار الديانة، وبقائها حية رغم الاضطهاد والعنت. أحاط رئيس الدير البيضة بشبكة صغيرة من الخيوط المتقاطعة مثل شباك الصيادين. ربطها له فوق قلبه. ركع رئيس الدير وغسل قدمي الراهب بماء أحضره له راهب صغير وقام بتجفيفهما بطرف ثوبه مسترجعاً الطقس القديم، الذي قام به المسيح حينما غسل أقدام التلاميذ، الذين كانوا يحيطون به في العشاء الأخير، قبل سويعات من صلبه. قام رئيس الدير بتقديم، طقس المناولة المقدسة، من خبز ونبيذ، للراهب، وهو يقول باللغة القبطية القديمة، مردداً قول المسيح "كلوا من جسدي.. واشربوا من دمي" بينما ركع بقية الرهبان على الأرض الحجرية وهم يرتلون "أوصنا... أوصنا.. ليتمجد الآتي باسم الرب.. وعلى الأرض السلام وللناس المسرة".

فتحوا له بعدها مباشرة أبواب الدير، وأخذ الرهبان يقبلونه قبلة الوداع ويرشمون فوق رأسه علامة الصليب. يباركونه بهمس. راقبوه، وهو يركع للمرة الأخيرة يقبّل الخاتم المقدس في إبهام رئيس الدير، ويرشم بنفسه علامة الصليب فوق صدره وينهض لينطلق في الليل الخالي من النجوم دون أن يلتفت للوراء. راقبوه بصمت حتى اختفى في الظلام. دلفوا بهدوء مرة أخرى إلى الداخل وأغلق رئيس الدير الباب الثقيل بهدوء دون عجالة.

لم يكن يعلم إلى أين يذهب، لكنه قال لنفسه سيعطيني الرب عمود النور في الليل، وسحابة في السماء في النهار، يهدياني إلى الطريق الذي يريدني الرب أن أنفذ فيه مشيئته.

تحرك بإيمانه الذي لا يتزعزع بأن عليه رسالة يجب أن يؤديها مكلف بها من السماء. هذا الإيمان الذي أنقذه من وحوش الصحراء ومن الجوع، ومن المرض،

ومن رصاص المتحاربين وقنابلهم حتى الآن، والذي أعطاه دائماً، المأوى والطعام وهو يسير متجهاً، إلى الشمال بقوة لايعرف مصدرها أو سببها. هو نفسه لم يحدد وجهة لسيره بل ترك قدماه تقودانه، لتقف به أمام مصيدة الموت؛ حاسر الرأس، مسدل الشعر حافياً، وقد ازداد وجهه ضراوة ورهبة، وحال ثوبه وتمزق بعضه واشتعلت عيناه بنار يحس بها كل من يقترب منه.. لعلها الحمى أو لعلها نار الممسوسين، الذين يسوقون أجسادهم، دون رحمة. يسوطونها بتلك الإرادة المستمدة من مصادر خفية في الجسد والروح..

وقف لحظة متردداً لا يعلم ماذا يفعل، ينتظر الهاتف الخفي الذي قاده خلال رحلته الطويلة من الدير.. ينتظر أن يعطيه التوجيه التالي.

تردده قطع الصمت الذي ران على الطرف الأخر من المصيدة. ضحكة هازئة أعقبتها ضحكات هازئة، مترددة بعض الشيء من رفاق الحاجز. قال أحدهم بصوت ساخر "وهذا واحد منهم.. مجنون آخر بصليبه الوثني"

نظر رفاق الحاجز الذي يقف الراهب الآن من ناحيتهم، بغضب إلى الجهة الأخرى من الحاجز. لم يكن يفصل بين الطرفين أكثر من عشرين أو ثلاثين متراً. لقد توقف الطرفان المتحاربان منذ حوالي الشهر، عند هذه النقطة في قتالهما عقب مفاوضات مضنية بين الطرفين اشتركت فيها جهات خارجية. الحاجز الذي على اليمين، يرفع على براميله وأكياس رمله صليباً حديدياً كبيراً، التوت أطرافه نتيجة للحريق الذي تعرضت له الكنيسة التي كان يتصدر بابها الخشبي الكبير. حمله المتقاتلون كرمز ووضعوه فوق البراميل وأكياس الرمل، ليعلن هويتهم بوضوح لا لبس فيه. وتحول هذا الصليب مثلما تحولت رموز كثيرة أثناء القتال من رمز ديني إلى وظيفة سياسية مثلما، وضع الطرف الآخر، مصحفاً كبيراً، داخل إطار زجاجي فوق حامل عال ثبتوه أيضاً فوق البراميل.

الناس الذين تحلقوا على مسافة آمنة من الراهب، تراجعوا بسرعة إلى الخلف، تقودهم خبرتهم إلى الابتعاد بسرعة عن الطرفين المتحاربين، أو على الأقل عن

مرمى النيران، التي من المؤكد ستنطلق الآن، بين لحظة وأخرى. في الوقت نفسه، وبسرعة أيضاً كما هو متوقع من مليشيات مدربة؛ قفز أفراد الجانبين كل في موقعه إلى المخابيء والسواتر، خلف أكياس الرمل، شرعوا أسلحتهم وصوبوها باتجاه الجانب الآخر، تصاحبها الأوامر السريعة الغاضبة، وبعض الشتائم التي لا يستطيع أحد أن يجزم من المقصود بها.

اختفت الرؤوس خلف أكياس الرمل. هرع المتفرجون إلى المخابيء المجاورة ولم يبق واقفاً، منتصباً، مندهشاً، متردداً، لم تحسم التعليمات الألهية أمره بعد سوى الراهب الحافي. بالتأكيد لم يفهم شيئاً مما يحدث حوله منذ أن توقف عند مصيدة الموت، لسبب بسيط ومنطقي - من وجهة نظره - أنه رأى الصليب، فأحس بالحنين القديم أو لعلها قوة العادة.

اعتبر أيضاً أن الصليب هو العلامة المنتظرة.

انتهز الآن، فرصة الهدوء والصمت البالغ الذي أحاط بالمكان كله فتوجه إلى الصليب، بتصميم، وأحنى رأسه ومد ذراعيه إلى الأمام يتلو البركة. وقف باتجاه الصليب، معطياً جانب وجهه وبالتالي ذراعه اليمنى باتجاه حاجز الصليب، والجانب الآخر من وجهه وذراعه اليسرى باتجاه الحاجز الآخر. هو بالطبع لم يكن يقصد أن تنقسم بركته على الجانبين.. لكن هذا ما حدث. صوت الراهب العميق باللغة القبطية التي لا يعرفها أفراد الحاجز على الجانبين، جعلهم يرفعون رؤوسهم بحذر وهم يصوبون أسلحتهم، في محاولة لفهم ما يحدث.

ركع أفراد حاجز الذراع اليمنى، بدون تردد ، أحنوا رؤوسهم وإن كانت أسلحتهم مازالت مصوبة نحو أهدافها. ركع أيضاً المتفرجون من ناحية الذراع اليمنى، اختبئوا على مسافة آمنة يحاولون أن يرهفوا آذانهم، لصوته العميق، الذي يرن بإيقاع ترتيلي في الساحة الصامتة. أما أفراد الذراع اليسرى، بدءوا يظهرون أنفسهم بحذر وأسلحتهم ما زالت مصوبة نحو الجانب الآخر، ينظرون بدهشة وبتقدير صامت للراهب الفارع القامة، المحني الرأس، وقد حدسوا ما يقوم به.

نظروا إلى قائدهم ينتظرون أوامره ، حدّق هو صامتاً، مقطب الجبين فيما يحدث أمامه، لكنه أعطاهم إشارة تعني "انتظروا" وهمس لهم بين أسنانه مؤكداً ما أشار به من قبل.

ريح خفيفة هزت الصليب وجعلته يتأرجح متمايلاً، ففتح الراهب عينيه ورأى ضوءاً ذهبياً خاطفاً يبرق من قلب الصليب. أشعة الشمس التي تساقطت على قلب الصليب الذي تأرجح فجأة.. فانعكست أشعتها القوية الخاطفة على ذلك الجزء الحديدي من الصليب الذي أحرقته النار. الراهب الحافي اعتبر الأشعة اللامعة المنبعثة (أو فلنقل) المنعكسة من الصليب.. اعتبرها إشارة جديدة، من الرب، والسيدة العذراء. إشارة بأن من في السماء يتابعون رحلته، ويهتمون بأمره، ويرضون عما يقوم به ويؤيدونه.

جانب الذراع اليسرى ، أول من أدرك تدريجياً الموقف الجديد.

الجانب الآخر أدرك بحذر أيضاً، دقة موقفهم. يشاهدون الراهب الحافي يقف فوق برميل، يقع في ملتقى نيران الجانبين ويرفع الصليب عالياً، وهو يهتف بصوت متهدج مختلط بالعبرات التي تخط لنفسها ممراتها العميقة في وجهه ولحيته المتربة يصيح "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وللناس المسرة" لم يفهم أحد من الجانبين كلام الراهب (جانب الذراع اليمنى نسي منذ وقت طويل آيات الإنجيل) وراقبه الجانبان، وهو يركع أمام البرميل، أحاط الصليب بذراعيه وانغمس في صلاة عميقة.

* * *

الذي لم يعش من قبل في مدينة مقسّمة بسبب الاقتتال بين من يقيمون فيها؛ لن يمكنه ببساطة أن يفهم ما سوف نطلق عليه هنا الحالة النفسية العقلية للحاجز.

الحاجز، الخط شبه الوهمي، على معبر من المعابر. يمكن أن يكون جسراً، أو فتحة حارة صغيرة، أو محطة أتوبيس، أو تقاطع شارعين على طرفي الحاجز. على مسافة قريبة، يقف مسلحون متربصون، من الجانبين المتقاتلين. يعاملون

القادمين والمغادرين - من الناحيتين- بشك وتربص وعدوانية واحتقار؛ فالقادم من حاجز إلى آخر لأي سبب كان للعمل أو الزيارة أو التجارة عليه أن يثبت لأفراد الحاجز من الجهة القادم إليها إنه ليس جاسوساً، أو عميلاً لأفراد الحاجز من الجهة الأخرى. عليه أن يثبت بما لا يدع مجالاً للشك براءته، من تهم صامتة وإنه مجرد عابر سبيل شريف الأغراض.

* * *

لهذا حينما أتى راهبنا، تدفعه الروح المقدسة للعذراء مريم تقود خطاه إلى حاجز الموت الشهير؛ لم يتح له بالطبع معرفة الحالة النفسية والعقلية للحاجز. الراهب، أتى مباشرة من الدير وسلامه إلى مدينة، تركها آمنة منذ زمن بعيد، ولا يعلم شيئاً عن التطورات التي تتعايش فيها، والتي تتحكم فيها، ولم يتح له خلال حياته القصيرة (المدنية) المدهشة العجائبية، التي استمرت ثلاثة أيام ونصف اليوم في المدينة أن يكتشفها. هذه الأيام التي بدأت منذ اللحظة الأولى التي وقف فيها على الحاجز إن جاز التعبير، ثم راكعاً أمام الصليب المعدني الملتوي، ثم مقيماً مصلياً مبتهلاً على "خط التماس" كما تطلق عليه الاصطلاحات العسكرية الحاجزية، حتى قرر قناص "مجهول الهوية والانتماء" - كما قالت البيانات التي أصدرها وزير الميديا التابعة للدولة ، وأصدرت مثلها بقية الطوائف المتقاتلة - إنهاء حياته بطلقة واحدة مسددة، باحكام من بندقية مثبت عليها كاتم للصوت، ليسقط متكوماً، مرتعشاً، يخرج من فمه الزبد الأبيض مختلطاً بالدم الأحمر ملتحفاً بعبائته التي ازدادت وسخاً، ووجهه الذي ازداد شحوباً، وجسده الذي ازداد نحولاً فوق الحاجز وبالتحديد تحت الصليب إياه.

أفراد الحاجز من الجهتين هالهم الأمر الذي فاجئهم. فخلال الأيام التي عاشها بينهم، نعم أفراد الحاجز من الجهتين بشهرة لم يتوقعوها، إذ انهمرت عليهم الميديا المحلية والعالمية تسجل هذا الحدث الفريد وتستطلع آراءهم ومواقفهم، وتسجل تعليقاتهم. عاشوا أيضاً في هدوء حقيقي بل وتبادلوا الحديث والسجائر فيما بينهم

وتقاسموا الطعام الخاص الشهي الذي أحضره المؤمنون من الجانبين. حظي الراهب بنصيبه من الطعام مع أنه لم يهتم به. النذور التي وضعوها تحت قدميه الحافيتين المتسختين، لم يعرها اهتماماً، بل وزعها على كل من جرؤ على الاقتراب منه من سكان على جهتي الحاجز. تحلق حول الحاجز أفراد من الجانبين، يستمعون إليه وهو يغمغم معظم الوقت بجمل غير مترابطة وكلمات غامضة، قال العارفون، إنها باللغة القبطية القديمة. فتحت المنازل القريبة أبوابها وقدمت الطعام "للحجاج" الغرباء، الذين قدموا، من جهات بعيدة لكي يروا المعجزة بأعينهم ..

نظر أفراد الحاجز من الجهتين إلى بعض ، بارتياع، ثم بشك ثم بغضب. غطسوا خلف سواترهم، وهم يصيحون بالنداءات والأوامر الغاضبة والشتائم. هرب المتحلقون، الذين كانوا يجلسون يتسامرون أو يتمشون بجوار الحاجز. ولولت النساء والأمهات، وهن ينادين على أطفالهن الذين تخطوا الحاجز المتسامح، يكتشفون أقرانهم من الناحية الأخرى.. أطفال يبكون الآن بفزع يهرعون مهرولين إلى القبضة الحديدية للأمهات والشقيقات. لم يستطع الرجال الاحتفاظ بوقارهم أكثر من لحظات قليلة، ليهرولوا إلى مخابئهم القديمة، التي هجروها خلال هذه الأيام الفائتة. لم تمض دقيقة أو أكثر، حتى ران على المنطقة كلها صمت متوتر؛ مما جعل حتى الأطفال، يكفوا عن العويل، والكلاب عن النباح وأفراد الحاجز عن الصياح والشتائم.

سكنت نهائياً الجثة المكومة تحت الصليب. كفت عن تقلصاتها اللا إرادية. أصغى الجميع بإنصات في محاولة لسماع أي شيء معجزي أو عجائبي يصدر عنها.

أنصتوا بلا طائل.

بعد ذلك بدقائق طويلة، حينما اطمأن أفراد الحاجز من الجهتين عدم وجود هجوم مفاجيء، أطلوا برؤسهم، وزحفوا من خلف السواتر وإن كانت أصابعهم ما تزال على الزناد، يستطلعون الأمر. بداية تأكد أفراد كل حاجز، أن الطلقة لم تصدر من الجانب الأخر بعد أن اقتربوا من الجثة، وعاينوا الثقب الصغير في

القلب. قلبوا النظر حولهم يخمنون مصدر الطلقة، وتأكدوا دون عناء أنها أطلقت من ناحية مبنى التليفزيون.

مبنى التليفزيون تحت سيطرة القيادة العليا للجمهورية العسكرية الديموقراطية.

اتفق قائدا الحاجز من الجهتين على هدنة مؤقتة ، يتم فيها سحب الجثة وتغسيلها، وتكفينها، والصلاة عليها ودفنها.

السؤال الذي حيرهم من الذي سيقوم بكل هذه المهام؟

امرأة عجوز تقيم في بيتها، بالقرب من الحاجز، قالت لهم من فتحة بابها؛ يوجد قمص، يسكن في بيت الكنيسة، التي تقع بالقرب من مقابر النصارى.

أرسلوا صبياً في طلبه.

* * *

من فوق سريره الحديدي، استيقظ القمص ملاك عبد المسيح من تهويمة الظهيرة على صوت طلقة الرصاص. قفز مرتعباً وهو يصرخ "يا ام المخلص" .. أما تفيدة فقد كانت في الفناء، تناغي حمامة (ضلت طريقها، منذ بضعة أيام، الى عشها، والتجأت إلى بيت القمص، فأطعمتها تفيدة وآوتها) آلفت عليها، تطعم من يدها، وتقف على كتفها وتدخل معها إلى المنزل. حينما اعترض القمص على الوجود المستمر للحمامة وعلى فضلاتها التي تتركها في كل مكان؛ نظرت إليه تفيدة مهددة قائلة:

"إسمع يابونا، أنا فاض بيا. مالها الحمامة كمان. ربنا بعتها لي .. بعتها لي أنا علامة من عنده. إنت نسيت يابونا وللا إيه الحمامة اللي نزلت على كتف يسوع و.."

قاطعها بنفاد صبر" بس.. بس ها تدخليلي في موعظة من مواعظك إللي طلعتيلي فيها اليومين دوله. خلاص سكي على الموضوع" وهكذا سكا على الموضوع حتى جاءهما صوت الرصاصة وكل منهما في موقعه المختار في هذه

الساعة من اليوم؛ هو في غرفته يهوّم وهي في الفناء تناغي الحمامة.

أفزع صوت الطلقة، الحمامة، فطارت مرفرفة بأجنحتها، لاتعرف إلى أين بعد أن نسيت شوارع وحواري المدينة، وهي مستكينة إلى رغد العيش، على كتف تفيدة. طارت مرعوبة متجهة إلى مدخل البيت لتضرب القمص في وجهه؛ ليقع هو على ظهره متيقناً أنها النهاية لا ريب فيها تثقب أذنه - التي تطن الآن من خبطة الحمامة - صرخات تفيدة التي اعتقد أنها تندبه؛ بينما كانت في الحقيقة، تندب حمامتها التي اصطدمت بالحائط مرتدة فوقعت على ظهرها (وهذا وضع نادر للحمام) تضرب الهواء بقدميها والأرض بجناحيها.

بعد لحظات هدأ غبار المعركة، وقف القمص على قدميه، يمسّد جبهته ويبربش بعينيه (ليتأكد من أنهما ما زالتا تقومان بوظيفتهما) وتلقفت تفيدة الحمامة، تعدلها وتحتضنها، وتتسمع وجيب قلبها(قلب الحمامة) الذي أسرعت دقاته.

طيبت تفيدة خاطرالقمص (بعد أن اطمأنت على حمامتها) وأسرعت تعد له فنجالاً من القهوة، وقد نسي كل من القمص والحمامة سبب فزعهما، واندفاعاتهما المفاجئة في اتجاهات متعاكسة. العويل الذي يأتي من الشارع، مصحوباً، بالصراخ، والشتائم، أرجعاهما (القمص والحمامة) إلى الواقع. طارت الحمامة مرة أخرى وحطت على مدخل باب البيت فوق التعريشة. تسائل القمص بخوف " فيه إيه يا مقدسة؟"

تفيدة التي كانت مشغولة بحمامتها ورئاها؛ هي الوحيدة من الثلاثة التي احتفظت برباطة جأشها - إن تجاوزنا عن نوبة الصراخ التي انبعثت منها قبل لحظات - أجابت بهدوء:

"دا الحاجز حدانا. حاجز الراهب"

تفيدة وآخرون من المؤمنين مثلها، أطلقوا على الحاجز هذه التسمية. تفيدة داومت على زياراتها اليومية للحاجز لتشترك في العبادة والصلاة مع المؤمنين. أحضرت معها قرباناتها التي خبزتها خصيصاً، وقدمتها للراهب، الذي باركها، وقدمها بدوره للمؤمنين.. (وافق الحاجز الآخر على السماح للراهب بحرية

العبادة) .. المقدس بياع الخمرة، تبرع بزجاجات نبيذ "أباركة القسيس" للراهب، ليباركها، ويقدمها، للمؤمنين مع القربانات ساعة المناولة.

كررت تفيدة "دا الحاجز بتاع الراهب" تنبهت في المرة الثانية، كما تنبه القمص أيضاً؛ أن طلقات الرصاص توقفت منذ ثلاثة أيام، وحتى الآن، من "حاجز الراهب" .. فما الذي حدث لكي يجعلها تنطلق من جديد؟

تسمعا، كل من موقعه، هو تحت التعريشة، هي بالقرب من الموقد ناحية المطبخ، لمزيد من الطلقات. لكن لم يسمعا المزيد. حتى الحمامة اقتنعت بذلك؛ فطارت مترددة لتهبط بعد عدة حومات فوق كتف تفيدة.

" طلقة واحدة؟ " كل من تفيدة والقمص يمعن التفكير في صمت دون أن يفصح عن مخاوفه. الحمامة هي الوحيدة، التي واتتها الشجاعة لتفصح عن مخاوفها؛ فأخذت تطير، وتحط بعصبية، فوق كتف تفيدة، التي أنهت صنع القهوة الآن وقدمتها للقمص واتجهت ببطء ناحية الباب. طارت الحمامة محومة ورجعت مرة أخرى إلى التعريشة. تنبهت تفيدة على الموقف الغريب للحمامة، أسعفها حدسها المرهف في تلقي "رسائل الحمامة" باقتراب الخطر. يارب ارحم. هدلت الحمامة بصوت بدا لتفيدة، أنه أجش، وليس الهديل المألوف للحمامة. تسمّرت تفيدة في مكانها وهي تهمس بصوت واضح " يارب ارحم".. وصلت الرسالة إلى القمص الذي أطلق تنهيدة حرى، وهو يمسك بصليبه "رحمتك يارب"

حينئذ جاءت الدقات القوية الملحاحة على الباب ومعها الصوت المراهق ينادي "افتح يا بونا"

ظهور الملثمون مرة أخرى ، والتقاء القمص معهم ، مما تسبب في حوادث عجيبة بعد ذلك .

امتلأت الكنيسة الصغيرة – على غير العادة – بالذين حضروا لحضور

القدّاس الجنائزي على روح المتنيح الراهب الحافي. تبرع تاجر الخمور بثمن "الصندوق" والكفن. قضت تفيدة الليلة كلها أمام الفرن تخبز القربان الذي "سيتناوله" المصلون أثناء القداس مع النبيذ، الذي وصل بكميات وافرة، مع الصندوق. خارج أبواب الكنيسة وفي الشارع، وقف الناس وقد حط عليهم خشوع وخوف غريب. حضر مندوبون من الفصائل المتقاتلة، ليقدموا العزاء (لمن؟) وليجلسوا على المقاعد الخشبية الخشنة، بقلق وتوتر، يجدون أنفسهم في "كنيسة" يقفون ويجلسون عدة مرات، ينظرون بنصف عين إلى "أبونا" وبالنصف الأخر إلى حراسهم الشخصيين الذين وقفوا بسلاحهم خارجاً متحسبين للمفاجآت.

حضر أيضاً مندوب (ج. د.ع) وزير الأقليات الدينية- وهي وزارة مستحدثة لإرضاء الشركاء في الغرب، وأحيط بالاحترام اللازم.

سادت المنطقة هدنة مؤقتة اتفقت عليها الأطراف كلها حتى يتمكن المشاركون في الجنآز، من الحضور من جهات مختلفة، وتم الاتفاق على نقل الجثمان إلى المقابر التي تقع في الناحية الأخرى من المدينة، في نطاق نفوذ إحدى الجماعات المسلحة القليلة الأهمية والتي توافق دائماً، على دفن المسيحين، وحماية مقابرهم نظير "جعل معلوم"

في البداية لم يستوعب القمص ملاك عبد المسيح ما حدث. لم تكن الرسالة التي نقلها الولد واضحة. تفيده استوعبت ما حدث بسرعة وتولت قيادة القمص الذي، رفض في البداية، أن يخرج من منزله. هي التي ساعدته على ارتداء ثيابه الكهنوتية. ارتدت فستانها الأسود الذي ترتديه في المناسبات الهامة (مثل الزواج والمآتم) وخرجا من البيت تمسك بيده، وتهمس له بكلمات التشجيع يقودهما الولد.

تحلقت مجموعة من النسوة حول القمص وتفيدة. قام عدد من الشباب بحمل الجثمان فوق أكتافهم إلى بيت الكنيسة. لم تنح النسوة بل تماسكن وهن يتبعن الجثمان الذي تقرر أمره بعد مناقشات غاضبة تخللتها الشتائم، وقعقة السلاح.

تفيدة هي التي حسمت الأمر هذه المرة-أيضاً- بأن قالت بصوتها الحاسم (والجديد عليها وعلى القمص أيضاً) إنهم "سيأخذونه" إلى الكنيسة وقبل ذلك إلى البيت ليغسلونه ويكفنونه ويصلون عليه في الصباح.. بإذن الرب.

مددته النسوة في فسحة الباب الداخلي تحت التعريشة. نسوة متمرسات، طالما غسلّن الموتى، وقمن بتكفينهن، بسرعة، وبطريقة عملية وبكفاءة. انسحب القمص مع مجموعة من الرجال، لايعرف معظمهم إلى داخل الكنيسة. أحس للمرة الأولى منذ أن جاء الولد يدق الباب؛ بأنه محور الاهتمام المفاجيء، لوضع لم يألفه من قبل، رغم أنه صلى على العديد من المتنيحين الذين اختارهم الرب إلى جواره. الرجال الذين تحلقوا حوله، واصلوا حديثهم بهمس وهم في بيت الرب. ينظرون إليه بتهيب، يرفعون رؤوسهم تجاهه، ينتظرون القول الفصل والرأي الحكيم.

بالتدريج، تجمعّت داخله قوة تمنحه الهدوء والتفكير الصافي. تقرر الأمر؛ أن يصلي عليه في الصباح بعد قداس الفجر. اقترح البعض أن يقوموا بالحراسة طوال الليل. حاول أن يثنيهم دون جدوى. يريد أن يسألهم - دون أن يجرؤ- حراسة ضد من؟ .. وافق مستسلماً.

النسوة في الداخل قمن بتسخين الماء. ظهر الصابون الزكي الرائحة بطريقة مجهولة، وكذلك الشموع التي وضعت بالقرب من رأسه وقدميه.

امرأة شابة (ترملت حديثاً) انحنت تقبّل قدميه وهي تقول بصوت مرتعش "ماتنسناش يا قديس. اذكرنا يا قديس عند المسيح في الملكوت علشان خاطر العدره" .. تبعتها النسوة في الانحناء والتقبيل، ومناداته باللقب الجديد. حينما عيطت واحدة، نهرتها تفيدة "بدل ما تعيطي؛ زغردي. ده شهيد.. قديس، بيتشفّع فينا دلوقت في السما، هو ومار جرجس"

بالفعل انطلقت زغرودة خجسولة في البداية. قصيرة ومترددة. بعد لحظة صمت، لحقت بها زغاريد طويلة، قوية وجريئة. استمع الرجال بذهول، وهم في الكنيسة المعتمة إلى زغاريد النسوة. هرع ولد يستطلع الأمر. رجع يلهث وهو يتمتم زائغ العينين "قديس.. قديس".

فقد اكتشفت النسوة ، فوق الجسد العاري للراهب ، بيضة النعامة الصغيرة، سليمة، لم تمسها الرصاصة. اعتبرن وجود البيضة سليمة، بعد موته؛ إعجوبة، لايقوم بها سوى قديس.

غنت النسوة أغاني الزفاف. الأغاني التي تزف بها النسوة أولادهن إلى زوجاتهم، يذكرن فيها مناقب الأولاد ورجولتهم.

نظر الرجال إلى بعضهم ولمعت عيونهم..

حملوه بعد قداس الفجر(الذي كان مزدحماً على غير العادة) إلى الكنيسة، ووضعوه بالقرب من المذبح. المصلون الذين حضروا في الفجر لم يبرحوا أماكنهم، بل أخذت أعدادهم تتزايد بسرعة وبشكل مستمر.

توافد عدد من القمامصة يريدون المشاركة في الصلاة على "القديس" التي شاعت وسط المؤمنين، أخبار كراماته حتى بعد موته. لم يتوقف أحد للتحقق من ما سمعه. أخذ السامعون يزيدون من عندياتهم قصصاً جديدة.

لم يستطع القمص ملاك - الذي قاد الصلاة - أن يحتفظ بالهدوء في الكنيسة، إلا بعد جهد، ولفترات قصيرة. لتنطلق بعدها الزغاريد ممتزجة بالنداءات والابتهالات التي ترجو القديس الشهيد أن يتشفع لهم في الملكوت.

على باب الكنيسة ظهر الملثمون فجأة.

لعل الجواد الأبيض هو الذي لفت الأنظار في البداية.

ملثم يمتطي جواداً أبيضاً ويتنكب سلاحه، يحيط به مجموعة من الملثمين فوق صهوات جيادهم، وسلاحهم واضح للعيان. وقفوا جميعهم بإشارة من الفارس خارج الكنيسة. ترجل هو وسجد أمام الباب الخارجي راشماً علامة الصليب. سجد الملثمون يحيطون به، ومن خلفهم بدأ الناس (بعد أن تخلصوا من وقع المفاجأة) يسجدون، ويرشمون علامة الصليب. ساد هدوء عجيب في الساحة الخارجية، انداح كأمواج بطيئة قوية إلى داخل الكنيسة.

حينما انتهت الصلاة دلف إلى الداخل بسرعة أربعة من الملثمين، بعد أن سلمّوا سلاحهم إلى رفاقهم.

وقع أصوات جزمهم على بلاط الكنيسة العاري، وخطوهم السريع الواثق؛ سمرّت المصلين في أماكنهم. سجدوا أمام الصندوق المفتوح. رشموا علامة الصليب على أجسادهم . خلعوا الصلبان التي كانت معلقة في رقابهم ووضعوها داخل الصندوق. نزع أحدهم ببطء الصليب الموضوع فوق صدر جثمان الراهب. قبّله ورفعه عالياً بيديه الاثنتين. تحت الصليب ظهرت بيضة النعامة، تضوي في ضوء الشموع. فوجيء الملثمون بها، مد أحدهم يده لينتزعها، لكن القمص صرخ؛ بأن يتركها "مكانها" .. أطاعه الملثم. سجد القمامصة وتبعهم المصلون. تناوبوا تقبيل البيضة، والتمسّح بها ورشم الصليب عليها. حملوا الصندوق الذي ما زال مفتوحاً على أكتافهم واتجهوا به إلى الخارج.

قادت تفيدة جمهور المصلين إلى خارج الكنيسة وهي تنشد: "كيرياليسون.. كيرياليسون"

في الخارج وضع الفارس سلاحه للحظات فوق الجثمان. ركع يصلي وتبعه رفاقه. وضعوا أسلحتهم فوق الجثمان، يصلون.

استرجع الفارس سلاحه. تنكبه بحركة بطيئة. ربط الصليب المنتزع من رقبة الراهب فوق سلاحه. صاح أحدهم هللويا! ردد الآخرون.. هللويا!.. قفز فوق جواده بسرعة ودربة. همزه بقسوة. شبّ الجواد على قدميه الخلفيتين وهو يصهل. همزه مرة أخرى فانطلق يخب به. تبعه الملثمون. تبعهم المصلون وهم ينشدون كيرياليسون. في النهاية، وجد القمامصة والشمامسة و"المندوبون" أنفسهم في آخر الموكب، فساروا بالمباخر والصنوج.

هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها الملثمون أمام عدد كبير من الناس وفي وضح النهار. تأكد الناس من أسطورتهم، التي كان البعض يشكك فيها.

احتل الملثمون مواقعهم حول القبر. الفارس لا يزال على جواده. وضع حاملوا الجثمان الصندوق على الأرض بجوار القبر المفتوح وتنحوا جانباً بعد أن استردوا أسلحتهم.

تقدمت امرأة عجوز من الجواد. مسحت رقبته. خلعت قرطها الذهبي وهو

آخر ما تبقى لها، وضعته على الأرض تحت أقدام الفارس الذي ترجل الآن.

سجد الفارس على الأرض، حانياً رأسه، واضعاً يديه فوق قلبه. تشكّل طابور طويل من المؤمنين، يخلعون "ممتلكاتهم" الذهبية والفضية، أو يضعون نقوداً، على منديل فرشه أحدهم بعجل على الأرض. قام واحد من الملثمين بتناول المنديل وعقده باحكام وسلمه للفارس. وضعه هذا بحرص في خرج الجواد.

أقيمت الشعائر الأخيرة. انحنى القمص على الجثمان. قبلّه في فمه. مد يده المرتعشة، وتناول بيضة النعامة. رفعها عالياً بيديه، كما تعود أن يرفع أيقونة العذراء في احتفالاتها. ركع الجميع يهمسون بصلاواتهم وأدعيتهم. أعينهم عالقة بالبيضة، التي تضوي تحت نور النهار.استدار – وهو في ركعته – وواجه الفارس الملثم. واجها بعضهما، لحظات بدت للقمص بطيئة.. لمعت أعينهما بلهب المعرفة المتواطئة الصامتة. مد القمص البيضة، ممسكاً بها بكلتي يديه إليه. مد الآخر راحتيه، وأطبقهما برفق وحسم على البيضة. سجد للقمص. قبّل يده. همس القمص له بشيء، لم يسمعه غيره. رد الملثم بهمس لم يسمعه سواه، وهو يرفع، وجهه إلى القمص هذا الوجه الذي بدا له معذباً لكنه يضيء بنور المسيح. كما قال بعد ذلك للمقدس جرجيوس. قام وقبّله في فمه ايضاً. واجه الناس لحظة متردداً كأنه لايعرف ماذا عليه ان يفعل أو يقول. أنقذته زغرودة طويلة، بدأت خافتة، لتنضم إليها عشرات.. تبعتها زخات من الرصاص، ليست من أسلحة رفاقه فقط، لكن، من أسلحة، ظهرت فجأة من داخل أثواب المؤمنين. ارتاع للحظة قصيرة. تمالك جأشه بذلك التسليم القدري.

وضع الفارس قدمه في الركاب. دس البيضة بحرص داخل ثيابه، فوق قلبه. قفز. همز جواده. خب به، وخلفه الملثمون باتجاه الصحراء والجبل في الناحية الأخرى من المدافن. تابعهم الناس بأعينهم وهم يختفون بالتدريج خلف الكثبان الرملية، دون أن يتحركوا من أماكنهم.

حينما رجعت تفيدة ومعها القمص ملاك، إلى البيت، كانت قد تأكدت لها

الإشارات والعلامات التي طالما صلت للرب وشفيعها أن يظهراها لها. عقلها يتحرك بسرعة وبالطريقة العملية التي تعودت عليها. تتخذ قرارتها غير آسفة على ترك القمص بمفرده (دون أن تخبره بعد) في البسيت، يواجه المدينة ومخاوفه وحيداً، ترى بروحها، الطريق الذي اختارته العذراء لها.

الشيء الوحيد الذي تملّك أفكار القمص ومشاعره؛ رؤيته - مرة ثانية - للملثمين، وبالتالي ما فعله، دون أن يكون قد خطط لذلك.

عرف الآن، بحدسه الغامض، أنه منذ اللحظة التي أعطى فيها الملثم، بيضة النعامة أنه لا يستطيع أن يغادر "المطرح" قبل، إتمام ما هو "مكتوب" عليه أن يقوم به، بأمر الرب!

ظهرت العلامات الإلهية، للقمص، يوم الأحد التالي عقب الجنّاز، فوجيء، بأن كنيسته الصغيرة، تمتلئ - على غير العادة - بالمصلين. انتابته دهشة خافتة وهو يتسمع إلى دبيب أقدامهم (من موقعه في الحوش) ولغطهم، وهم يدخلون إلى الكنيسة.

حينما وقف بجوار الهيكل بعد أن سجد وصلى، ليواجههم مرة أخرى، انزاح خوفه ودهشته، لتحل محلها حالة لم يختبرها من قبل. أسماها "قوة الروح القدس"..

وجد نفسه يقول للمصلين عن الرصاصة التي قتلت الراهب من مبنى التليفزيون. عن استشهاد الراهب على حاجز الموت، تلبية لأمر العذراء المقدسة في إيقاف دم أولادها من مسيحين ومسلمين.. عن اعتقاده هو القمص الكاهن ملاك عبد المسيح، بأن قتل الراهب الذي لم يعرف أحد اسمه حتى الآن، يجب أن يكون، مثل قتل المسيح فوق الصليب؛ تكفيراً، غفراناً، ونهاية لـ "عهد قديم، وبداية عهد جديد" من التسامح الديني ، ومن إحباط وتفشيل الخطط الخاصة باستمرار القتال لكي يستفيد حفنة من الناس، من فوق، وحفنة أخرى من التجار.

دهشتـه، كانت أكبـر من دهشة المؤمنين، للكلام الذي تفـوه به وكأنه يسـتمع إلى شخص آخر.

تعاظمت دهشته أيضـاً حينما وجد "الشعب" يردد وراءه، عقب كل مـقطع، وهو يلتقط انفاسه "آمين.. آمين"

بعد ساعات قليلة، اهـتزت خطوط الهاتف بين "فوق" .. القيادة الـعامة لـ "ج. د .ع" والمجلس الأعلـى للمليشـيـات الإسـلامـيـة، والمجلـس المقـدس للمليشـيات المسيحـية، ومقر الحـبر الأعظم، ومقـر الشيخ الكبير. اتفق الجـميع على أن ما قـاله القمص مـلاك عبد المسـيح "هرطقة"، وإنه من غـيـر المسمـوح "تدخل الدين في الدولة"

أصدر الحبر الأعظم قراراً مقدساً؛ بعزل القمص ملاك عبد المسيح من رعاية كنيسـة سيـدة الآلام، وإرساله إلى دير في الصـحراء الغربيـة لفترة غـير مـحددة، ليعتكف في قلايته، ويصلي إلى الرب، لكي يطرد من قلبه شيطان السياسة.

لم يدر القمص بالقرارات المقدسة، التي وصلت بعـد أن غادر الأبرشية ببضع ساعات (نتيجة للبـيروقراطية التقليدية).. لأنه بعد الصلاة مباشـرة، اكتشف غيبة تفيدة. وقالت له واحـدة من العوانس، أن تفيدة أبلغتهـا أن تبلغه، بأنها ذهبت إلى دير جبل الطير - كما قالت له - وفاء لنذرها والذي قالت له عنه.

حزم حـوائجه في صـرة صغـيرة، وذهب إلي بيت المقدس جـرجيوس بـياع الخمـور، يطلب منه، أن يوصله بسيارته "المرسـيدس" إلى مشارف الطريق الذي سياخذه إلى الجبل الغربي.

لم يقل له لماذا. لم يسأل الآخـر رغم فضوله. أحنى رأسه طائعـاً. مال على يد القمص يلثمها، ويقول له بخشوع صادق "باركنا يا بونا"

* * *

العبارة الهامـسة التي لم يسمعها سواه، حينمـا قدم بيضة النعـامـة إلى الملثم القائد، رداً على السؤال الهامس لأبونا ".. إنتوا فين"

أجاب الآخر بدون تردد هامساً ببطء ووضوح "إسطبل عنتر"
وهكذا ربط الراهب الحافي - دون أن يدري - مرة أخرى بين القمص ملاك عبد المسيح والملثمين..

أمستردام ـــ ١

مزاج الكتابة

في مـــدني، كانت الكنيسة اليونانية تتصدر شارعنا وتليها كنيستنا في منتصف الشارع. الكاهن اليوناني، أراه دائماً يمر بمواجهة بيتنا. لعله يسكن بالقرب من الكنيسة وليس في بيت ملحق بها مثل بابا. أتذكره أيضاً يسير مهرولاً بطليسانه الأسود السابغ بين بيته وكنيسته، وقد اعوجت رقبته ومالت بزاوية حادة تحمل رأسه الضخمة أو لعلها بدت لي كذلك وأنا غلام بين الثامنة والعاشرة. نحن الأولاد وجدنا تفسيراً يرضي فضولنا بالنسبة للرقبة المعوجة (هل سمعناه من الكبار؟ لا أعرف).. أن لصاً هاجم منزله بالليل وقاومه الكاهن فطعنه اللص بالخنجر في رقبته التي تشوهت نتيجة للطعنة. أتذكر وجهه الشاحب الذي لم تفلح شمس السودان في تسميره. جاء لي في أحلامي الكابوسية أنهض منها فزعاً وأنا أحس برقبته المعوجة تحمل رأسه الضخم تملأ الغرفة.

مزاج الكتابة ـــ٢

كان هناك عضو في كنيستنا في السودان، اسمه بولس. لعل أصوله القريبة

سودانية؛ فملامحه التي انحفرت في ذاكرتي عن وجه "عربي إفريقي مصري" يسكن بمفرده مع أخت عانس تقاربه في السن (حينما يكون الواحد صغيراً يرى كل الناس على أنهم عواجيز) لعلهما كانا في الأربعين. بولس عنده هفة دينية فهو يصر أن يقيم "اجتماعاً" في بيته مرة في الأسبوع كل يوم ثلاثاء ويدعو أعضاء الكنيسة وبالطبع القسيس، لكي يشاركوا في الاجتماع. أمي لم تكن تحب أن تذهب لكن أبي يحايلها، فتذهب متأففة. لعلي سمعت اصطلاح هفة أول مرة منها.. المهم يتصدر بولس وأخته الاجتماع، بعد أن يعطي لبابا شرف افتتاحه بالصلاة، التي يجيد أن يجعلها قصيرة. بالطبع كنت أرافقهما ومعي أختي الصغيرة، ولعلي كنت في العاشرة. يأخذ بولس في قراءة فصل من الإنجيل، ويقوم بتفسيره. تقوم أخته بتقديم الكركديه المثلج في الصيف، والكركديه الحار في الشتاء فالشاي والقهوة التي نشربهما بكثرة في منزلنا، يعتبرهما بولس حرام. أمي تقول إن بولس لايحتاج للرب ولا للاجتماعات بقدر ما يحتاج إلى زوجة. يلومها أبي برفق. اختفى بولس فجأة. هناك همس في البيت. عرفت بشكل غير مباشر أنه خرج هائماً على وجهه ذات مساء، ووجدوه بعد ذلك يهرف بأيات من الإنجيل. لم يقل لي أحد أين وجدوه. أو لعلي لا أتذكر. لكن أمي تقول أخته العانس هي السبب.

مزاج الكتابة ــ ٣

خالتي لولو مشهورة بالرؤى. ملائكة وقديسين، وكنوز وذهب يلمع فوق السطح الذي وقعت من فوقه مرة ذات ظهيرة وهي تنشر الغسيل إذ رأت كما قالت، قطعة كبيرة من الذهب على سور السطح. لم تكن سوى قطعة من الزجاج تضوي تحت أشعة الشمس. سقطت من فوق السطح وهي في طريقها إلى كنزها. الرب ستر فلم تمت، وأصابها بكسور خفيفة. متعلمة على قدها وراوية ممتازة لألف ليلة عن ظهر قلب. بعد حادثة السطح كنا نحن الصغار نعاملها بمزيج من

السخرية والحذر والإعجاب. حينما كنت في القفص أمام المحكمة العسكرية، التي كانت تعقد جلساتها في الإسكندرية، حيث بيت أخوالي جاءت إلى المحكمة أكثر من مرة وهي متطقمّة على سنجة عشرة، تبتسم لي من بعيد وفي يدها كيس به السجائر والأكل. رفعت معنوياتي، رؤيتها، أكثر من أي شخص آخر من عائلتي؛ فأنا أعلم ندرة خروجها من البيت، فما بالك بالذهاب إلى محكمة أمن الدولة العسكرية، ودوشة الحصول على التصاريح من المباحث، والغلاسة التقليدية من الأمن وما شابه. ماتت لولو- بعد ذلك بسنوات وهي عانس لم يمسسها رجل حسب التعبير التوراتي. خالتي روجينه، وهي عانس أيضاً، أصابتها لوثة خفيفة بعد موت خالي صليب منذ سنوات، ولم تصدق أنه مات. تقول حينما رحت أعزيها أنا وأختي "خالكم زمانه جاي. أصله راح مشوار". هذا النوع من الأخوة والأخوات موجود بكثرة في العائلات المسيحية.

* * *

أمزجة خاصة جداً

مرة قدت خالي صليب إلى بيت واحدة يونانية في الإسكندرية. في منطقة الإبراهمية، حيث يعيش أهل اليونان وعاش قبلهم شاعرهم كفافيس. عرفت عنوان المدام بالصدفة من صاحب لي إسكندراني. ذهبت إليها. فتحت لي الباب نصف فتحة وهي تضم روب دي شامبر قديم (حريري) على جسدها الأربعيني. ملامحها عادية. قلت لها على اسم صاحبي (كجواز مرور) فسمحت لي بالدخول متأففة. في الصالون الثقيل الأثاث المعتم (كنا في ساعة عصرية في الخريف) قالت لي بلهجتها المصرية المكسرة ما معناه أن عليّ أن أترك أحلامي عند الباب الخارجي. فهي سيدة محترمة هكذا قالت وأنها متخصصة في المساج؛ أضافت وليس أي شيء. أكدت ذلك وهي تنفث من سجائري. أعلنت هي:

عشرة جنيه والدفع مقدماً. أعجبني تأففها وادعائها ومحاولتها البائسة في وضع نفسها في موضع مختلف عن "النسوان البطّالة" حسب تعبيرها. أكدت لها أنها سيدة محترمة وأنه مش معقول أن أتعامل معها بأقل من ذلك. قالت هي لولا صاحبك فلان.. ولم تكمل.

أخذتني إلى "العيادة" كما اسمتها هي. سرير حديدي عال عليه مرتبة قاسية وفوقه ملاءة نظيفة. أمرتني ان أخلع ثيابي عدا الكلوت حسب تعبيرها. تركتني وخرجت بعد أن قالت لي أن أتمدد على الفراش. جاءت وعلى وجهها ذلك التعبير المتأفف. قلبتني على بطني وبدأت "المساج".. لا بأس قلت لنفسي. الحقيقة كنت فضولياً أكثر من أي شيء آخر. أريد أن أعرف كنهها حتى أستطيع أن آخذ خالي صليب لها فقد أحزنني حاله وأنا أراه يلوي عنقه ونحن نتمشى على الكورنيش خلف الغاديات والرائحات. يقف فجأة في منتصف سيره وفي منتصف جملة وهو يتابع أرداف امرأة (حتى لو كانت بدون أرداف) وعلى وجهه تعبير آسيان.

.. ليس التعبير الشهواني الجائع. فقط آسيان.

بدأت تفك قليلاً حينما رأتني مؤدباً ومطيعاً. تمازحنا بعض الشيء. قالت لي أن أستدير وأتمدد على ظهري. الروب إياه مفتوح وتحته الكمبوليزون أزرق وقصير من فوق ومن تحت. كدت أبتسم. واصلت هي حديثها وشكوى الدنيا وكيف أن زبائنها زمان باشوات وباكوات. ذكرت أسماءاً. لاعبتها أنا بأن نشطّت ذاكرتها الأرستقراطية. بدأت تناديني بلقب "مسيو".

قلت لخالي عليها. تردد لكن رغبته كانت أقوى من تردده وخوفه الغريزي. وافق بشرط أن أصحبه حتى الباب وأن أكون معه ساعة الاتفاق. كنت قد قلت لها عليه وأضفت أنه تقريباً "بيك" وأنه مسيو حقيقي وأني أضمنه. وافقت هي رغم إعلانها أنها لاتفضل العمل مع المسيوهات العواجيز. قلت لها أنه سوف يعطيها خمستاشر جنيه (مبلغ كبير في نهاية الخمسينيات).

خالي قال الفلوس مش مهمة.

حينما قدمته لها ورأيت تعبير التأفف التقليدي ينزاح عنها بسرعة بعد أن رأت ثيابه الفخمة. تركته ووعدته أن أنتظره تحت في القهوة

.. أتى بعد ساعة ووجهه يتضرج عافية. قال مساج أصلي. ضحكنا. سألني: منذ متى وأنا أتعامل معها. رغت في الإجابة. قال جاداً "تصوّر! أمك فاكرة أنك ماليكش في النسوان" دهشت أنا وسألته ما الذي جعلها تقرر هكذا قال "هي بتقول ما دام ماشي مع الشيوعيين يبقى ما لوش في النسوان" ضحكنا كثيراً ونحن نشرب البيرة الستيلا المثلجة في ذلك الكازينو المبني على لسان صخري داخل البحر.

* * *

وماذا عن المذكرات؟

هذا السؤال ألح على الابنة وداد، تهوم على مقعدها، في الصالة، تسمع شخيره الخافت، يأتي إليها من غرفة نوم الأب، ساعة القيلولة ألمح لها وهما يتغديان (تورلي مسلوق، وسمك في الفرن .. قام هو بإعداده). إنه يكتب رواية، يمزج فيها بين تاريخه الشخصي، وحاجات تانيه؛ حسبما قال. تعلمت هي - بسرعة - خلال السنوات القليلة الماضية، أي منذ أن "وجدا" بعضهما، أن تجعله يسترسل دون أن تقاطعه. تعرف بخبرتها معه، أنه شكاّك، وأنه رغم ذلك يحب أن " يهوِّى" أفكاره مع شخص يحبه ويثق فيه.

قال لها إنه خلال سنوات طويلة، سَجَّل ما أسماه هو مذكرات. وضحك بارتباك خفيف، وهو يقول إنه سَجَّل فيها كل حاجة تقريباً. تعلم أيضاً أنه يتصل بأمها، وبرونسي، ليستوثق أحياناً من معلومة ما، أو من رأي كل منهما في الأخرى. فعل معها الشيء ذاته، حينما جعلها تسترجع معه الكثير من دقائق حياتها الخاصة، وعلاقتها بالرشيدي وبآخرين. أحياناً كانت تحزن، وأحياناً تفضفض.

اليوم على الغداء ألمح لـها (دائماً يلمِّح) بأن ماكتبه في الرواية - المذكرات سوف يزعج البـعض. راغ من الإجابة كعـادته،حينمـا أرادت أن تعرف من هم "البـعض" .. أشاح بيده وقال "ناس كتير.. رونسي، وأمـك، ورفاق سـابقين، وروائيين ونصابين، وسـياسيين، ورجال دين وبـتوع المباحث. إلـى آخره.. إلى آخره".

بالأسـاس يريد أن يكتب عن المؤسسـة الدينية، وتحـالفاتـها غيـر المقدسـة مع المؤسسة السياسية.. يريد أن يكتب عن رجال الدين (البعض منهم) باعتبارهم من البـشر العـاديين، تنتابهم الشكوك والهـواجس والرغبات الحسـية. أن ينزلهم من "جبل أوليمبهم" إلى مصاف البشر العاديين. وهكذا..

نقل حـوائجه القلـيلة من الشقـة الصـغيـرة التي كان قـد استأجـرها في حي الزمالـك الراقي؛ حي السفـارات ورجال الأعمـال، إلى هذه الشقـة التي "أهدته" إياها رونسـيه، قائلة بتلك الابتسامة المتسامـحة "تستطيع أن تشغلها ما طاب لك، حـتى يقضي الله أمـوراً" .. انتقل إلى قلب الحي الشـعبي، يصعد قاصـدها إليها، عبر درج حجري يقـوده إلى الربوة الصغيرة، التي تطل على الحي، وتشــرف من ناحيـة أخرى، على نهـر النيل، في واحدة من انحناءاته المفـاجئة، كطفل يـلعب الاستغماية. غرفتان وصـالة.. واحدة من الغرف دون نوافذ؛ مجرد حوائط صلدة مليئـة بالعفش والمراتب وسنارات لصيـد السمك. أسمـاها غرفة الصيـد. الصالة الرحبة بها مـائدة من الخشب الثقيل المشغول، معلق على حوائطها، نسـخـة من لوحة فـان جوخ "آكلو البطاطس" ونسخـة من لوحة "المستحـمات" لجوجـان. أريكة من الشغل العربي ومقاعد غير مريحة مطعمَّة بالصدف.

الغرفة الأخـرى التي استقر فيها، شرحت صـدره. تطل شرفتهـا على النهر ونافـذتها المقـابلة على الحي. مضـيئـة تدخلها الشـمس وتتسلل إلـيه، بخـفوت، أصوات الناس في الشارع، من أسفل الطوابق الخمسة.

في البـداية كان يخـرج في جولات منتظمـة، ليتـعرف على الحي.. مـداخله ومخارجـه (عادة اكتسـبها منذ أيام العمل السـري والاختباء في شـقق وأحياء لا

يعرفها).. مقاهيه وأسواقه وناسه. بالتدريج قلّل من جولاته في الحي إلا للضرورة. استقر في غرفة النوم، بعد أن أشبع فضوله في تفقّد غرفة الصيد، وتخيل الأسباب التي حدت بالساكن السابق، أو الساكنين؛ إلى جمع كل أدوات الصيد هذه في غرفة دون نوافذ. نقل إليها مائدة صغيرة وجدها في ركن الصالة ومعها كرسي مستقيم الظهر، ووضعهما بالقرب من الشرفة. يجلس على المقعد بعد أن يفتح باب الشرفة، وأمامه المائدة الصغيرة، يطل على أسطح البيوت المقابلة، التي نبتت فوقها أبراج الحمام، وهوائيات التليفزيون وبانت من خلالها، قمم الأشجار التي تحمل في الصيف والربيع أزهارها. على المائدة وضع أوراقه وأقلامه وأباجورة صغيرة.

هناك خطرت له فكرة كتابة المذكرات.. كأنه يريد تهوية ماضيه، لكي يستطيع رؤية حاضره، والاقتراب من بقية أيامه.. استعداداً لتصفية علاقته بهذه الدنيا، وبمن بها، من بشر.. أصدقاء.. وأعداء. حبيبات وعشيقات سابقات. طُرق ودروب سلكها، وأخرى نكص عنها.

في كشاكيل زيتونية الغلاف، مسطرة الأوراق، ناصعة البياض.. بدأ يسترجع، ذاكرته. يبتسم، ويضحك أحياناً. يبتئس، ويتأسى أحياناً أخرى.

يكتب شذرات من حياته - أو مما يتذكره منها - يحاول الإمساك بذاكرته، التي بدأت تخونه منذ أن صعد إلى الخمسين، وبدأ يهبط إلى الستين.

التكرار المقصود للأخطاء

منذ أيام حينما ذهب إلى فوفو بغير موعد مسبق (ليحاول أن يجس نبضها بعد الانقلاب الأخير.. أن يعرف منها آخر التطورات السياسية والعسكرية) أخذ معه الكيس البلاستيكي، الذي وضع فيه مخطوط روايته الناقص، وأوراقه الأخرى، خاط عليها قطعة من القماش السميك. ترك الكشاكيل الزيتونية في

الشقة، لم يقرر بعد ماذا سيفعل بها، فعلى هدى المعلومات التي ستدلي له بها، سيحللها بسرعة ودقة وهو جالس يستمع إليها.. يحتسي النبيذ الفرنسي (الذي يعلم أنها ستقدمه له بكرمها المعتاد وبخبثها) أيضاً، لكي تجعله يطلق لسانه من عقاله، ويفتيها "كما تحب أن تقول" فتضيف فتاويه إلى رصيدها من الشائعات والمعلومات والأكاذيب التي تتاجر بها مع السفارات والميليشيات. لم يكن يثق بها - كما لم يكن يثق بأحد منذ فترة طويلة لم يعد يذكرها .

استقبلته في غرفة نومها، مضطجعة على سريرها الكبير، الذي يحتل مساحة مهمة من الغرفة الواسعة. طردت سكرتيرها الذي كان يُلخِّص لها الصحف والمجلات الصادرة صباح اليوم. طقسها الذي تبتدأ به يومها (ولن نقول صباحها، حيث تستيقظ في الظهيرة) وجهها لا يزال منتفخاً، يحمل آثار السهر، والنوم القلق، خال من المساحيق، به بقايا من حلاوته القديمة.

طردت السكرتير، بعد أن أمرته بأن يحضر النبيذ، وأشارت له مبتسمة أن يجلس على السرير، لكنه فَضَّل أنْ يظل واقفاً، بالقرب من النافذة، معطياً إياها جانب وجهه، يحتسي النبيذ بتمهل وهو ينظر إلى قارب يتحرك ببطء فوق المياه الساكنة، يحمل أسرة كاملة، نشرت ثيابها فوق حبل ممدود بين الصارية والدفة. قاد ثرثرتها بحذر باتجاه سؤال واحد يشغله؛ هل بدأ العد التنازلي؟

يحس بالقلق في الأيام الأخيرة، وهو يراقب الانهيار الصامت - والذي ما زال خفياً - لقبضة الفيلد مارشال والجنرالات، على البلد. الجماعات المسلحة من كافة الأطراف تفقد سيطرتها على أفرادها الذين أخذوا يكوِّنون ميليشياتهم الخاصة. مزيج من العصابات المسلحة، والمهووسين دينياً؛ أطفال يحملون الأسلحة السريعة الطلقات، ويقطعون الطريق على الناس. يهاجمون المتاجر وينهبون ما تبقى فيها من بضاعة تافهة.. جنود يهيمون على وجوههم بثيابهم الرثة، ويقاومون بضراوة أفراد الشرطة العسكرية الذين يحاولون اعتقالهم، ويتبادلون إطلاق الرصاص عشوائياً. سألها (بشكل يبدو إنه عَرَضي) عن أخبار الست والدتها. أجابت دون اهتمام حقيقي، بأن أمها ترفض العودة من جنيف

حيث تقيم في قصر صغير يمتلكه أمير عربي، وضعه تحت تصرف فوفو من زمن .
اهتم بهذه المعلومة مسيطراً على نبرات صوته ، و"خزنّها" في عقله مُنَبِّهاً نفسه أن يعود إليها مرة أخرى لمزيد من التفاصيل. ألقى إليها ببعض الأخبار الحقيقية، والمخترعة، منبهاً إياها بأنها أسرار من مصادره الخاصة. "خزنت" هي المعلومات بحرص دون أن تتظاهر باخفائها كمافعل هو، بل أعلنت امتنانها بأن أشارت مرة أخرى إلى السرير مفسحة له مكاناً بجوارها، تتحرك كاشفة عن جزء لابأس به من فخذها وردفها. ابتسم هو، هازاً رأسه بحسرة مصطنعة متعللاً بموعد وهمي.

قال لها وكأنه تذكَّر فجأة، لماذا أتى إليها. يريد أن يترك عندها بعض الأوراق. قال كاذباً، إنه سيرسل من يستردها في خلال أيام. أضاف بأنها أوراق "سخيفة تخص رونسيه وبها إيصالات قديمة وشهادات دراسية وحاجات تاني عبيطة"... أجاب على سؤالها الذي لم تسأله؛ بأن رونسيه طلبت منه، أن يرسلها لها في نيويورك، وأنها سوف ترسل من يتسلمها من فوفو "ما نتي عارفة إن البوستة مش مضمونة".. أضاف متصنعاً الضجر "عارفه إزاي إنها ممكن تشغّل الناس يعملو لها حاجاتها، لمجرد إنها إتهيأ لها إنها عملت لهم معروف أو قدّمت لهم خدمة وغالباً ما تكون وهمية أو تافهة".. ضحكت هي قائلة "حاتقوللي؟!" سخرا بعض الوقت من رونسيه.

عرَّفهما ببعض منذ زمن طويل. عاملتها رونسيه بذلك الأدب الساخر، ولم تخف عنها معرفتها بالحياة الخاصة للأمير الحقيقي باعتباره مادة دسمة -أيامها- بجنونه وطرائفه. عاملتها فوفو بذلك الاستعلاء، الذي يحسه الخدم حينما يتعاملون مع سادتهم الذين أخنى عليهم الدهر.

فوفو حافظت على وعدها له مدة خمس دقائق. مسافة ما نزل إلى الشارع. نادت على السكرتير وأشارت إلى اللفة. فتحها وأخذ يقرأ لها بتمهل. عقلها يعمل بسرعة مجموعة من الحسابات المعقدة.

من الأوراق الخاصة

اتصلت اليوم برونسي بعد تردد. أريد أن أتأكد من شوية حاجات. حددنا موعداً في شقتها، فلم يكن لكلينا مزاج للجلوس في مكان عام.. ولم أكن متحمساً أن تأتي هي إليّ، لأنها في الأيام الأخيرة، فقدت الإحساس بالوقت، وخاصة وقتي، وتنسى أن تخرج، فاضطر أنا إلى أن أكون سخيفاً معها وأطالبها بالمرواح. لهذا أصبحت أذهب أنا إليها.

لم أدخل في الموضوع مباشرة، فأنا أعرف عقلها الشكّاك. بالطبع لم أقل لها إني أكتب رواية. درت حول موضوع "أول مرة" عملنا فيها جنس مع بعض. في البداية، أزاحت الموضوع بيدها كأنها تنش دبانة رزلة. قالت مدعية الملل "ياه.. لسه فاكر؟" فلعبت معها لعبة أخرى، وهي أن أغيِّر من بعض الحقائق. مثلاً قلت لها أني أنا الذي بادئتها بالهجوم حينما كانت في المطبخ تعد لي كوباية شاي. انزعجت هي وقال باستعلاء، أنه لم يحدث حتى الآن، أن يبادئها الآخرون بالهجوم. قالت إنها هي التي تقرر مكان وزمان وتكتيك الهجوم. لم تستخدم اصطلاح الهجوم. لكن حاجة زي كده. المهم شوية شوية سحبتها معي إلى تلك الغرفة التي عمدتني فيها. المدهش أن كل تفصيلة واضحة حتى الآن عندي. حكت هي حكاية مختلفة بعض الشيء عما كنت – وما زلت – اعتقد أنه حدث. لن أسجل هنا ترهاتها، فأنا لا أكتب "تاريخاً" موثقاً بالإضافة أني أعلم ألاعيب الذاكرة الانتقائية. أخذت قراراً بأن لا أسالها عن شيء مرة أخرى، خاصة وأنها سألتني بخبث، وأنا ماشي "سمعت انك بتكتب رواية أو مذكرات أو حاجة كده". غاظني تعبير "حاجة كده" المبتذل. فلما نظرت إليها متضايقاً ومستريباً؛ ادَّعَتْ إني أنا الذي قلت لها عن ما أسمته هي مشروعي. لم أؤكد أو أنفي، (هل من المعقول أن أكون نسيت فعلاً أني قلت لها؟). التحفت بالغموض الذي يغيظها وقلت "يعني".. بنت الأبالسة!

الحياة السرية والعاطفية لولد وبنت يعيشان بالصدفة في الدلتا المصرية.

كان الآن في سبيله لإنهاء دراسته الثانوية والالتحاق بالجامعة، حينما وقع الانقلاب الأول واستولت حفنة من الضباط الصغار في الجيش على الحكم، وطردوا الملك فاروق من البلاد وأعلنوا الجمهورية.

ارتبط الانقلاب بعدة أشياء في حياته: بداية مرض والده الطويل، الذي أدَّى للموت، وبالتالي الخوف من أن لا يتمكن من الالتحاق بالجامعة نتيجة عدم تمكن الأسرة من دفع مصاريفها، حيث كان إخوته الكبار قد التحقوا بها قبل سنوات.

رجع في الإجازة الصيفية للمرة الأخيرة من الداخلية إلى المدينة الجديدة، في الدلتا، التي يعمل فيها والده بعد عودة الأسرة من السودان. تجول في المدينة ببطء، يستكشفها؛ شوارعها المتربة ودكاكينها النائمة ومقاهيها المعتمة، والمتنزه الوحيد الخالي من الأشجار. نادي وزارة الري الذي يحتل أحسن موقع على النهر، والكنيسة البروتستانتية الصغيرة القائمة بالقرب من مدافن المسيحيين على أطراف المدينة. أحس بكُره عميق لكل ما رآه، وخاصة للحياة التي يتقبلها الناس في أماكن كهذه كَقدر لا فكاك منه. تأخذه تمشياته البطيئة في العصاري إلى نادي الري، ليجلس وحيداً منزوياً بالقرب من النهر يستمع إلى خريره الأبدي، فتزداد وحشته. يراقب بطرف عينه زوار النادي من الموظفين وعائلاتهم وأولادهم وهم يأكلون الدندرمة، ويشربون الكازوزة.. عائلات سمينة تافهة الحديث، رثة الثياب كثيرة الادِّعاء، والنفخة الكاذبة، يعطيهم ظهره ويسد أذنه ويسكب عليهم احتقاره اللامحدود.

أيام الآحاد يذهب إلى الكنيسة - بحكم العادة - وتهرباً من إلحاح القسيس، الذي زارهم للتعارف ودعاهم للكنيسة. طلب منه القسيس أن يساعده في مدرسة الأحد (عصر كل أحد للأولاد والبنات الصغار، لتعليمهم أصول الدين). حاول

أن يتملص، فهـو منذ زمن بعيد، يكره مدارس الأحد بدون سبـب مفهوم.. لكنه لم يستطع، فقد ألحفت في الرجاء ابنة القسيس،، التي تكبره بأعوام قليلة وتتعلم في الجامـعة، في العاصمة وتأتي إلى البلدة في العطلة الصيـفية. لعلها كانت في العشـرين من عمـرها (فهـو في تلك الأيام لم يكن يستطـيع تحديد عمـر البنات، بسبـب اكتمـال نمو أجسـادهن أسرع من الأولاد). شـعرها خـشن أكرت بقـصة غلامية، مع أن الموضة التي كانت سائدة أيامها هي ذيل الحصان. أعجبه أنها ترتدي بنطلوناً في معظم الأيام وقـميصاً رجـالياً واسعاً؛ سـمع أخته الكبيرة مـرة تهمس لزمـيلة لها من الكنيـسة.. أن ابنة القـسيس ترتدي الـقمصـان الرجالـية الواسـعة لتخفـي ضآلة صدرها. لكن البنطلون كان يُبـرز في الوقت نفسه ضيـق خصرها، وتكور ردفيها، ورشاقة ساقيها الطويلتين. وجهها أسمر رائق مسمسم، تبرز منه شفتان منفرجتان ممتلئتان، في قوس مـفتوح، قانيتان. الوجه بشكل عام لا يلفت النظر مثل وجوه الممثلات في المجلات المصورة التي كـانت أخته تشتريها. ما أثاره فـيهـا؛ العينان الداكنتـا الخضرة تحت حـاجبين سوداوين كـثيفين مـثل حواجب الرجال. يعرف أن الجنود الفرنسيين في عصر الاحتلال السابق، قد استقـروا فترة في هذه البلدة.. وقالت الحكايات إنهم استباحوا نساءها حينما قمعوا ثورة دموية قصـيرة قام بهـا الأهالي. قال لنفسه لعل هذا يفسـر اللون المختلف للعـيون التي يشاهدها كثيراً في وجوه أهل البلدة. أعجبه أن البنت ألحفت عليه شخصياً في أن يساعدها في مدرسة الأحد. ولهذا وافق.

دعتـه إلى منزل القسـيس الملحق بالكنيـسة بعـد انتهاء واجـبهـما في مـدرسة الأحد. البيت نظيف وواسع ومرتب، وغرفة الجلوس التي دعته إليها مليئة بالكتب الإنجليزية والعربية، وترجمات لشكسبير وموليير وهيمنجواي.لم يكن قد قرأ لأي منهم من قـبل، وحينما شاهدته يتـصفح الكتب بتهيب، عرضت عليه أن يسـتعير منهـا مـا يريد. جلسـا يتـحـدثان، وهمـا يحتـسيـان الشـاي، عن الكتب والأدب والدراسـة في الجامـعة. عـرف أنها تدرس في قـسم اللغة الفـرنسيـة. لم يكن هو يعرف الفرنسية جيداً، اجتاز امتـحاناتها بصعوبة.. وهونت عليه خجله من اعترافه

الحذر بجهله، وأزاحت كسوفه جانباً بحركة من يدها ونظرة ضاحكة من عينيها الداكنتي الخضرة.

بحجة إرجاع الكتب التي استعارها، أتى إليها وسط الأسبوع وجلاً متهيباً. استقبلته في الغرفة نفسها مرحبة، مبدية إعجابها بسرعة انتهائه من القراءة (أراد هو أيضاً أن يبهرها، فقرأ بسرعة وبتمعن لأنه خاف أن تسأله فيما قرأه).. لكنها لم تسأله، بل جلست مرتاحة قبالته ببنطلونها الرجالي، وقد لمت ساقاً تحت فخذها، والساق الأخرى تتأرجح رائحة غادية، وقد تعلق بأصابع قدميها خف بيتي قديم، سرعان ما ألقته جانباً لتبين قدمها، التي تعلق بناظريه على أصابعها القوية (أول مرة يكتشف فيها تأثير القدم على رغبته الحسية).. قميصها الرجالي محبوك على خصرها الضيق. لاحظ -بالفعل - أن نهديها صغيرين. عرف منها أن والديها في زيارة لأعضاء الكنيسة. أحس بالحرج من وجوده لوحده معها، لكنها تصرفت معه ببساطة، قائلة إن حضوره أنقذها من وحدتها ومن مللها من القراءة. ضحكت هي، وهو يقول لها رأيه في البلدة، وتفاهة أهلها. أسعده موافقتها، وأضافت من عندها المزيد من السخرية حتى على أعضاء الكنيسة.

جاء المساء ولم تشعل المصباح الكيروسيني المعلّق في سقف الغرفة (لم تكن الكهرباء قد دخلت البلدة بعد). ساد بينهما صمت غريب حاول هو أن يملأه بترهات من الكلام، إذ أحس بها تنزلق بعيداً عنه في منطقة نائية حاول اللحاق بها فيها واستعادة الجو الذي تلاشى من بينهما. قالت له هامسة:

- يعني مش ضروري إنك تتكلم. فوجيء هو، فجلس منزوياً، يحس بالحرج والكسوف. تنبهت هي بسرعة لما انتابه، فقالت:

- إنت زعلت؟

ولما أحنى رأسه ولم يرد، قامت وجلست بجواره وأمسكت يده المعروقة وقبّلتها.. أحس بشفتيها الدافئتين فوق كفه، يدها القوية تمسك بيده وتضغط عليها. رفع رأسه مندهشاً خائفاً متسائلاً، فوجد عينيها تشعان بضوء شديد الاخضرار ينفذ إلى جسده الذي بدأ في الارتعاش بقوة لم يستطع التحكم فيها.

بيدها الأخرى أخـذت رأسه وأمالتها إلى صـدرها.. دفنتها هناك، فـوق القلب الذي أحس بوجيبه السريع. يدها الممسكة بيده، الآن ، فوق فـخذه بالقـرب من خـاصرته وأصابع يدها الأخـرى تدور حول خـده (الذي نبت عليـه شهـر ناعم خفيف قليل فهو لم يكن قد بدأ يحلق ذقنه بعد). تتلمس تضاريس وجهه الناعمة وتضغط برأسه بخفة على صدرها، الذي أحس به، صلباً، خلف النسيج القطني الخفيف للقميص. همست:

- باين عليك حسَّاس خالص.. حقك عليّ.

أحس بأنه يريد أن يبكي. حاول أن يتـماسك، أذهله ما تفعله مـعه، ورد فعله السلبي.لم تكن عبارتها، الخـفيفة الزجر، السبب المباشر له. رأسـه يدور برائحتها المنبعثة من جسدها.. من أصابعها التي تتحسس خديه، من يدها الأخرى المرتاحة فوق فخذه المرتعش..

أحس، دون أن يلتفت إليهـا بأنها "عرفت". يدها قـد انزلقت، بين فخـذيه. أغمض عينيه بشدة. خاف أن يوسـخ بنطلونه. لعلها خمنت ما يحس به. همست له في عينيه:

- قوللي أعمل إيه عشان أصالحك وتسامحني؟

رفعت رأسه. يتنفسان بعمق. شم نَفَسها الحلو. أنفاسها قصيرة سريعة متلاحقة دافئة تفوح برائحـة عطرها الخفيف المختلط برائحة الجسد المغسـول. الشفتان الآن فوق شفتـيه ترتعشان بحياتهمـا الخاصة. أحس بطعمهما المبلـل.ابتعدت عنه قليلاً لكنها ما زالت ملتصقة به، يحس جسدها بجواره. يدها ما زالت ممسكة به. الظلمة الخفيفة تغطي الغرفة عدا ذلك النوَر المنبعث من مـصباح الشارع. قميصها الأبيض يعكس سمرة وجهها الدافئة التي بدت له لامعة نابضة.

لحظات.. ضحكت هي. ضحكة حلقـية، سريعة، خافتة. طفلة مـندهشة تعيد اكتشافها لعبة قديمة تحبها.. ضاعت ووجدتها مرة أخرى على غير توقع.

فكت أزرار بلوزتها، قميصها. أخرجت ثديها الصغير الصلب، وقادت فمه إليه. فـمه الجـاف. فمه المرتعـش. أسندت رأسه إلى لحمـها. قلبـها. يسـتمع إلى

وجيبه، قوياً. همست بالفرنسية. لم يفهم سوى كلمة واحدة "لقد وجدت". استمرت تهمس بالفرنسية كلاماً يبدو منظوماً. لم تكن تخاطبه بل دخلت في عالم خاص بها. مع إيقاع نظمها، جسدها يتحرك متناغماً. يدها التي فوق حقويه ترتعش أناملها المتلهفة تبحث في ثنايا البنطلون عن أبوابه السرية تريد أن تفتحها. تريد إطلاق ما في سجن الثياب المؤلم. رفع وجهه إليها يريدأن يفهم.. يتلهف على إشارة. وجهها قريب جداً من وجهه إلا أن عينيها المنفتحتين الآن على اتساعهما كانتا بعيدتان. تسمّرت عيناه على الوجه الذي ساحت تقاطيعه في الظلمة الخفيفة، تلفه ولا تبدو منه غير الأسنان البيضاء. برز نصوعهما من الشفتين المنفرجتين. مد ذراعيه يحيط بخصرها وأحس بجسدها يلين ويتكور تجاهه. احتضنته بيدها الأخرى ساحبة إياه إلى إيقاع جسدها المتناغم، وإلى رائحتها.

يلتقيان الآن في الحقول المجاورة، يتسللان إليها حينما تهجع البلدة. ثمة حقل يقع على أطراف المدينة. حقل للأذرة التي تنبت عالية تستر من بالداخل. به عشة صغيرة يستخدمها صاحب الحقل ساعة الظهيرة مبنية من الخوص وتقع بالقرب من مجرى للمياه. أرض العشة طينية فوقها حصيرة بالية. العشة صغيرة وليس لها باب يغلق فتحتها.

ليالي الصيف الطويلة القصيرة الظلام، الباهظة الحرارة. الحقول ارتوت ونبتت شجيراتها وزراعتها عالية، لكنها ساكنة بعد عودة من يعمل فيها حتى الغروب. دائماً يجدها قد وصلت مبكرة، جالسة هادئة فوق الحصيرة وقد خلعت صندلها ووجهها باتجاه الأفق والفضاء الفسيح. هي التي اكتشفت الحقل وهي التي أرشدته إلى الطريق إليه.

بعد الأمسية الأولى وفي طريق عودته للبيت كان ينظر إلى الصبيان الذين في مثل عمره والذين تجمعوا في مجموعات صغيرة على نواصي الشوارع المتربة السيئة الإضاءة، ينظر إليهم باستعلاء المعرفة الخاصة المكتسبة حديثاً. شعر بالنقلة المفاجئة الهائلة التي اختطفته من عالم الصبية إلى عالم الذكور البالغين. ما زال

يستنشق رائحة جسدها في ثناياه بل لا يزال يحس بأنفاسها وطعم عرقها فوق شفتيه. حينما رقد في فراشه مبكراً بحجة القراءة - فقد كان يريد أن يختلي بنفسه - تحسس جسده من تحت الملاءة وتحت الجلابيه الخفيفة، وقرر أن لا يتحمم مدة طويلة، حتى لايفقد الرائحة. قالت له حينما أوصلته للباب الخارجي: "تعالى بكره في العصر" لم تقل له لماذا بل أمسكت بيده وضغطت عليها بأصابعها القوية. والداها كانا قد أتيا إلى البيت وهما لا يزالان في الغرفة. تنبهّت لخطوات والديها. قامت وأشعلت المصباح الغازي الكبير، وهندمت له ثيابه المشعثة، بنفسها، بحركات سريعة واثقة. أحضرت من الداخل كعكة صغيرة. قالت ضاحكة أن أمها صنعتها بنفسها، وحينما دخل الوالدان إلى الغرفة، لم تتحرك من مكانها بجواره، ووقف هو يحييهما. القسيس، الذي كان يقارب والده في العمر، رَحَّبَ به مشتت البال. جلس معهما يطعم من الكعكة. الأم في الداخل، تعد الليمونادة المثلجة بعد أن عاتبت ابنتها ضاحكة بأنها لم تقم بواجب الضيافة كما ينبغي. نظرت الأم إليه متفحصة وهي تسأله أسئلة المجاملة عن صحة الست والدته. شعر بنظرتها النافذة فوق حقويه. قالت الابنة بجدية إنها قرّرت تعليمه الفرنسية، وإنها سوف تعطيه الدروس مجاناً مكافأة له على تطوعه في مدرسة الأحد. وهكذا جلسوا أربعتهم على راحتهم (كان هو أقلهم راحة) يتحدثون ويسمرون.. يريد الهروب وفي كل مرة، كان يهم بالقيام، كانت هي تشده من يده وتطلب منه البقاء شوية أخرى. تصرفها التلقائي الواثق أصابه بالحيرة، فقد كان يتوقع منها أن تتعامل معه بشكل مختلف أمام أبويها.. أن تتحفظ معه، لكنها كانت تمسك بيده بين وقت وآخر.. مسكة خفيفة سريعة ملحوظة من الأم الذكية. في اللحظات التي تلتقي فيها عيناه بعيني الأم، أحس بهما ترسلان إليه أسئلة حَارَ في تفسيرها.

في اليوم التالي، حينما أتى، فتحت له الأم الباب ورحبت به وقادته إلى الفناء الداخلي للبيت الذي أطلقت عليه اسم الجنينة. ثمة شجيرات من الياسمين الهندي والفل البلدي ومقاعد من الخيزران موضوعة في الظل، والمكان يتضوع برائحة الفل والياسمين.

قالت الأم بابتسامة جادة:

- رونسي في الجنينة منتظراك علشان الدرس.

اعتقد بالأمس أن حكاية الدرس مجرد حجة لتبرير وجوده، وحينما أتى اليوم لم يكن يعرف لماذا طلبت هي منه الحضور. تجلس على كرسي خيزراني، وقد وضعت على المائدة الخشبية الصغيرة بجوارها بعض الكتب. وقفت الأم لحظة مترددة، بينما رحّبت به هي بابتسامة دون أن تترك مكانها، ودون أن تمد يدها إليه. قالت الأم إنها سوف تحضر الليمونادة، وتركتهما. أشارت رونسي إلى المقعد الخالي، وطلبت منه الجلوس. أحضرت الأم اليمونادة، وتركتهما مباشرة.

قالت رونسي: "عارف اسمي يعني إيه؟" ولما هز رأسه نافياً، قالت ساخرة:

أمي يا سيدى كان ليها واحدة صاحبتها فرنساوية اسمها رونسيه بالهاء وهو اسم نوع من الورد مش موجود هنا. موجود بس في فرنسا. الموظف في تسجيل المواليد، كتبه بالياء. أنا شخصياً مش حابة الاسم، ولما كنت صغيرة كنت أرفض أرد على أي حد يناديني رونسي.

حصلت مشاكل. المهم في النهاية قلت لأهلي أنا عاوزه اسمي يكون وداد مش رونسي.. قالوا اشمعنى وداد؟ أصل كان لي واحدة صاحبتي الروح بالروح اسمها وداد. المهم بقيت وداد. في الأوراق الرسمية رونسي مافيش غير ماما بتناديني رونسي، لما تحب تغيظني أو أكون عملت حاجة هي مش عجباها. ضحكت، وقالت: النهارده طول الوقت بتناديني برونسي وأنا بغيظها وما بردش عليها.

كان يريد أن يقول لها إنه يحس أن أمها تشك في شيء، أو أنها تخمن أن شيئاً قد حدث بينهما مساء الأمس، لكنه لم يجرؤ. هي التي خمّنت ما يدور بعقله. نظرت إليه طويلاً بعينيها التي ازدادت خضرتهما في ضوء العصر، وقالت:

- من يوم ما دخلت الجامعة وأنا لي وضعي الخاص في البيت ويمكن من قبل كده لكن ما كانش محدد. أنا برجع في شهور الصيف وبيعاملوني زي الضيفة..

ده مش مهم على الأقل بالنسبة ليك .. بالنسبة لينا.

ضحكت وربتت على يده قائلة

- إنت في حمايتي

قرأت له من كتاب قصص لافونتين.. شرحت لـه المعاني المستترة. هي معلمة جادة تريد أن تجعل تلميذها يحب اللغة التي تحبها ويكتشف أسرارها.. اكتشف راسين وموليير، وقدّمته إلى سارتر. ومثلما أوضحت له الوجودية بضوء جديد، كذلك قادته إلى معرفة جديدة بالثورة الفرنسية وبنابليون، قالت له:

- الثورة الفرنسية في بداياتها الأولى وخاصة أيام نابليون لم تأخذ معها الكنيسة في غزواتها العسكرية إلى العالم غير المسيحي وخاصة إلى الشرق، بل أحضرت معها العلم. أحضرت التنظيم والإدارة.. أحضرت علماء الآثار، وأحضرت معها المطبعةالعربية.

قالت:

- تعلّم أن تحكّم عقلك في كل ما تقرأه في الصحف التي ليست سوى أبواق دعاية التركيبة الحاكمة. فساد؟ ياعيني! شوية نسوان نام معهن الملك، ومجموعات من الصور العريانة.. طبعاً أنا ممكن أصدق الكلام ده.. بس ده مفروض ما يكنش سبب أن يثور جيش على ملك ويرميه برا البلد. ضحكا.

العلاقة بينهما تفتح له مجالات جديدة ومثيرة. هي لم تكن فقط مرشدته في الثقافة والسياسة، لكنها قادته باتجاه معرفة الجسد وأسراره. لم يكن الأمر سهلاً في البداية، فقد كان مثقّل الروح بالتابوهات.. فرغم رغبته العارمة في جسدها، إلا أن إحساسه بالخطيئة كاد أن يصيبه بالعنة ويدفعه بالتالي إلى كراهيتها. تعامله برفق، بحزم، بقسوة، وبسخرية. سخريتها كانت جارحة أحياناً.. تقول وعلى شفتيها تلك الابتسامة الساخرة:

- هذا هو الكتاب المقدس الوحيد في الأديان الثلاثة، والأديان الأخرى، الذي كتبه أشخاص مختلفون وفي مراحل زمنية مختلفة.. عندك التوراة، التي نطلق عليها اسم "العهد القديم".. أي العهد بين الله والشعب اليهودي. تاريخ دام

وقاس قسوة ذلك الزمن القديم، زمن اغتصاب الأراض تحت دعاو دينية وميثولوجية، زمن قتل الأسرى، حتى الأطفال؛ ليأتي المسيح ومعه "العهد الجديد"..

وحينما رفضه اليهود، لعنهم ولعن أورشليم، و طالب تلاميذه أن يذهبوا إلى العالم ويبشروا "الأمم"؛ أي غير اليهود. وهكذا نقل المسيح الإله اليهودي من إله خاص بقبيلة واحدة إلى رب البشر كلهم.. انظر إلى الأناجيل الأربعة.. ألا يلفت نظرك رواياتها المختلفة لواقعة واحدة؟!.. ثم إن كل "الرسل": بولس وبطرس، وغيرهما، قدما تفسيرات مختلفة لتعاليم المسيح، وإذا نظرت إلى "العهد القديم" سوف ترعبك قسوة الإله اليهودي. ورغم أن الاختلاف الوحيد للديانة اليهودية، عن غيرها من الأديان، أنها دين مغلق غير تبشيري، فإنَّ هذا الانغلاق سبب جمودها، رغم أنها أخذت الكثير من الأديان القائمة وقتها، مثلما فعلت كل الأديان التي لحقتها بعد ذلك.

أزعجه هذا كثيراً. أحس أنها تقوده إلى مناطق يهاب الدخول فيها، أو حتى مجرد التفكير فيها.

قالت له بعد جلسة الجنينة، وهو يستعد للقيام: "على فكرة فيه واحدة بنت صاحبتي، اسمها رونسيه، بالهاء مش بالياء. بتدرس معايا في قسم اللغة الفرنسي في الجامعة.. أبوها باشا من اللي صادرت الثورة أملاكهم.. هي أبوها باشا وأنا أبويا قسيس". نظرت إليه عابثة بعينيها الخضراوين، وقال: "تمام زي ما في واحدة تاني اسمها وداد.. البنت اللي قلت لك عليها". انتابه إحساس غريب بأنها تدخله عامدة إلى متاهة ملغزة. تبتسم له وهي تسوي شعره وتهندم نفسها. يلتقيان الآن كثيراً في غرفتها.. خاصة في المساء، حينما يخرج والداها إلى مهامهما الكنسية في زيارات الأعضاء من الكنيسة. والدها تقبَّل وجوده في المنزل عن طيب خاطر، أما والدتها فكانت تقابله بذلك الأدب البارد وكان هو يتحاشاها. أهله لم يرحبوا بزياراته لبيت القسيس الذي يعتبرونه أقل منهم في المستوى الاجتماعي، وخاصة أخته التي كانت تحب أن تذهب كثيراً إلى نادي الري، وتطلب منه مرافقتها حسب

تقاليد البلدة الصغيرة التي لا تحبذ للبنات أن يذهبن بمفردهن للنادي. لم يكن هو يحب النادي وجوه الكئيب المتحفظ.. تُعيِّره أخته بعلاقته (الغامضة بالنسبة لها وللأسرة) ببنت القسيس. يتشاحنان وتفصل بينهما الأم، حيث أن الأب الآن في فراش مرضه وقد سَلَّم شئون الأسرة للأم. الإجازة الصيفية في طريقها للانتهاء الآن وسوف يذهبون جميعاً إلى العاصمة. إخوته إلى كلياتهم وهو إلى سنته الأولى في الجامعة. رونسي أيضاً، ستغادر البلدة إلى العاصمة حيث تسكن في بيت الطالبات (فقد رفضت أن تقيم مع أقاربها) وتقوم بإعطاء بعض الدروس الخاصة، في اللغة الفرنسية، لكي تستعين على مصاريف الإقامة المستقلة، فمرتب القسيس البسيط لا يكفي. هو لا يعلم كيف سيواصل حياته الجديدة في العاصمة، بالطبع سيعيش مع إخوته في الشقة الكبيرة التي يستأجرونها بالقرب من الجامعة.. لكن الأم أفصحت عن قلقها المشروع والعملي، أن مرض الأب قد قلَّص من مرتبه وبالتالي من إمكانيات الانفاق على الجميع؛ خاصة أن الدواء ومصاريف الأطباء يلتهمان جزءاً كبيراً من المرتب. في اجتماعات الأسرة المسائية لمناقشة هذه المشكلة الطارئة. ساد جو غير معلن بأن ثمة تضحية قد أصبحت مطلوبة بل وضرورية. التضحية، أن يترك أحد الأولاد حلم الالتحاق بالجامعة ويبحث لنفسه عن عمل. قيل في تبرير هذه التضحية بأنها ستكون مؤقته - بالطبع - حتى ينهي الابن الأكبر دراسته في كلية الطب، والتي بقي عليها سنتان، ثم يقوم هو بالانفاق على من يواصل التعليم، وخاصة على من ضحى. الأعين الصامتة تشير إليه، والمنطق غير المعلن يقول إن بقية الأخوة قد انتظموا في دراستهم الجامعية وبالتالي، من الصعب قطعها، ومن الخسارة إنهائها قبل أن تكتمل، أما هو؟! فما زال على البر. حاول أن يتجاهل الرسائلِ الصامتة، التي كانت ترسلها أعين إخوته وأمه لكنه لم يستطع الصمود طويلاً. عزى نفسه بأنه سيحل محل أبيه، وسيكون مصدر سعادة إخوته (الذين لم يحبهم بشكل خاص، ولم يبادلوه الحب بشكل خاص أيضاً) وسيصبح رجلاً وسيكون عنده دخله الخاص. بسرعة بدأت ترتيبات البحث عن عمل له في العاصمة. سافر الأخ الكبير مع الأم ليتوسطا له عند أحد أقاربهما

البعيدين، يمتلك صيدلية كبيرة في وسط المدينة لكي يتيح له فرصة العمل عنده.

طوال هذا الوقت، لم يخبر رونسي بشيء مما يدور داخل الأسرة (بدافع حقيقي من الخجل لكشف فقرهم، وبدافع مظهري بأن ما يدور داخل الأسرة هي أسرار خاصة ليس من حق رونسي الاطلاع عليها). لكنها اكتشفت ما حدث بواسط صديقة مشتركة لأخته. تحاشى لقاءها في الفترة الأخيرة، وانطوى على نفسه، يحس بالغبن ولا يستطيع مواجهة أحد، بل إنه لام، في سره، والده الذي أقعده المرض عن مواصلة "مسؤولياته" المالية تجاه أسرته، وبالتالي لكل ما يحدث له الآن. تحاول رونسي أن تلتقي به، لكنه يتهرب منها.. كذلك تخلّف عن مدرسة الأحد دون تقديم عذر. يقبع في البيت ينتظر موعد سفره للعاصمة بعد أن أفلحت الأم في إيجاد عمل له في الصيدلية (لم يقل له أحد بأن عمله سيكون تنظيف الصيدلية كل يوم، ووضع نفسه تحت تصرف صاحبها، خلال ساعات العمل غير المحددة، في القيام بالمشاوير التي يطلبها منه وعمل الشاي والقهوة له ولضيوفه من الزبائن الدائمين). هو أيضاً لم يسأل، نتيجة لعدم خبرته، ولخوفه من اكتشاف الحقيقة.

ذات صباح فوجىء برونسي في بيتهم. كان يجلس في الصالة القريبة من الباب الخارجي حينما خبطت هي الباب بيدها وفتحت أمه التي كانت قريبة من الباب. سمع صوتها قبل أن يراها، فارتجف جسده كله. حاول الهرب، لكنها لمحته من وراء ظهر الأم. أقبلت عليه منحية الأم جانباً برقة، لكن بحزم. لا يزال هو في مكانه بجلباب البيت الحائل اللون. وجهها الأسمر تبرق فيه العينان الخضراوان بغضب. وقفت أمامه، وقفت الأم بالقرب من الباب المفتوح، وقد سمّرتها المفاجأة (فلم يقتحمه أحد من قبل بهذ الشكل). قالت رونسي:

– قوم إلبس هدومك.. أنا عاوزاك.

قام كالمنوم وهو يتحاشى النظر إلى أمه. دخل إلى الغرفة التي ينام فيها مع إخوته الصبيان، وسحب بنطلونه وقميصه من فوق المسمار المثبت في الحائط. أرهف أذنه يستمع إلى الحوار الخافت الذي يدور الآن بين رونسي والأم. كان

يحس (دون أن يسمع بوضوح) بالكلمات اللاهثة السريعة من فم الأم كأنها تُبرِّر شيئاً، وبصوت رونسي المألوف النبرات، لكن غير الواضح. أسرع بارتداء ثيابه، فقد كان لا يريد لهما البقاء طويلاً بمفردهما (كان يخاف أن تهينها أمه، أو أن رونسي تقول لها عن علاقتهما). أتى مسرعاً إليهما. قالت الأم تحاول أن تسيطر على الموقف:

- طيب مش تتفضلي تشربي حاجة ساقعة بعد المشوار ده.

تنظر إليه متوقعة أن يدعم موقفها. لكن رونسي قالت بابتسامتها إياها:

- أنا عازماه على آيس كريم في النادي احتفالاً بالوظيفة الجديدة.

فغرت الأم فاها بينما نظر هو إلى رونسي مندهشاً، لقد انكشف السر إذن. أحس براحة غريبة تحل محل غضبه وخجله ورعبه. الباب لا يزال مفتوحاً وضوء النهار الصيفي القاسي يغمر الشارع المترب الذي يتصاعد ترابه في ضوء الشمس. تقدمته رونسي، ووقفت في فتحة الباب كأنها تريد أن تقول شيئاً. انسكب الضوء عليها. تقف الآن وقد استدارت بصدرها ورقبتها تجاهه. عيناها كانتا تحثانه على الخروج. لم تكن غاضبة الآن. في عينيها أسى غريب لم يلمحه من قبل.

اكتشف أيضاً في، اللحظة التالية أنها ترتدي ولأول مرة - له على الأقل - فستاناً. الفستان، كان، بل وأصبح موضوعاً للتندر بينهما، كان يقول لها "نفسي أشوفك في فستان زي البنات". فتسأله جادة "ليه يعني؟" فيقول لها متصنعاً الجدية "علشان أتأكد من إنك بنت"... الفستان، صيفي واسع، قطني، خفيف، مطبوع عليه أزهار جريئة، وتقويرة الصدر الدكولتيه تكشف عن منبت الثديين، يلمهما الفستان بين زهرتين كبيرتين. الساقان السمراوان، يلمح زغبهما الخفيف في الضوء الذي يُعَرِّي بياض القدمين (ياما دفن وجهه فيهما يقبلهما) في الصندل الجلدي البني اللون سارا في صمت حتى وصلا إلى النادي (لم يصدق هو حكاية النادي في البداية لمعرفته بمقتها له). اختارت مائدة بعيدة تحت شجرة كبيرة.. تقدم منهما الجارسون العجوز بحذر، يجر ساقيه على الأرض المعشبة. المكان شبه خالي في هذه الساعة من الصبحية. قالت هامسة:

- أطلب لي قهوة وشوف إنت عاوز أيه.

أخرجت علبة سجائرها (كانت تدخن أمام والديها وكان هو يدخن سراً). قدمت له سيجارة، وأعطته الولاعة الصغيرة ليشعل لها سيجارتها.

مالت برأسها ناحيته مادة يدها ممسكة على معصمه المرتعش الممدود بالولاعة تجاهها. قالت دون أن تنظر إليه وهي ما زالت ممسكة بمعصمه:

- عارف؟

نظر إليها ثم استدار بوجهه بعيداً عنها ينظر إلى الأشياء نفسها دون أن تراها عيناه. يداري غصة في حلقه. قال بعد أن تمكن من تمالك صوته:

- أيوه عارف. عرفت دلوقتي.. عرفت بس دلوقتي

قالت هي:

وأنا كمان. عرفت دلوقتي. قصدي عرفت لما شفتك في البيت من شويه بالجلابية. هذه المعرفة التي لم يفصحا لبعضهما عن كنهها، كانت واضحة تماماً لهما الآن. وسوف يحافظان على ذلك الإحساس المدهش النادر الذي يحسه الناس (بعض الناس) حينما يكتشفوا وقوعهم في الحب في لحظة غريبة وغبية بعض الشيء ؛ فيصبحوا مثل بقية البشر العاديين.

الكتابة على الحائط -١

"حينما أسترجع ما أتذكره، أو أحاول أن أتذكره من السنوات الخمسين.. أي منذ كنت في حوالي السابعة أو الثامنة، وحتى الآن، وأنا أقترب من الستين؛ اكتشف مندهشاً أن كل الناس الذين عرفتهم - وما زلت أعرفهم - حتى الآن هم أُناس وحيدين. وحيدون حتى لو كانوا متزوجين أو متزوجات. بنات، كنت أعرفهن منذ الطفولة والصبا بقين وحيدات، أو تزوجن وظللن وحيدات أيضاً، رغم زواجهن...

"خذ عندك مثلاً، رفيقات، ورفاق طفولتي وصباي في السودان. في كل مرة أرجع فيها إلى السودان يتملكني يقين بأني سأجدهم كما تركتهم أول مرة. وهذا ما حدث بالفعل (إذا تجاهلنا أفاعيل الطبيعة علي ملامح الوجه والجسد).. أتخيل أن أجدهم دائماً مرحات (ومرحين).

ذلك المرح الطفولي، الذي يمتزج بسخرية العوانس، وتجربة المراهقات في الجنس المختلس؛ نساء ورجال، في منتصف العمر ينظرون إلى الحياة كما ينظرون في المرآة؛ يشاهدون صورهم فيها بشيء من الحياد والتقزز والعطف. "رونسي، وداد، رونسيه، ميشا، لمياء، يمامة، بربارا، إسماعيل، صبحي، مسيحة، صموئيل، وعشرات غيرهن، وغيرهم، ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن؛ زوجات ومطلقات وعوانس، أزواج وعزاّب وأرامل، محامون وقضاة، نصابون وصحفيون، لصوص وكُتّاب، أطباء وتجار، قساوسة وملحدون، أشرار وطيبون.. إلى آخر الحدوتة. هل الطيور على أشكالها تقع، أم أن الحال من بعضه، لكن البعض يلتحف داخل متاريسه ويرفض الاعتراف والبوح! "ما الذي جعلني أفتح الكتابة بحكاية الوحدة؟ هل لأني الآن أعيشها في اكتمالها إن جاز التعبير. أو أن الخمسيني – الستيني من البشر (أمثالي) وهم ينحدرون التل سريعاً يحملون معهم فيتاميناتهم، وأدوية ضغط الدم، وذكرياتهم، وإحباطاتهم؛ يتوقفون بين وقت وآخر ليأخذوا نَفَسهم؟ "من أي مكان يبدأ الواحد؛ من تلك العلامات الفارقة في حياته؟

"أسترجع الآن ذكريات تجنيدي.." رونسي رمت البذرة الأولى، في الحديقة الصغيرة الملحقة ببيت القسيس. في العشة التي كنّا نُمَارس فيها اكتشاف الجسد في الحقل. بداية الوعي – عندي – بالعالم بدأ من الوعي بالجسد. ثم العمل في الصيدلية؛ كنس الأرض ومسحها وصنع القهوة والشاي وإحساس الواحد بأن الآخرين، وخاصة صاحب العمل، يعيشون على راحتهم بين أهلهم، داخل بيوتهم المريحة تحيط بهم دواليب ثيابهم النظيفة والمكوية، وسرائر نومهم المريحة، ورائحة الطعام المنبعثة على الدوام من مطابخهم.

"ألتقي نبيل من مجموعة السودان التي رافقتني، أو رافقتها في رحلة الحياة". يسبقني بعامين دراسيين وإن كان يقاربني في العمر (فقد تخلَّفت في المدرسة الثانوية مرتين)، أزوره في شقتهم المريحة الكبيرة. يكتشف ولعي بالقراءة، وتعذر شراء الكتب لفلسي.

يمدني بالكتب؛ معظمها لتشيخوف ومكسيم جوركي. يناقشني في الدين والاشتراكية والماركسية والثورة والعدل الاجتماعي. أستمع بشك إليه وأنا أجلس في غرفته الأنيقة، التهم سندوتشات الفراخ واحتسي كميات مهولة من الكركديه.

"وهكذا أنضم إلى تنظيم ماركسي صغير وأنا في السابعة عشر من عمري. أحس بالتفوق على صاحب الصيدلية، الذي يغلقها أيام الآحاد ليذهب يتناول "أفيونه" في الكنيسة. هو عضو بارز فيها. أحس بتفوقي على رونسي؛ فهي مجرد نيهليست؛ خطرة وطوباوية ومشوّشة؛ وهي تسخر مني ومن تنظيمي وتقول إني أريد استبدال ديكتاتورية طبقة بطبقة أخرى، بينما هي تريد إلغاء كل الطبقات والحكومات.

"بالطبع أشعر بالتفوق على أسرتي. أسرة برجوازية صغيرة متعفنة ومتسلقة وانتهازية (ألست أنا ضحيتهم؟)". اجتماعات تترك الواحد دائخاً وشبه مخدر. ففي الغرف الصغيرة السيئة التهوية (في بيوت الرفاق الفقراء) ينقسم العالم إلى معسكرين. الرأسمالي والاشتراكي، الأشرار والطيبون، الحرامية والشجيع. ومثلما تنتهي الأفلام والروايات بهزيمة الشر وبانتصار الشجيع؛ فسوف ينتهي العالم بانهيار الرأسمالية وانتصار الاشتراكية. هذا هو منطق الأشياء. منطق العمل السري وانتحال اسم حركي واعتبار "الآخر" - ما دام ليس عضواً أو حليفاً أو عاطفاً – عدواً، يتم التعامل معه من هذا المنطق. "ثم الاعتقال، والمحاكمة العسكرية (وهو تقليد ما زال سائداً ضد المناوئين السياسيين يستخدمه العسكر).. والسجن.

"لحظات – تستمر أياماً وشهوراً – يفكر الواحد أيامها بالرغبة في الفككان. يتساءل الواحد مدهوشاً من غبائه أو حماقته (أوكليهما) إذا كان قد صارع ونجح

في الفككان من العائلة ونواميسها، فلماذا يقبل عن طيب خاطر بأن يسلّم رقبته للخية من جديد؟ خية التنظيم "العائلة" الجديدة التي يجد نفسه مضطراً للتعامل معها. هذا يظهر في السجن بشكل جلي. ففي المساحة الضيقة من المكان واللانهائية من الزمن البطيء؛ نصطدم ببعضنا بتلك الحتمية المفترضة في وضع كهذا. ومع الاصطدام تتم الاكتشافات المؤلمة، التي تصاحبها المرارة.ثم الإحباط بأنك مهما "اكتشفت"، فسوف تظل تراوح مكانك؛ فهذا هو قانون السجن. من حقك أن تغيرّ تنظيمك، ورفاقك. ليس من حقك أن تترك نهائياً؛ لأنك بهذا ستضع نفسك في المكان الذي رفضته من قبل، متحملاً الضرب والتعذيب.

"تظل تراوح مكانك؛ تماماً كما تراوح مكانك في العلاقة مع رونسي؛ أنت تعلم – في كل مرة – أن الوهج قد انتهى. لا جديد ولا إثارة في الاكتشاف الجسدي والنفسي. تتحول المتعة إلى واجب. مثل أيام المدرسة. عليك أن تحل "الواجب"، حينئذ مسموح لك بـ "اللعب".

"وكانت رونسيه هي اللعب. متى بدأ اللعب؟" أعتقد أنه بدأ منذ اكتشافي لقوتي وأنا أتعامل معهما. اكتشافي لحاجة رونسي إليّ، تتضاعف في الوقت الذي يقل فيه احتياجي لها. عندما اكتشفت، أني استطيع أن أمد أجنحتي وأقتنص رونسيه: تحول الجنس عند رونسي، إلى غطاء لاعتمادها العاطفي عليّ.الجوع الجسدي الذي سيطر في البداية على تصرفاتنا – بقيادتها- تحول إلى أسئلة ملحاحة مختلطة بالدموع؛ "بتحبني؟ "، تلاحقني بالاستجوابات الدقيقة والذكية عمن ألتقي، وماذا أفعل مع رونسيه وهل هي أحلى منها، مع أن رونسيه تقبلّت العلاقة مع الأخرى كشيء مسلّم به. "مازلت أذكر الملابس التي أرتدتها رونسيه، أول مرة. البلوفر الصوفي الرقيق بلون القهوة باللبن وعليه ندف ثلجية بيضاء بغير انتظام يعطي صدرها استدارة النضوج. ساقان قويتان سمراوان وطويلتان داخل جورب نايلون من لون الجلد، أكثر شحوباً من لون البشرة، يبرز السمانة الملفوفة الموضوعة فوق الركبة الأخرى، يحيط بهما تايور من الصوف بلون العسل الذهبي محبوك على الفخذين، ويحكم اهتزازة الردف، حينما مشت

بطريقتها الرياضية، إلى التواليت. ردفان صلبان كاملا الاستدارة، مثل ردفي يمامة التي حينما رأيت ردفيها لأول مرة في بغداد. بعد سنوات. أحسست بالغصة؛ فقد ذكرتني بها وبهـما.. وجهها بيضـاوي.. الأنف واسع.الشفتان تحوطانه وتعـمقّان الحسية، تتناغـمان مع العينين اللذين يمتزج سوادهما بكحل الرمـوش. "التفاصيل الصغـيرة وحـتى التافـهة لتلك العـصرية، أراها الآن بـوضوح. أكاد اشم رائـحة البرفان الذي يحيط بالبنتين، رغم أنهما تستخدمان نوعين مختلفين. لون الشمس في المغـربية، وطعم البيرة. تفاصيل كثيـرة تغيب عني الآن رغم أنها حديثة. لعبة الذاكرة الانتقائية.

"هذه الأمسيـة، وما تلاها، لعبت دوراً مهماً في حياتي، لم أتبينه إلا مـؤخراً. فمـثلاً كانت أول مـرة أجلس فيهـا إلى بنت من الطبقة "الراقـية"، كـمـا كـانت الصحف قبل الثورة تطلق عليهـا.. أو الطبقة الاقطاعية، أو الرأسماليـة المستغلة؛ كما تطلـق عليها الأدبيات الماركسـية. أحاول أن أتغلب على إحسـاس بالدونية، مـوروث من أسلافي الفـلاحين، الذين عمل بعضهم بالتأكـيد، أجراء في حقول هذه الطبقة. أحتسي البيرة وأتظارف، فتضحك البنت من قلبها وتنظر إليّ رونسي معجبة وتخالس النظر إلى صاحبتها، كأنها ترسل لها إشارة سرية ما معناه: مش قلتلك إنه هايل؟. أنطلق أنا على راحتي كرد فعل لاستخذائي الخفي.

"حينمـا اختلست النظر إلى ردفيـها وهي متـجهة إلى التـواليت، قلت لنفسي لازم أشوفهـا عريانة. رونسي اللماحة قرأت أفكاري كـعادتها، فنظرت إليّ بتلك النظرة التي نظرتها أنا، بعد ذلك بسنوات طويلة، حينما اشتريت أول لعبة لابني. وقفت مرتبكاً أنظر إليه وانتظر حكمه. رونسي تريد أن تسترجعني مرة اخرى وأنا أنزلق منهـا بعيـداً. أحسـست أنا بالغضـب من نفسي وعلى رونسي. الحـال التي أوصلت رونسي إليها؛ رونسي الشامخة، القائدة، لكني كنت أفر دون أن أتحكم في نفـسي، مبـتعداً عنها بعـد أن مللت منها. "بعد ذلـك بسنوات طويلة وعيت الدرس. أن أتظاهر بالاهتـمام. أن أضاجـع "امرأتي" حـتى لو لم أحس بالرغبـة. خاصة مـا إذا كانت "امرأتي" لا تزال تنتظر مني شيـئاً، ولم يخطر في بالهـا إنها

خلاص شطبّت. "لم أستطع أن أستجمع شجاعتي (أو أنفض جبني) لأنهي أية علاقة. كنت أترك لهن امتياز إنهاء العلاقة.. أو على الأقل الإحساس الكاذب بها. أعلم ماذا يعني الإحساس بالرفض وخاصة حينما يكون الواحد مش على باله.

* * *

ما الذي جعل البواب المعرض يهف الآن على ذاكرتي؟ رونسيه حذّرتني منه. قالت إنه حرامي. ما باشلش حاجة مهمة في الشقة. دخل في الموضوع على طول:

– سعادة البيه متزوج؟

– "أيوه.ليه؟" كنت أعرف السؤال التالي. لماذا لا تعيش المدام مع سعادة البيه. أقول له "أصلها مسافرة. حاتيجي قريّب". أخذت أنا المبادرة وسألته، إن كان من الصعيد. أجاب بالإيجاب. قلت له "وأنا كمان" لم يهتم بصلة "القربى" هذه. سألني:

"مش عاوز واحدة تنضفلك الشقة؟" في الحقيقة كنت محتاج لواحدة تنظف الشقة. تشتري الخضار، السجائر والجرائد. أحضر لي في اليوم التالي "واحدة". من الوهلة الأولى عرفت أنها لم تأت للتنظيف. استعبطت. أعطيته بعض النقود ليشتري أدوات تنظيف. نظر إليّ بدهشة. خرج ليشتري الحاجات. لعله اعتقد إني لم أفهم. تجولت هي في الشقة بخجل في بادىء الأمر. جلست أنا على المكتب، أتظاهر بالقراءة. جسمها موش بطآل. نوع جديد من النساء البلدي اللاتي يحترفن الدعارة على الضيق. هي جارته في العزبة العشوائية في الجانب الآخر من النيل. ترتدي ثوباً أسود سابغاً مشغول بالخرز الملون. سمينة. صبوحة الوجه. العينان متكحلة بالكحل الأسود. الحاجبان منتوفان بالملقاط. أحمر خفيف على الشفاه الغليظة. سنّة ذهبية أمامية. شبشب بلاستيكي في القدمين المفرطحتين (خلعته حينما دخلَت الشقة) وطرحة سوداء (بالترتر أيضاً) خلعتها فبان شعرها الأسود

الفاحم الأكرت بعض الشيء. طلبت منها ان تعمل لنا شاياً.

جاء البواب بالحاجات. عزمته هي على شاي، قامت لتحضر له كوباية. تتصرف كأنها ست البيت. أراقب الموقف باستمتاع. سألني هامساً وهي في المطبخ "إيه رأي سعادة البيه؟" كان يريد أن أبدي له إعجابي، وأثني على ذوقه، خاصة وأنه أكد أنه يعرفها من "البلد" (هكذا يطلق كلاهما على العزبة) وأنها متزوجة.. ثم استدرك ضاحكاً وقال "كانت يعني" قلت له هامساً أيضاً "كبيرة وتخينة" بان عليه الخوف. هل لن أعطيه "حسنته"؟ رجعت هي ومعها الكوب. كلاهما يجلسان على السجادة، من باب الاحترام، وخوفاً أن ينقلب الموقف ضدهما؛ فهذه أول تجربة لنا جميعاً مع بعضنا. شفط الشاي في جرعات سريعة وهو يوحوح، وقبل السيجارة التي عزمت بها عليه. وهي أيضاً. قام متعجلاً ينفض جلبابه وهو يقول "لو عزت حاجة سعادتك، إندهلي من بير السلم، أنا تحت". وهرول خارجاً قبل أن يتطور الموقف عكس ما خطط له.ناديت عليها.جاءت مبتسمة وقد بانت السنة الذهبية تلمع.

لمحّت لها، إني "تعبان شوية". اختفت الابتسامة ساحبة معها السنة الذهبية. استدركت وأنا أمد يدى إلى جيبي قائلاً: "حقك محفوظ".

قررت هي أن تتصرف بشهامة قائلة: "ما يهمكش.. لو ما فيش خالص موش مشكلة". أعجبني هذا منها. رغم الفقر الواضح عليها، ما زالت عندها كبرياؤها الخاصة، حتى لو كانت تتظاهر به. جانب وجهها يسقط عليه الضوء الحار من الشرفة. بدت كأنهاخرجت من لوحة "بنات بحري".. استبوخت نفسي. قمت، وحضنتها، ونزعت الطرحة. هي محتارة من هذا الأفندي المتقلب المزاج. لم تكن رائحتها مقززة كما تخيلت؛ لكنني قررت أن أستخدم "سلطاتي"، لهذا قلت لها "إيه رأيك تطبخي لنا لقمة، ناكل عيش ولحمة مع بعض، وبعدين نشوف". أحب أن أستظرف أحياناً! كركرت هي مبسوطة، وارتاح جسدها المشدود..

دخلت الحمام آخذ الدش الصباحي. حينما انتهيت، ناديت عليها أن تحضر لي الفوطة. جففت لي جسدي بدقة. قالت "كان لازم تناديلي أدعك لك

ضهرك". قلت لها وأنا أدلف إلى غرفة النوم "المرة الجاية"..

أذكر أني ذهلت، في المرة الأولى، حينمـا نمت مع رونسيه، على الأرض في جناح الطباخ في قصر عمتها بالزمالك، ذهلت مما اعتبرته أنا، أيامها "قلة أدب". كنت أعتبر أن البنات "مؤدبات، ومتربيات".. فما بالك بطالبات مدرسة الراهبات. الغريب إنها في الأحوال العادية، هي بنت تتمسك "بقواعد اللياقة والأصول" بعدين عرفت، مدى تفاهة، آرائي، في هذا المجال، وبعدها الفظيع عن الواقع الحي.

شيء آخر يميزها: تريد أن تغادر فوراً. ترتدي ثيابها وتغلق صفحة. بالتدريج، أثناء العلاقة عرفت هي كيف تتحكم في قرفها. أن لاتظهره على الأقل، لكنها تظل فترة ساهمة، ترفض الاقتراب منها أو حتى مخاطبتها.

أحكي عن رونسيه: انتظرتها في الموعد ولم تحضر. كنت أستعد لامتحان التيرم في الجامعة. قلت بركة يا باسط. رجعت البيت أذاكر.

في اليوم التاني عملت تليفون على بيتها بحجة إنه فيه حاجات خاصة بالفيللا، أريد مناقشتها معها. رد عليّ أبوها (كنت قد رأيته مرات قليلة حينما جاء يتفقدني، متحججاً بتفقد الفيللا). لا نحب بعضنا. احتفظ هو بتلك المسافة، التي يحتفظ بها، المحسنون، مع اليتامى في الملجأ.

قال لي (بتشفي) إنها سافرت امبارح عند عمتها في باريس. سألني قبل أن أقول شيئاً؛ إذا كنت قد وجدت مكاناً (حسب تعبيره) انتقل إليه. فهمت الرسالة. كذبت وقلت؛ طبعاً، خلال أسبوع. قبل أن ينهي المكالمة، قال يعني إمتى بالتحديد؟. حددت له موعداً لكي يأتي ويتسلم المفاتيح.

أتذكر أني جلست في الجنينة التي أعدت الخضرة إليها، أحاول أن أستوعب ما حدث لي. هل يكذب؟ لماذا إذا كان يعرف أن كذبته ستنكشف؟ خصوصاً طلبه أن أترك الفيللا. لا يستطيع أن يفعل هذا، إذا كانت رونسيه موجودة. تنبهت، أنه يجب عليّ البحث فوراً عن مكان. في لحظة ملهمة قررت أن أعتذر عن دخول الامتحان. أن أترك القاهرة. أواجه أهلي. أن أتخذ منهم موقفاً نهائياً.

اتصلت برونسي. حكيت لها ما حدث. غضبت جداً من "أولاد الكلب". وأيدتني في قرار العودة. قالت إنها ستلتحق بي بعد انتهاء الامتحانات. وقد كان.

اكتشفت أن أهلي كانوا يسعون للانتقال إلى القاهرة (عرفت بالصدفة طبعاً كالعادة) وبالتالي سوف تنحل تلقائياً مشكلة السكن. أعلنت أمي بوضوح وساندها في ذلك أخي الأكبر (الباقون كانوا غير مهتمين) بأنهم على استعداد لتقديم "لقمة وسكن" حسب تعبيرهما؛ أما مصاريف الجامعة، وبقية مصاريفي الأخرى من ملابس وخلافه، فهذه مسؤوليتي. وافقت.

أكدت لي رونسي، بعد ذلك، حينما التقينا، سفر رونسيه المفاجيء. تناقشنا، في الاتفاق بيني وبين أهلي. آزرتني. أحسست أن العلاقة بيننا تعود أقوى مما كانت.

وحينما التقيت رونسيه بعد ذلك في باريس، قالت لي إنها مذهولة من موقفي منها، بعد كل هذه السنوات. أنا أيضاً كنت مندهشاً من عدم إحساسي بالغضب عليها، ولا حتى بالمرارة. أحسست بالرضا عن نفسي؛ فها أنا أتخلى عن حزازاتي القديمة، وإحساسي المزعج بالرثاء لنفسي، فاتحاً سكة المصالحة مع نفسي ومع الآخرين. لعلها هي أيضاً فهمت هذا واقتنعت به. لهذا قالت لي على البنت؛ بنتي. بنتنا؛ وداد.

رونسي ـــ ١

بتاعة الخدامين. بنت الأكابر الواطية. إيه إللي حصل للنسوان؟ جاتللي بدموع التماسيح.. مش عارفه بعمل كده ليه يا وداد. بتناديني باسم وداد لما تكون عاوزة تعمل نفسها مسكينة، وتخليني أعطف عليها. ومن غير ما تقول، مانا عارفه، وعرفت اللي عملته الهانم. أنا كرسي اعترافها. من أيام ما كان عمرها خمستاشر سنة في الميرِ دى دييه. موش سواق واحد بس . سلسلة طويلة من السواقين والخدامين والجناينيه. أنا غلطت مرة وقلت لها على

الجنايني بتاعي. لكن ده جنايني واحد بس. هي كانت فاتحه على البحري. عمرها ما قالت لأ. بالعكس هي اللي بتروح لهم برجليها وبالتحديد، على ركبها.. وضعها المفضّل. في الأول خدنا الموضوع على أساس إنه لعب وهزار. وماله؟ البنت فايره وجسمها بينغبش عليها. الدوده بتاكلها. ده موش تعبيري أنا. عمتها لما قفشتها أول مره والمرات اللي بعدها؛ كانت تقولها الدوده بتاكلك. هي اللي قالتلي. تقوم تلوف على الواد بتاعي. بيني وبينك مالوش ذنب. ذنبه إيه.. واحده بتفتح له رجليها. والأكاده وهي بتنهنه. أنا عرفتّهم ببعض وعامله حسابي. متخيلاه السيناريو إللي حايحصل. سبتلهم الجو. رحت البلد، بكذبة إن ماما عيانه. رجعت لقيت وشه في الأرض. مش قادر يحط عينه في عيني. مالك يا واد؟ نطيت عليها؟ أمال بطلت تنط عليّ ليه؟ شبعت يا جعان؟ طول عمرك فجعان. بس برضه يا ناصح، البنت حطتك في أودة الخدامين. عمرها ما حتخليك تنط عليها في بيتها وللا في الجارسونيره إللي في مصر الجديده.. يا دوبك في أودة الخدامين. من ساعة ما كنّا في الكافيتيريا، وعمالين يبعتوا إشارات لبعض. قامت تهز وسطها وتلعّب مؤخرتها. الواد عينيه حاتطلع من وشه. يا خسارة تربيتي فيك يا حيوان. قلت يا بت سيبيه يلغوص زي ما لغوص غيره فيها. إجهاض مرتين على إيدي أنا. إلحقيني يا وداد. ألحقها عند الدكتور قريب ماما. تقوم بعد العملية زي الفرسه. المره دي قلتلها خديه يمكن ينفعك. إتلم المتعوس على خايب الرجا. بيني وبينك، كده أحسن لي. زهقت من دور الأم والحبيبه والعشيقة والأستاذه. راح ينضم لتنظيم. أهو ده الشيء الوحيد إللي يتناسب مع مواهبه وقدراته. ياخد أوامر وينفذها. عبد في سلسله.

فاكر إنه يقدر يضحك عليّ. يسرح بيّ. عاجناه وخابزاه. قال إيه.. قال البنت متمرده على طبقتها. عجينه كويسه. محتاجين ناس أغنيا في التنظيم. من طبقتها. حاخليها تقرا. أطورها. أجندّها. قلتله حاجة واحده أنا متأكده منها؛ حكاية العجينه دي. هي تحب الناس تعجنها.. رجاله وستات. عمل نفسه مشمئز. قلتلها

طول عمرك بتاخدي حاجة غيرك. ما تفرقيش عن الحكومة لما خدت حاجتكم. وموش حاتكوني الحلقة الأخيرة في السلسلة. بتقولي إن إحنا أصحاب؟ طيب وماله؟ حنفضل صحاب على طول لأن اللي بيربط بينّا، موش مجرد تشابه في الأسماء والحروف.. إللي بيربط بينا واد عيل بينط علينا. المضحك مش قلة رجاله، أو حتى حب. إللي يخوّف، حاجة تانيه؛ الإدمان. أنا أدمنته. هو حايدمنك. وإنتي بتدمني النط.
الندله خبت عليّ بنتها. زعلت منها بجد. لكن سامحتها .زي ما سامحته برضه. أنا بالنسبه لهم، العاقلة والفاهمة والصابره. ما بيعرفوش إني بهري من جوا. غلاويه زي أي واحده بيتاخد منها الواد بتاعها وهي لسه ما خلصتّش منه. عملت البدع لحد ما رجع لي من تاني. هربت هي بندالتها المعتادة. بعدين عرفت السر. حافظت عليها وعلى سرها. لكن حكاية البنت هي إللي حزّت فيّ. كان نفسي أخلّف، وعلشان كده اتجوزت الحيوان جوزي. لكن لما عرفت أنه ما فيش فايده، سيبته. الواحد لما يركب مواصلة غلط، ليه يكمّل.

* * *

رونسيه ـــ ١

تذكر رونسيه علاقتها الحميمة بأبيها.. الأم مشغولة دائماً بنشاطها الاجتماعي، وخياطتها، وناديها.. هذا النشاط الذي تقلص في سنواتها الأخيرة، إلى الذهاب فقط إلى الكنيسة، أوالبقاء ساعات طويلة ساهمة تحدق من النافذة، في الشقة التي طردوهم إليها. أهملت خياطتها، وقاطعت ناديها، وقلصّت حياتها الاجتماعية على رحلات منهكة، إلى الأديرة الصحراوية البعيدة. وهكذا وجدت رونسيه نفسها في صحبة دائمةٍ مع أبيها، في الحقيقة رحبت بذلك في عقلها الصغير.. عقل الفتاة المراهقة (فصحبة أمها كانت تصيبها بالتوتر وتتمنى إنهائها

بسرعة) والدها يناقشها في كل شيء.. في العدل الإلهي، وفي الوضع الطبقي.. في النظام العسكري، وفي فكرة الديموقراطية. فتح الباب أمامها، لكي تسأله الأسئلة المحيرّة، التي كان من المفروض أن تسألها لأمها، لو أن العلاقة بينهما تسير في المجرى الطبيعي بين أم وابنتها.

حينما أبلغوها بمقتل والديها في حادث السيارة، أحست رونسيه بمشاعر متباينة: الحزن الحارق على والدها، والأسى الخفيف على والدتها. الخجل من إحساسها تجاه والدتها. لم تستطع لحظتها - وحتى الآن - أن تساوي في فجيعتها بينهما.

* * *

عارية على السجادة الشيرازي، وهو متربع على السرير يدخن من سجائري. (في المرة الثانية، في جناح الطباخ، أو لعلها الثالثة؟) جعلني أنضو ملابسي بنفسي، بينما تمدد هو بثيابه لا يزال، على السرير، وفوق الملاءة التي اشتريتها له، وفرشتها بنفسي. يدخن، وشعور باللامبالاه.. (هل كان متوتراً؟) يلفه. أشار بيده التي تحمل السيجارة المشتعلة، إلى ثديي. قال لي:

- "عاوز أسمع صوتك"

- "أيوه"

- " وفين كمان؟ هنا؟"

(لا يزال يشير باليد التي تحمل السيجارة. يشير إلى ردفيها)

- "عايزه؟" يشير بعينيه، إلى صدرها.

ينزل بيده، ببطء إلى بطنها، يتحسسها، يمسدها. يده الأخرى تقرّب كأس البراندي إلى شفتيه. تسمع نبرة ساخرة في صوته (تجيب):

- "أيوه"

سألها :

- "كمان"؟

- "كمان"

* * *

- عاوزاك في كل حته..

(علمّها شيئاً جديداً عليها. علمّها أن تجيب على أسئلته هو)

ــ " بعمل إيه دلوقتي"؟

في البداية لم تفهم ونظرت إليه متسائلة. أحست بنفاد صبره المفاجيء. سألته:

ــ " أجاوب أقول إيه"؟

ــ "ياهانم قوللي بعمل فيكي إيه دلوقتي" (أحست بخجل طاغ يتملكها وهزت رأسها رافضة. بخوف غريب لم تشعر به من قبل وهي في أحضان رجالها الذين كانوا يأخذونها بلهوجة.

(توقف هو عما كان يقوم به، ورفع جسده متكئاً على كوعه يتأملها، كأنه يراها لأول مرة. لم يكن غاضباً، بل كان نافد الصبر كشخص توقف عن فعل شيء بالغ الأهمية ليشرح شيئاً، لاأهمية له). قال لها بهدوء وهو يلهث. لم تعرف إذا كان لهاثه غضباً أم شهوة " هو إنتي منهم؟ من اللي بيعملوا الحاجات من غير ما يحبوا يقولوا هما بيعملوا إيه؟ إنتي منهم.. إذا كنتي عاوزة تواصلي. إذا كنتي عاوزاني أكمّل اللي بديته معاك من شوية. ما أحبش الحركات دي.. أحب الوضوح.. فهمتي؟

قال لها تصريحه هذا في نفس واحد طويل وهو يقطّع الجمل يلتقط أنفاسه. (قبلّها فجأة وهو يضحك ضحكة قاسية "نبدأ من جديد؟ سألها (هزت رأسها بالإيجاب وهي تنظر إليه بهلع. كان لا يزال بداخلها (أجابت على كل أسئلته. بعض إجاباتها كانت بالفرنسية. لم تكن تعرف بالدقة المصطلحات العربية والتعبيرات البلدية).

رونسيه - أيضاً بعد أكثر من عشرين سنة

هل تتغير الواحدة إلى هذه الدرجة؟ من الخارج على الأقل؟ وكيف لم يعرفني، وأنا التي كنت أظنه يعرف مداخلي ومخارجي؟.. صبغت شعري من البني الفاتح، إلى الأسود، وضعت عدسات لاصقة خضراء بدلاً من لون عيني العسلي (هل أرغب أن أشبه رونسي؟). عملية تجميل لأنفي، من محدّب ومعوج إلى اليمين قليلاً؛ إلى أنف محندق ومستقيم. شفطت الدهون من فوق أردافي وبطني. جراحة في الصدر أرجعته إلى تماسكه وصلابته السابقة.

عرفته من الوهلة الأولى. انتظرت أن يقبل عليّ متهللاً .. لهذا كانت ابتسامتي التي واجهته بها؛ لم أستطع التحكم في نفسي من وقع المفاجأة. رغم أنها كانت مفاجأة مدروسة. رونسي قالت لي أنه يقيم الآن في باريس. أعطتني عنوانه. كريت واحد يراقبه ويديني تقرير عن الأماكن إللي بيتردد عليها. البار ده مثلاً. التعبير على وجهه جعلني أنكمش بعض الشيء. تعبير لشخص لا يعرف صاحبة الوجه.. تعبير مهذب يتسم ببعض الغباء، وتلك النظرة الحذرة المترددة التي تكشف حياة بأكملها، تتأرجح بين الشك واليقين، بين السطل والصحو.

كنت بحلم بلقاء سينمائي من أفلام الموجه الجديدة. لكن لما بلّم في وجهي، انهارت أحلامي السينمائية. إذن أنا غريبة بالنسبة له. فلأكن كذلك. ولعلي لعوب أيضاً؟.. الغريب، إني بطلت أكون البنت الفلتانه بتاعة زمان، لكن يبدو، أن الواحدة مهما غيرت من برا، إللي جوه حايفضل زي ما هو، فأنا منذ سنوات قليلة، قررت أن أخلع جلدي وأتحول إلى البنت الأخرى، التي كان بابا يريدني أن أكونها؛ جادة وتمسك زمام جسدها بعقلها، وليس العكس. والسبب؟ خجلي من إحباطي له، حيث لم يبق عندي الآن، وهو ميت منذ سنوات سوى خيبات أمل متلاحقة وإحباطات.

لم يتغير كثيراً ابن الكلب. بثيابه التي تنتمي إلى عصر سابق. ظهره لا يزال مستقيماً، وكرشه الصغير يبرز مرتاحاً من خاصرته. شعره لم يخالطه البياض كثيراً.. هل يصبغه ياترى؟ أنفه ازداد ضخامة، ووجهه تحوطه التجاعيد العميقة.

لمحته وهو يدخل البار بخطواته الواسعة وطريقته في المشي التي تصفها عمتي بأنها مشية الفلاحين في الغيط؛ متفرجحة. اختار مائدة خالية، وتوجه إليها. خفق قلبي كما كان يخفق أيام زمان جناح الطباخ؟ هل هذا هو الاسم الذي؟ آه، بالطبع. كام سنة؟ تلاتين؟ ثمانية وعشرين، من عمر وداد. يبقى عمره خمسة وخمسين. أنا أصغر بسنتين. آخر مرة في جناح الطباخ قبل أن أتركه نهائياً وأسافر، كانت من سبعة وعشرين سنة بالضبط. شكله ما تغيرش كتير، ومحافظ على نفسه، وإن كان شكل الجيوب اللي تحت عنيه بتاع واحد بيشرب كتير. موش بطال على رأي بابا جرجس.. موش بطال أبداً! حاجة وخمسين.. يبان أصغر.. في الخمسين. يتلفت حوله يلمحني أنظر إليه، منتظرة أن يتعرّف عليّ. تلتقي عينانا لحظة. ابتسم. يحوّل وجهه محرجاً. أكاد أضحك بصوت عال فما زال ذلك الفلاح الخجول. يثبت نظره على الجارسونة التي تعطيه ظهرها ، كأنه يأمرها أن تلتفت إليه. تستدير وتلتفت إليه. يشير إليها بعينيه، أن تاتي إليه. يخالسني نظرة سريعة. ابتسم له ثانية.

ما عرفنيش.. ألاعبه. أصيده، بالنسبة له امرأة وحيدة تجلس في البار، تحتسي نبيذها بملل في انتظار. رجل بالطبع؛ هذا هو الاعتقاد السائد عند الذكور. نحن دائماً في انتظارهم.. ماشي الحال.

سأقوم بحركة سينمائية هي الحلم الأبدي لكل الذكور - من أمثاله على الأقل- الذين عاصروا أفلام همفري بوجارت وبالتحديد فيلم كازابلانكا؛ سأرسل له الجارسونة بمشروب على حسابي. تصب له كأس كورفوازييه. ما زال يختار مشروبه ولا يرمرم. كنت أقول له نقلاً عن جرجس، أن الرجال بما يشربونه؛ العربجية تشرب البوظة، والطبقة الوسطى البيرة، ومحدثي النعمة الويسكي، أما نحن فنشرب البراندي الفرنساوي، الذي هو درجات أيضاً.

نقلته مرة واحدة من البيرة، للكورفوازييه. جميل أن ترى الواحدة أن هناك أشياء لا تزال باقية من أيام زمان.

هو مندهشاً ومحتاراً بعض الشيء. كان يقول لي، يعترف، بأن أصعب مرحلة عنده هي البدايات.. بعد ذلك يستخدم سحره، فتنهار الجسور. لهذا سهلّت عليه البداية.. أنتظر سحرك الذي أعرفه وكاد أن يلخبطني تماماً، مثلما قالت لي الدادة.. ده ساحرك. عامل لك عمل.. سحرك القديم؛ هل ما زال أم؟ رفع كأس الكونياك - بتاعي - إلى أعلى يحييني. كانت تحية فيها بعض السخرية والقليل من الحذر. أومات له برأسي بجلال الملكات متقبلة التحية. قام من على مائدته متجهاً إليّ. تردد ثوان؛ هل يلملم أشياءه أم يتركها مكانها. تركها. حويط! يحتفظ لنفسه بخط الرجعة إلى مائدته. موش بطال. بالطبع لم أقل له اسمي. ذكرت له اسماً أحبه وأتمنى أن يناديني الناس به: وداد نظر إليّ مبهوتاً. قال: غريبة! أعرف واحدة اسمها وداد كمان.

صوته لم يتغير كثيراً وإن بانت عليه علامات الشرب المنتظم والتدخين. فكرّت بسرعة أن أنفي علاقتي بأي وداد في الدنيا، إذا سألني عما إذا كنت أعرف "وداته". لم يسأل . انشغل بمخالسة النظر إلى ما يظهر من جسمي، وبالتحديد من ساقي التي كشفتها الفتحة الكبيرة للجوب، أعرف إنه بيحب رجليا، مع إنها موش المودة اليومين دول. لمح خاتم الزوج في يدي اليسرى. كنت أريد أن أقول له ده خاتم جرجس. لكنني قررت أن أجعله يتعب شوية.

استمتعت باللعبة. تركته يصيدني أو بالتعبير البلدي بتاعه.. يعلّقني. تظاهرت بالتردد. في الحقيقة خدت قرار جنوني مفاجيء. أجربّه من جديد. إذا عجبني زي زمان، أحكي له على كل حاجة. إذا ما عجبنيش، أزوغ منه، وأخلي رونسي تتصرف في موضوع البنت. استمتعت به أكثر في الفرشه. أعرف مفاتيحه بينما هو يحاول اكتشافها عندي. أصبح أكثر جرأة وهو يراني أذوب - بالفعل - بين يديه.

وعلى الفراش تركته يصول ويجول. استمتعت بدور التلميذة، وهو بدور

المعلم. خبأت نفسي داخلي كما كنت أخبيء أسراري وأنا في مدرسة الراهبات، خلف الوجه الصبوح البريء والضفيرتين والجوارب البيضاء الناصعة. تحت هذا كله ثيابي الداخلية الفاضحة التي كنت أشتريها سراً أو أسرقها من بنات وسيدات العائلة لكي ينزعها من على جسدي السواقين والخدامين، وأيديهم ترتعش من التعرف على الثياب الداخلية لبنات الأكابر.. أسيادهم، الآن لا أشتريها سراً ولا أسرقها. لا أحتاج إليها أصلاً، فقد رجعت مرة أخرى أبحث عن.. وأشتري، الثياب الداخلية، التي كانت أمي تصر أن أرتديها وأنا في مدرسة الراهبات.. لهذا كانت دهشته وهو ينضو عني ثيابي الداخلية المتناقضة مع الجوبة المشقوقة وصاحبة الجونلة اللعوب.

وبما أني انتحلت اسماً جديداً فقد انتحلت حياة خاصة مغايرة تتلاءم مع الاسم والشقة الباريسية الفاخرة. قلت له إني لا أعمل وهذه حقيقة كنت في سبيلي إلى تنفيذها؛ فقد زهقت من العمل المنتظم وطلبت تحويلي إلى وظيفة مترجمة بالقطعة. بالطبع اكتشف إني بلدياته، حسب تعبيره. أضفت بعض البهارات الخاصة بأم أجنبية غنية، تبرير وجود الشقة، وأب مهاجر من رجال الأعمال في العهد البائد. هو كالطفل، سرعان ما يتحول فضوله البريء من اتجاه إلى آخر، إذا ما شتت الواحدة تركيزه. خليته يحكي عن نفسه. أقارن سراً المعلومات التي كنّا نتبادلها أنا ورونسي عنه حينما نلتقي أو في خطاباتنا. بالطبع هناك بعض التحسينات.. جمّل خيباته في الزواج والعمل. أشار بدون استطراد، إلى اعتقاله ومحاكمته. سخّر ببذاءة من اتهامه بالعمالة للأمريكان. سخر من الحكم والحكاّم. قال إنه بيعمل متحف صغير خاص به أسماه، جاليري النصابين. قال إنه وضع فيه صور الحكاّم في العالم كله. أضاف: ومعظم رجال الدين، من كافة الأديان. ماكانش بيتكلم بمرارة، ولا حتى بغضب. ما عرفتش أحدد مشاعره. أعتقد إنها السخرية الكلبية. أشار بحذر إلى علاقته بزوجته الحالية.

فوجئت أنا، فلم تشر وداد إلى زواجه مجدداً. لعله أخفى هذا عنها. تحدث

بحنـان أذهلني، عـنى ، دون أن يذكـر اسمي. قال إنـه لن ينسى هذه البنت التي أعطته الـكثير. ذكـر محـاسني وجعلني أضـحك معـه من نفسي وهو يتـذكرني، ويذكرني كفتاة كريمة، معطاءة، حنونة وفاهمة، على حد تعبيره. كدت أبكي وأنا أدفن رأسي في تجويف كتفه. أبكي على نفسي؛ وهو يصف برقة وشاعرية، تلك البنت التي أعطته الكثير. لم يلمنـي حينما هربت منه دون إنذار. دهشت أنه تقبل الحكاية كأنها أمر مفروغ منه.

– زعلت منها؟

– زعلت على نفـسي. على حظي في الدنيـا. أصلي أنا مـا عرفش أحـافظ على الحاجات الكويسة اللي بتحصلي.. أدهشني أكثر أن جسدي يثيره. ما زال يثيره. جسدي الذي لم أعد أحبه، والذي أجملّه وأحسنّه مثلما أفعل في الشقة، لا لسـبب سوى رغـبتي في أن أكـون أنا وجسـدي وثيـابي على المودة. أثارتني شـهوته. كـنت أخاف أن يكتـشف الجـسـد القديم خـلف طيات التـجـديدات والأكاذيب. لم يستطع. أحزنني هذا بعض الشيء، لأني عرفت الآن، كيف أن جسدي القديم، الذي كنت أعتبره نموذجياً، والذي قدمته له بكرم حتى أخرج من وحـدتي، وسخافـة حياتى، لم يترك في ذاكـرة جسده، أثراً. يقـولون إن للجسد ذاكـرة.لعلها انتقائيـة. ما أتذكره، عن جـسـده، مثـلاً هو ذبذبته وليس مـيكانيكيتـه. مـازلت أحس يديه على جسـدي؛ وعـبثاً حـاولت أن أستـرجع ذاكرتي عن جسده.

أتذكّر نفسي قـحبة، أنانيـة وغدارة، كمـا قالت لي رونسي، يوم عـرفت بفعلتي معـه ويوم عرفت بهروبي. تركته على موعـد وأنا أعلم، أني لن أحضره باختـياري. كارت بوستال واحـد وبارد وكاذب، ثم ألقـيته وراء ظهـري. لكن رونسي كانت دائماً تقدم لي أخـباره أول بأول ولـم تتنصل مني، حينما اتصلت بهـا بعد أن فـاض بيّ. أصـبحـت عادة بيننا أن نـتبـادل أسرار حـيـاته. رونسي وعـدتني، وأنا أعلم أنها وفت بوعدها وهذا واحد مـن محاسنها القليلة، التـي تغطي عيوبها الكثيرة، ولـم تخبره عني. سألها في البداية. توقف بعد أن اصطدم

بحائط الصمت. لماذا لم أكن أريد أن يعرف عني شيئاً؟ لأني ببساطة كنت مكسوفة منه ومن نفسي.

تنتابني الحسرة - أحياناً - على الطريقة التي سارت بها حياتي فأنا مؤمنة عظيمة بالأقدار، وكأن فيه واحد هناك، يعند معي وأدهش أحياناً كيف كنت أتخذ القرارات الخاطئة التي كانت تبدو ساعتها، كأنها الصواب الوحيد.

مثلاً قرار، أن أخبيء عنه، وعن الآخرين حكاية حملي منه. لماذا اتّخذت هذا القرار؟ ساعتها كنت أعتقد أنني أذكى منهم جميعاً، لأني نويت أن أتخلص من الجنين، فلماذا أخبرهم من الأصل؟ وحينما تراجعت عن الإجهاض، كان الوقت قد فات لإعلان نبأ الحمل، فهربت إلى أوروبا، ليس إلى أمي التي كانت في جنيف لكن إلى عمتي. هي التي شجعتني على الاحتفاظ بالجنين. قالت لي ولا يهمك من نسوان العيلة ورجالتها. سيبيهم عليّ أنا. وقفت جنبي. عمتي!

لو كان قد تعرَّف عليّ، لقلت له عن وداد، بنته. يمكن كنت أقول له. أعترف بسلسلة الأخطاء. يمكن! لماذا نكرر الأسماء؟ لماذا أسميتها وداد؟ مس من العباطة في العيلة؟ موش عارفة. لماذا أخفيت، في البداية الطفلة؟ حتى اسمها عن وداد التي مع إني سميتها على اسمها؟ خفت منها. خفت أن تقنعني بأن تأخذ هي البنت. يمكن! ويمكن لو كنت قلت لها، وجربت هي إقناعي، يمكن كنت اقتنعت. لعلي كنت سأقتنع دون مناقشة طويلة من مناقشاتها.. هل هذا هو السبب. يمكن!

لماذا تكرر بنتي أخطائي، وتتزوج الرشيدي؟ عرق العبط، أو عرق الجنون. العبط من ماما، والجنون من عمتي. جرجس هو العاقل الوحيد، علشان كده انتهى محبط وخايب الأمل.

كان على لساني أقوله.. على فكرة، هو أنا ما قلتلكش أن عندك بنت اسمها.. لكن سبقني وحكى لي عن أولاده. وخيب أملي ولم يتعرّف عليّ. طيب إيه إللي كان ممكن أعمله؟

الكتابة على الحائط – ٢

فتاة تقدم لك ملامحها بسرعة ودون مفاجآت.عيناها الذكيتان تتابعان ما أمامها وما حولها ولا تفلتان محدثها، بينما، تنفرج الشفتان، تعبّان الهواء، ينهض ثدياها لاستقباله كما تشرئب صغار الطير تلتقط الغذاء من أمهاتها فاتحة مناقيرها مرتعشة. كنّا نجلس في حديقة الكافتيريا، نحتسي البيرة وندخن. جو خريفي مثالي. قبيل المغرب.

لم أكن أتوقع أن ألقاها مع رونسي حينما ذهبت إلى موعدنا في الكافتيريا. تلفنت رونسي في الصيدلية، في المواعيد التي تعرف أن الصيدلي ذهب إلى بيته ساعة القيلولة، واقترحت اللقاء. قالت إنها سوف تسافر في اليوم التالي إلى البلد لأن أمها مريضة وأبوها يحس بالوحدة والقلق.

ذهبت إلى الموعد متضجراً، لكني كنت أريد في الوقت نفسه أن أغادر الصيدلية، التي بدأت أكرهها وأكره صاحبها. لعل رونسي أحست بدهشتي حينما رأيت فتاة غريبة معها. ابتسمت محرجة لكنها قالت: رونسيه عندها مكان تقدر تعيش فيه. قالت لي بعد ذلك، حينما انفردنا ببعضنا وذهبت لأوصلها إلى القطار: أصرّت إنها تشوفك قبل ما تديك المكان. أضافت ضاحكة ومعتذرة.. الجماعة الأغنيا كده، حتى لو راحت عليهم.. حسنة لسيدك الأغا. رونسي خبيثة؛ فقد أحرجت البنت، بأن كشفت حكاية المكان قبل أن تعايني، وتقرر صلاحيتي. عرفت هذا حينما تضرج وجهها ناظرة إلى الأخرى بعتاب.

ذهبت إلى العنوان. فيللا كبيره في الزمالك تطل على النهر. مهجورة والحديقة في حاجة مُلحّة للرعاية. كانت تنتظرني على مقعد حجري تحت تكعيبة تطل مباشرة على النهر. صاحت حينما دفعت الباب الحديدي العتيق تناديني .

تجلس ساهمة دون حيوية. يبدو جسدها وكأنها أقبلت من رحلة طويلة منهكة. لاحظت هالات سوداء تحت عينيها. أفسحت لي مكاناً جوارها وجلست

صامتاً، متهيباً بعض الشيء. تنهدت هي ومدت يدها ساهمة تبحث في حقيبتها غائبة البال. قدمت لها سيجارة وأشعلتها لها. دخنا في صمت. تنهدت هي مرة أخرى بعد أن طوحت بعقب السيجارة في ماء النهر.

عرفت منها أن الفيللا في حيازة عمتها. العمة حارسة للفيللا الموضوعة تحت الحراسة. العمة تعيش الآن في باريس منذ فترة طويلة والفيللا مغلقة. كومت الأسرة فيها كميات من الأثاث، من البيوت والشقق والقصور التي صادرتها الحكومة. قالت كالمعتذرة.. الفيللا وسخة ومقفولة من زمان.. لكن فيه جناح صغير مفتوح كان الطباخ عايش فيه قالت لي إن الطباخ النوبي إنتابته لوثة، وقرر أن يحرق الفيللا، التي تم إنقاذها بالصدفة، قبل أن تشتعل فيها النيران. تتحدث بضجر وهي تروي هذه الوقائع المدهشة. قالت إنها سمعت الكثير عني من رونسي. عن مشكلتي في السكن المستقل. اقترحت على والدها الذي يتولى رعاية شئوون الأسرة أن اقيم في جناح الطباخ.

قالت بجدية.. ما تفتكرش إني بعمل معروف فيك. زي مانت محتاج لسكن، إحنا كمان محتاجين لواحد يسكن هنا.. أضافت بعد صمت وقد تضرج وجهها: يحرسها.

تفحصنا بصمت جناح الطباخ؛ حجرتان ومرحاض وحمام ومطبخ صغير. يقع في مستوى الأرض في الناحية الشرقية من الفيلا، ويطل على النهر مباشرة من خلال شرفة كبيرة تحيط بالجناح كله. مشتتة البال؛ تتلمس الأثاث الصلب الثقيل، تنتقل بيدها وبعينيها من مكان لآخر. المكان رغم كآبته أحسن من الجراج الذي وضعني فيه الصيدلي.. جراج مهجور في الفيللا التي يعيش فيها. من الملاحظات المدهشة، أن الناس الذين كنت أتعامل معهم في تلك الفترة يسكنون في فيللات! هذا الجناح على الأقل يطل على النهر وحوله كمية من الخضرة المجدبة وبقليل من الرعاية سوف تتحسن. فهمت صمتي على أنه نوع من الاعتراض على المكان. أخذت تعتذر بلهوجة.. صمتي، بسبب تأملي للموقف كله؛ فها أنا المناضل ضد الطبقة الغنية أعيش في كنفها، بل تقدم لي الطبقة التي

تعلمت احتقارها، والرغبة في تدميرها مكاناً يأويني، مع الاعتذارات المناسبة.

متحركة برعونة ولهوجة لعلها تريد إنهاء الموقف كله بسرعة فتصطدم بالباب، الذي يحركه الهواء فجأة، لتميل فاقدة توازنها متكومة على الأرض. تجهش بالبكاء بحرقة. أميل أنا عليها مرتبكاً.

تتشبث بي دافنة وجهها الباكي في كتفي. أجد نفسي عاجزاً أمام دموع الآخرين؛ لا أعرف كيف أتعامل معهم ومع دموعهم وبالتالي غالباً ما ينتابني خوف أخرس كتعبير عن عجزي أمام الحالة. هذا ما حدث؛ إذ بدلاً من أن أطيب خاطرها بكلمتين وجدتني، هازاً إياها بعنف كأني أنفضها عني. صمتت هي فجأة كما بدأت. تريد النهوض، لكني أمسكت بها. نظرت إليّ مندهشة وخائفة. ملت بها على الأرض المتربة أقبلّها..

فترة طويلة، لعلها أكثر من سنة كانت تأتي إليّ بانتظام، في جناح الطباخ الذي حولناه، مع رونسي، بعد ذلك، إلى مكان صالح للحياة.

حينما التقيت برونسي بعد عودتها من البلد لم أقل لها على العلاقة بيني وبين رونسيه. هي التي اعترفت لها. عرفت بعد ذلك أن البنتين جلستا وحسمتا الموقف فيما بينهما. اتفقتا على أن يبقى الوضع على ما هو عليه كما يقول القانونيون ودون استشارتي كالعادة. المدهش في الأمر أن علاقتي برونسي تحسّنت كثيراً بعد ذلك.. رجع إليها بعض توهجها القديم. قضينا ثلاثتنا وقتاً خرافياً...

حمامة في جناح الطباخ

مزاج رونسيه - أيضاً حينما كانت زمان..

.. لكنه مسكين هذا الولد الذي تتهدل ثيابه الرخيصة فوق جسده النحيل. لماذا لا تهتم رونسي بثيابه؟ لماذا لا تأخذه معها إلى السوق وتشتري له ثياباً

ملائـمة؟ مشغولة بنفسها وبأشيـائها. نظراته ضجرة، سرعان ما تحولت إلى نظرة صـائد حينمـا رآني أول مرة. قـالت لي رونسي إنهـما يجـتازان فـترة صـعبـة في عـلاقـاتهـما. أحس أنـه يمل منهـا. ظهر هـذا في أدبه البـارد معـهـا. يشـعل لهـا سيجارتهـا. يتوقف عن الكلام حينما تقاطعه مثل الفـلاحات، لكنه لم ينظر إليها وهي تتـحدث وتـهرف.يحـول نظره إلى الأشـجار، إلى الجـارسـونات والناس. حـينما قـمت أريد الذهاب إلى التـواليت أحسـست بعيـنيه تعـريانـي من الخلف. ضبطته أكثر من مرة ينظر إلى شفتي.

لا أعلم ما الذي أصابني وأنا في جناح الطباخ. قضيت يوماً سخيفاً، وأنا أقنع جرجس أن يعطـيني مفتـاح الفيللا. تردد بحـجج مختلفـة. يعيـد ويزيد. ما الذي أدرانا بأنه لـن يسـتـولي علـى الفـيللا؟.. مــاذا نعـرف عنه سـوى أنـه صـاحب صاحبتك. قـال العبارة الأخيرة بسخريتـه الباردة، التي أجادها منذ أن كان يدرس في أكسفورد. هذه الفيللا لا أحبها لأنهـا تحرك ذكريات كثيرة من الأحسن لها أن تظل مطمورة.

عمتي التي أخذت اسمي منها.. أو لعلها هي التي أعطتنيه. الحفلات السخيفة التي كانت تقـام فيهـا. وجناح الطباخ! لكن هذا زمن وانقـضى، الطبـاخ، الذي أصابته لوثة. كـان يتظاهر بأنه لايرى ما يحدث في جناحه، وعلى فراشـه، حينما ضبطنا أول مرة أنا وإلهامي ابن عـمي. هذه أول مرة. وبعدين مع السواق النوبي. لماذا كلهم من النوبـة؟ هل ترسل القـبيلة ابنائـها، ليـعـملوا كخـدم وسـواق عند الباشوات، ثم يضاجعوا بناتهم ونسائهم وحتى أولادهم؟

أنا أذكر التاريخ جيـداً. اليوم والساعة حينما ركـبت السيارة التي تأتي بي إلى المدرسة، وتـأخذني منهـا، فهذه كـانت البداية التي.. المرة الأولـى، التي ينام فيـها واحـد معي وليس من العـيلة، أو أولاد العـيلة، حينمـا كـان إلهامي يقـدمني إلى أصحابه، يتبـادلون الأخوات والقريبات فيما بينهم.. مـا علينا كنت سأتغدى عند عـمتي، لكنهـا لـم تكن موجـودة. تجـولت بملل في أرجاء البـيت الذي لا أحبـه، ويخيفني بعض الشـيء. لم أكن أود الذهاب إليها لكن بابا أصّر، وقال إنه سـيمر

في المساء لنذهب إلى النادي بعد ذلك. كنت كام؟ أظن خمستاشر بالكتير.

في السيارة، لمحت العين المتورمة للسائق. أعلم أن هذه ليست المرة الأولى التي تضربه عمتي، السريعة الغضب، مشهورة في العائلة بكرباجها وشعارها.. الكرباج للخدامين. هذه المرة قررت أن اتجاهل الباب الذي فتحه، ووقف، ممسكاً به، ينتظرني أن أدلف كالعادة إلى المقعد الخلفي. فتحت الباب الأمامي، جلست على المقعد المجاور لمقعده. النظرة ذاتها، التي رأيتها في حديقة الكافتيريا، بعد خمس سنوات.. نظرة الصائد الذي انتظر الفريسة طويلاً، حتى أصابه اليأس وها هي تأتي تسعى إليه. أي بنت في الخامسة عشر تستطيع قراءة النظرات التي تتلكأ فوق صدرها، و ما يبين من فخذيها، وهي تدلف إلى السيارة.. نظرة الخادم المستخذية، تحاول أن تداري نفسها خلف الجفون، ترى أطايب الطعام، تكاد تلمسه، لكنها لاتجرؤ على.. تعلمت أن أتعامل معهم؛ الخدم، باعتبارهم أشياء، مثل السيارة مثلاً؛ تركبها لتوصلك إلى ما تريد، دون أن تهتم بما يدور داخلها، طالما هذا الذي في داخلها لايصدر صوتاً مزعجاً. أعرف النظرة، وأفهمها. أستمتع بها.

سألته ساخرة أغيظه.. ضربتك؟ تاني؟ أحسست بجسده يتوتر كأنه يريد أن ينقض على شيء. أمرته بصوت محايد؛ ضربتك إزاي. أجاب بهمس بالكرباج. عملت إيه المره دي؟.. صحيت متأخر والعربية ماكنتش جاهزة. وضعت يدي على العين المتورمة. أجفل. ما زال يركّز في السواقة وقد تشبثت يداه بالمقود، ناظراً إلى الأمام بأصرار. لقيته في المطبخ، يثرثر مع الطباخ. قام واقفاً حينما رآني..تركته واقفاً. سألت الطباخ عن المينيه. طلبت منه أن يعمل لي ساندوتش باتيه. قلت له وأنا خارجة.. ابعتهولي معاه. أشرت بذقني تجاهه. استدرت خارجة، وذهبت إلى سكن الطباخ في الناحية الأخرى.. استلقيت على السرير، وأدرت الراديو. جاء هو بطبق السندوتش ووضعه على المائدة المجاورة للسرير. كنت ممدة على ظهري، أتظاهر بالقراءة في مجلة تان تان. قلت له دون أن أنظر إليه: قلعني الجزمة. أحسست بصدمته؛ فهو في النهاية السائق الخصوصي وليس الدادة. لكي أحسم تردده أو احتجاجه، رفعت ساقي في مستوى صدره عالمة أن

التايور الكحلي، انحاش حتى منتصف الساق. ساقي البيضاء التي يزداد بياضها مع لون التايور. كنت أعلم أني مقبلة على شيء جديد وخطير يطلق عليه جرجس، كما عرفت بعد ذلك اصطلاح اختبار القوة. أصابعه خشنة بشكل لم أكن أتوقعه. كانت معروقة من الخوف بالتأكيد، وهي تحيط مترددة بالجزء العاري من ساقي فوق جورب المدرسة.. أمرته دون أن أنظر إليه.. والشراب كمان. مددت له الساق الأخرى، واضعة قدمي، فوق خاصرته. حتى الآن لا أعلم ماذا أريد. أعلم فقط، أني التي سأحدد وأقود.

حينما وضعت قدمي العاريتين فوق خاصرته، أحسست بجسده كله ينتفض. لا يزال واقفاً ينظر الآن إلى بداية، أو لعلها نهاية ثيابي الداخلية الحريرية الوردية. تركته هكذا دقائق. دفعته دفعة خفيفة بقدمي. كاد يفقد توازنه. فوق الفراش، استدرت على بطني. مددت يدي إلى السندوتش. أسندت المجلة على حافة السرير. آكل واقرأ معطية إياه الفرصة، لكي يتأمل أردافي من تحت الثياب الداخلية. إلهامي فتح السكه لي. يقول لي إنه يحب هذه المنطقة في جسمي. هو الذي علمني أهميتها. علمني أيضاً ما أسماه هو بلعبة التواطؤ الصامت. إلهامي كان معلمي.. لا أستطيع أن أحوش نفسي حينما أحس بشخص يشتهيني. إلهامي كان يقول لي هو إنتي إيه؟ صليب أحمر؟ أبكي عند أول مرة مهما تعددت المرات الأولى.. لا أستطيع أن أحوش نفسي. أبكي وأنا أسلّم نفسي.. بكيت دافنة رأسي في المجلة وأنا أكاد اغص بالباتيه. يده فوق لحمي، تجوس فيه بحرية وتقرصه. لعله كان يحاول أن يتأكد مما يحدث له مع بنت أسياده. جسدي يتحرك بإرادته الخاصة. أتكور على نفسي، يتحول جسدي إلى كرة من اللحم منتفحة، أحس به ينتفخ ويتفتح. أدفن رأسي بين ذراعي، وأترك الباقي متاحاً. عضني في ردفي. أسنانه فوق اللحم الحي بعد أن عراني.

صوت السيارة الأخرى، التي تسوقها عمتي، جاءني كالحلم. تنبه بسرعة. قفز من النافذة بينما أعدت أنا ارتداء ما أنتزعه. في المساء لم يأت بابا. اعتذر بالتليفون. شغل مهم. ركبت معه السيارة.. كنت هذه المرة في المقعد الخلفي. قاد

السيارة إلى الجزء المهجور والهادىء من إنحناءة النهر. الجزء المظلم. ركنها بالقرب من سور النادي، تحت شجرة سنديان كبيرة.جاء إلى المقعد الخلفي صامتاً، لكني أحسست به مليئاً بالغضب والخوف؛ لعله أراد أن يشجع نفسه. أزاحني بخشونة دهشت لها، لكني لم أعترض. أجلسني على حجره. فعل بي.

واقعة على الأرض أبكي، بعد أن خبطت في الباب. كنت أفرجّه على سكنه الجديد في جناح الطباخ. فجأة زي الحلم، إللي بيتكرر، وانتي مش عارفه تخرجي منه. خدني في حضنه. أول مرة من زمن طويل حد ياخدني في حضنه. حتى بابا ما عدش بياخدني في حضنه.

مزاج امرأة اسمها دميانة التي تحبل وتلد ابناً

في قرية صغيرة منسية، كانت تعيش امرأة مسيحية اسمها دميانة، مع زوجها المسيحي، الذي يدعى فلتس. لا يملكان شيئاً، سوى البيت الطيني المعتم، يعيشان فيه.

جيرانهم الحيط في الحيط، عائلة مسلمة، لاتملك أيضاً شيئاً سوى البيت الطيني، الذي تعيش فيه.لم ينعم الرب على فلتس، بالأولاد لكنه أنعم على عائلة المسلم (لا أحد يتذكر اسمه الآن) بالعديد من الأولاد. صبيان، وبنات. العائلتان، تعيشان، كما يتعايش الجيران، في القرى؛ في هدوء ومودة، خاصة، أن دميانة، كانت تتطوع دائماً بمساعدة عائلة الجيران، في أعمال البيت، وتقضي معظم وقتها، حينما لا تعمل بالأجرة في الحقول، في البيت الآخر. واحد من الأولاد ، كان قد بلغ حديثاً، ولم تكن دميانة التي تكبره بعشر سنوات، تحوش نفسها عنه حينما يحتك بها، في الأركان المظلمة في البيت، أو أثناء العمل في الحقول. شاهدته يكبر أمام عينيها، يتحول من طفل إلى صبي، إلى مراهق. يخشوشن

صوته. لم تكن دميانة، مشغولة بالخطأ أو الخطيئة. طوال حياتها تشاهد حيوانات الحقل وطيوره، في مواسم السفاد، تطبق قوانين الطبيعة. لا نستطع أن نقول أن ثمة "علاقة" بين الولد ودميانة. كان يزنقها حينما يجد الفرصة التي كانت دميانة، تساهم معه في إيجادها بتواطىء صامت، دون ترتيب مسبق.

ذات يوم عرفت دميانة أنها حبلى. وعرف فلتس بحبلها، دون أن تقول له. كانت تعلم أن عليه، أن يتخذ موقفاً، وطبقاً لهذه المعرفة، كانت تعلم أيضاً، أن عليها أن تتخذ قراراً، بأن توفر على فلتس اتخاذ قراره الوحيد والصعب؛ أن يقتلها. فهربت، إلى الصحراء القريبة من القرية (كان الاثنان يعلمان أن فلتس لا يستطيع أن يحبّل امرأته.. فهو عنيّن).

الكتابة على الحائط ـــ ٣

لم تكن رونسيه، تريد أن تعرف بالدقة ماذا يفعل الرشيدي. كانت تخمن، لكنها، ترفض المعرفة الكاملة. العديد من الناس حولها قاموا ببناء "ساتر" يحميها من الاكتشاف. لكن ابنتها، كانت هي التي، قدمت لها الحقيقة.

قالت لي ذلك ونحن في الطائرة، من باريز إلى القاهرة. بعد أن برهنت لي هي على غباوتي في عدم تعرفي عليها منذ اللحظات الأولى! لعلها خافت أن تقول لي ونحن على الأرض، خوفاً من ردود فعلي. لعلها خافت من أن أتراجع. لعلها قررت أن ترمي بالكرة في حجري؛ باعتباري الأب والمسؤول. رد فعلي، كان الغضب المكتوم على رونسيه وليس على البنت. امرأة لا تفرغ جعبتها من الحيَل والمفاجآت. أفتش في داخلي عن "مشاعر" أب يجد ابنته.مفاجأة ميلودرامية. عشيق يعيد اكتشاف معشوقته التي اختفت "في ظروف غامضة" ليجد أنها أم لطفلتهما. دراما مبتذلة. المشاعر الوحيدة التي اكتشفتها داخلي؛ الفضول! مع مرور الأيام والسنوات، لم يبق عندي من المشاعر، سوى الفضول. أتساءل، كيف سأتعايش مع

الحقائق الجديدة في حياتي، بالتحديد، ما تبقى منها؟ في انتظار "ملاك الموت".

نأيت بنفسي منذ زمن عن الدخول في "اللعبة" وحتى غضبي من رونسيه تحول، إلى حالة من الأسف عليها. ليس على البنت. البنت اختارت حياتها. اختارت الرشيدي. كل واحد يختار الرشيدي بتاعه. هذا ساعدني أن أقيم "علاقة سوية" مع البنت، وزوجها بعد ذلك.. من منكم بلا خطيئة، فليرمهما أولاً بحجر.

نأيت بنفسي أيضاً عن الابتذال في العلاقات. لهذا لم "أواجهها" لم أحاول أن اقدم النصيحة، حينما أصبحنا أصدقاء. ابنتي الوحيدة على ولدين، لم تعرفهما (من أم أخرى).. جمعت أنا معلوماتي بالتدريج عن "عملها " هي والرشيدي. أصبحت صديقتي. تزورني، أطبخ لها. نجلس في الشرفة، نسمر.

لعلها كانت تبحث عن صديق، وليس عن أب. الأباء تفرضهم الحيوانات المنوية علينا. الأصدقاء نختارهم..

كنت أخاف في البداية، أن تكون ممرورة مني. أب مختفي. غير مسؤول إلى آخر هذا الكلام. بالعكس، لم يحدث عتاب، أو دموع مثل المسلسلات التليفزيونية. أعتقد أنها أيضاً تحتفظ بقدر كبير من احترام النفس، والكبرياء. بعد ذلك بفترة طويلة، بدأت تفك. تدمع عيناها أحياناً، ونحن في الشرفة نراقب الغروب بصمت. تحاشينا ذكر رونسيه. لم أهتم أن أعرف مشاعرها تجاهها. بين وقت وآخر كانت تذكرها باسمها. طلبت مني مرة، أن أحكي لها، كيف تَعرَّفتُ على أمها. حكيت لها، دون الدخول في التفاصيل. حكيت بصدق عن تلك الفترة من حياتي وحياتها. طلبت مني أن أُعرِّفها على وداد الأخرى. عرفتهما على بعض.

وهكذا.. بين فضولي في معرفة نهايتي، وفضولي في أن أتعرّف على ابنتي، بدأت الصناديق القديمة، تفتح أغطيتها الصدأة. ليس هنا امتياز للانتقاء. أسجل في دفتر صغير منفصل، ما أتذكره، من تلك الفترة والفترات التي تلتها. لمحتْ لوداد عنه. قلت لها إذا ما حدث لي شيء. أريتها المخبأ الصغير الذي لا يعرف

أحـد سوانا طريقـه. أعجبـتهـا الفكرة. وعدت بـأن لا تقتـرب من المخبـأ إلا في الظروف التي حددتها لها.

* * *

مزاج الفيلد مارشال

حـينما أعلن الجنرال ذات صـباح بأن البـلد تحت حكم الجيش، ذهلت الميـديا المحلية والعالميـة للمفاجأة، التي كانت منتظرة من زمـن طويل الدهشة التي انتابت الميـديا كـانت بسـبب أن "الجنرال" ليس مـعروفـاً لأحـد، خـارج نطاق الكهنوت العسكري. بل إن الذين يزعمون المعـرفة به هناك قلة تعد على أطراف الأصابع.. لكن أرشيف سالي تومسون الخـاص، يقول عن الجنرال بعض المعلومات التي قد تؤخذ بجدية...

يقول التقرير: الجنرال من أسرة عسكرية تتغلغل بعمق، منذ أكثر من مئة سنة، أي منذ البـدايات الأولى لتـأسيس المؤسـسـة العسكـرية. أجداده الأقـدمـون من الشركس المرتزقة (لـم يكن من سلالة العبيد). اكـتشفوا مبـكراً بذكاء المرتزقة، أن المؤسـسة العـسكرية هي المكان المناسب لهـم في بلد أغلبيـة سكانه من الفـلاحين، الذين كرسوا أنفسهـم للفلاحة والعبـادة.نقل الأجداد لذريتهم، اكتشافهم ومزاياه. ورثوهم ذكاءهم العملي المحـدود، والدماء الشركسيـة، والنياشين العسكرية (التي حصلوا عليهـا بدون الدخول في معارك حقيـقية، بل في الاحتفالات التي يقـيمها الحكّام بانتظام لاسـتـعراض قـوتهم، وقـوة المرتزقـة حتى لا ينسـى الفلاحـون من "يحـميـهم" من أعدائهم الذين لايعـرفون عنهم شـيئـاً). خلال المئـة سنة الأخـيرة تناسلت الأسرة بقدر معقول منتجة الضباط ورجال الأعمال، بقدر متساو. وهؤلاء واصلوا احتلال مكانتـهم الرفيعة في الدولة. حافظـوا على ذلك القدر المتوسط من الذكاء العملي، مشحوذاً بتطورات الحياة الحديثة وبعض العلم العسكري.

هو ليس آخر السلالة التي بدأت تنقرض ويتضاءل عددها، لكنه ممثلها وحاميها. يحتفظ جسدياً وعقلياً، بكل ما انحدر إليه من الأجداد.. ربعة القامة مدكوكها. يميل إلى البدانة. أحمر الوجه تضخ فيه الدماء بعكس وجوه الفلاحين السمراء أو الصفراء وأجسادهم النحيلة. اهتماماته السياسية تنحصر داخل دائرته، وطريقة حياته، ومع أنه يقود فرقته العسكرية في الجيش، على الورق، من خلال مساعديه، إلا أنه يعتقد، بل يؤمن، ليس هناك فرق، أو اختلاف مهم، بين قيادة فرقة عسكرية (على الورق وهو جالس على مقعده في مكتبه المريح المكيف الهواء) وقيادة شعب بأكمله. كسله الطبيعي الموروث جعل طموحه أقل من ذكائه، لكن ذكاءه المتوسط جعله يؤمن بأنه مؤهل لمهام أكثر أهمية من قيادة فرقة عسكرية على الورق.

(انتهت المقتطفات التي اخترناها من التقرير)

ذات صباح غير عادي، دار هذا الحديث بين الجنرال ومساعده (الذي يتمتع بذكاء عال وله علاقات غامضة وسرية مع مجموعة من صانعي القرار الأجانب والمحليين). حينما وجد الجنرال صعوبة متكررة ومتزايدة في الوصول إلى نادي الجزيرة من منزله، حيث يلعب الكريكت كل ظهيرة (بعد استيقاظه بساعتين).. هذه الصعوبة المتكررة والمتزايدة، ناجمه عن الفوضى العدمية، التي بدأت تطبع الحركة داخل المدينة، نتيجة لاختفاء شرطة السير، من مراكزهم في الشوارع المهمة والميادين (انخرطوا في أعمال مدنية بشكل سري رغبة منهم في زيادة دخولهم، حيث أن الدولة "تنسى" أحياناً صرف مرتباتهم التافهة)، بالإضافة إلى الأعطال المتواصلة في إشارات المرور القليلة، التي تعمل ألكترونياً، نتيجة لعدم وجود ميزانية للإحلال والتجديد.. وعشرات من هذه الأشياء التي انتشرت في المدينة، وبدأ الناس، يتعودون عليها باعتبارها قدر لابد من التحايل على مواجهته.

يوم المحادثة، لم يستطع الجنرال الوصول إلى ناديه في الموعد المحدد.. تأخر بضع ساعات وهو جالس في السيارة الأمريكية الفاخرة المكيفة، وسائقه يحاول المناورة في الشوارع الجانبية؛ فقد امتلأت الشوارع الرئيسية التي تعوّد الجنرال

المرور منها بقدر مهول من البشر لم يرهم الجنرال من قبل. سحنتهم غريبة عليه.. وجوههم غاضبة، وأعينهم هازئة، وأبدانهم تسترها أسمال قذرة.. يصيحون ويعوون ويشتمون ويبصقون ويحطمون.

غمغم السائق الذي هو مجرد عسكري بسيط من سلالة الفلاحين:

- مظاهرة

قال الجنرال غاضباً :

- كل يوم؟ امبارح كانت مظاهرة.. وأول كمان.

قال السائق وهو يحاول أن يكتم شماتته:

- البلد هايجة يا باشا

رد الجنرال غاضباً وقد ازداد احمرار وجهه:

- كلاب.. أولاد كلاب

التقى الجنرال مساعده في النادي، وأعرب عن غضبه مما يحدث. قال المساعد، الذي ليس من سلالة الشركس بل من سلالة الفلاحين الأثرياء، الذين تملكوا إقطاعيات هائلة من سنوات بعيدة:

-- بلد عاوزه حد يحكمها

- عاوزه الكرباج

- ضرب الجزمة. بالجزمة القديمة

وبعد قليل، قال المساعد الأريب:

- ما فيش غيرنا

- غيرنا؟ غيرنا مين؟

تنهد المساعد بصبر، فهو يعرف أكثر من أي شخص آخر، بطء حركة عقل الجنرال، واستيعابه المحدود. أخذ يشرح له بصبر خطته التي وصفها بأنها "هامة لكنها بسيطة ومضمونة". استمع الجنرال باهتمام متزايد؛ خاصة أن إيمانه بأنه مؤهل لمهام قدرية كبيرة، وجد الضوء الأخضر الذي يلعب به المساعد أمام الأعين الشرهة للجنرال. أخذ يسأل مساعده العديد من الأسئلة اللوجيستيكية

الميدانيـة..تأمين حركة الانقـضاض. من معنا ومن علينـا من داخل العسكر.. إلى آخره. كان الجنرال يسأل وعقله يسرح أحياناً وهو يتخيل نفسه في سيارة عسكرية مكشوفة يحيي الجماهير (التي يحتقرها)

- الموضوع عاوز تفكير

- طبعاً يا باشا. أنت رجل الأقدار

مع أن الجنرال لم يفـهم بالضـبط، لكن الجملـة أعجـبتـه.. وبالفـعل ضمنهـا (طلب من المساعد أن يضمنها) في البيـان رقم واحد، بعد أسبوعين بالتحديد من الوقت الذي سمعها فيه. ثم منح نفسه لقب فيلد مارشال.

من الأوراق الخاصة
(مزاج القسيس)

حينما رن التليفون في مكتبي في المجلة، لم أكن أتوقع أنها رونسي، وحينما أتاني صـوتها المبـحـوح يقول لي إنـزل، لم أكن أتوقع أنها تـنتظرني في الطابق السفلي. على العموم لم أكن أتوقعها (اليـوم) فليس بيننا موعد أو اتفاق مفتوح على أي شيء، بل لم يكن بيني وبيـنها منذ أكـثر من أسبـوع سوى توتر نـسيت الآن سببه، لعل لم يكن هناك سـبب محدد، سوى ذبذبة سيئة بيننا. في الحـقيقة لم أسعد كـثيراً بتليفـونها المفاجيء هذا. لم أسعد أبداً. فـقد رتبت يومي بشكل مختلف؛ كنت سـألتقي ميخا، لنذهب إلى ذلك البار الأنيق في الفـندق الخمسة نجوم، نتـبادل النمـيمة المعـتادة. بعد ذلك سـأذهب لزيارة أختي، التي حـضرت لتوها من أستراليـا. هاجرت منذ بضع سنوات وهذه هي زيارتها الأولى لنا هنا. الحقيـقة لم أكن أيضاً متـحمساً للقـاء الأخت، والإجابة على أسئلتهـا الملحاحة حول البـلد والحوادث التي تقع للمـسيـحيين، وخـاصة أصـحاب محـلات بيع الذهـب. أعرف سلفاً إلى أين ستنتهي هذه الأسـئلة. بالرجاء القديم المتجدد في

الخطابات التي تصلني منها، من أستراليا، بترك البلد والهجرة النهائية.

لا أتخيل نفسي في أستراليا، أمتطي سيارة لاند روفر أو من أي نوع، وقد نمى لي كرش متوسط، وأتصرف مثل المستوطنين الإنجليز الذين أتذكرهم من أيام السودان، بالطبع فإن إلحاحها لترك البلد، ليس خالصاً تماماً لوجه الله والإخوة. تريد أن تقطع نهائياً ما تبقى لى من علاقة مع رونسي. رغم معرفتي بما سيحدث في الجزء الآخر من اليوم وعدم حماسي، إلا أن ذلك لم يمنعني من مواصلة السير في نفس الترتيب الذي رتبت به اليوم. لعل السبب الوحيد لذلك هو أني قد أصبحت أكثر تمسكاً بالروتين، الذي أخططه لنفسي. هذا بالطبع نتيجة الدخول في مرحلة الكهولة. ينزعج الكهل منّا، إذا ما طرأ تغيير على برنامجه اليومي، الذي لا يختلف في تفاهته عن أشياء أخرى كثيرة، يواصل الكهول ارتكابها، بحكم العادة المريحة التي تعطي نوعاً من الثبات والاطمئنان، لأمثالي، من الذين يعودون آخر النهار إلى بيوتهم وشققهم الخالية المظلمة.

صوتها كان يحمل لهجة مختلفة، غير لهجة الأمر، التي تعودت هي عليها، أو لهجة نفاد الصبر، أو لهجة الدلع حينما تكون في حالة مزاجية طيبة ونادرة، خاصة هذه الأيام، أو لهجة التوسل حينما تحس بالحاجة الآسرة للتحدث مع أحد، ولا تجد سواي تبثه، مخاوفها وإحساسها بالخواء والفشل، وهذا ينتابها بشكل منتظم هذه الأيام. كنت أحاول وأنا استمع إليها في التليفون أن أتبين لهجتها حتى أستطيع التعامل معها.. لكنها كانت لهجة جديدة، أقرب إلى الخوف من أي شيء آخر. ذلك الخوف الذي ينتاب الإنسان حينما يستيقظ فجأة من نوم عميق ولا يستطيع اكتشاف أين هو أو ما الذي جاء به إلى هذا المكان، أو هكذا أحسست وأنا أستمع إليها في هذه المكالمة المفاجئة؛ لذلك لم أجد في نفسي الشجاعة أن أقول لها روحي في داهية، حتى في سري، لكن قلت لها إني قادم فوراً.. فشكرتني. كررت شكرها وهذا شيء غير عادي أيضاً، أقصد تكرار الشكر. رأيتها شاحبة تقف بجوار الحائط، في يدها سيجارة غير مشتعلة وفي الأخرى القداحة الذهبية. كانت تنظر إلى القداحة كأنها تراها للمرة الأولى،

مندهشة من الذي وضعها في يدها، لكني حينما اقتربت منها، اكتشفت أن التعبير الذي على وجهها ليس الدهشة بل هو الخوف. أزعجني هذا كثيراً بل وأخافني أيضاً لأن معرفتي بها خلال كل هذه السنوات تجعلني أندهش من أن رونسي تخاف، أو على الأقل تظهر خوفها. وقفت بجوارها أحاذر أن أفاجئها وتحركت بهدوء حتى وقفت في مجال نظرها أو ما تبقى من مجال نظرها، الذي كان يتجه، متجاوزاً القداحة الذهبية ويتجاوز الجدران والضجيج والحراس المسلحين الذين يتحركون بملل في الفتحة الصغيرة التي كانت في السابق الباب الفخم الزجاجي الذي يبهر القادمين إلى الجريدة ويحسسهم بالرهبة. تحول الآن إلى فتحة من أكياس الرمال والأحجار طبقاً لتعليمات الأمن. تقف بجواره عربة مصفحة بعرض الشارع يقبع داخلها لساعات طويلة، عدد لا أعرفه من الجنود المسلحين السأمانين. نظرتها تجاوزت كل هذا وتخطت أسلاك الكهرباء العارية، وأعمدة التليفون، وصيحات الباعة، وصراخ الأطفال، ورائحة الطعام الجاهز الرخيص، المجاري الطافحة بالقرب من فتحة الباب، ورائحة عرق الجنود وسأمهم وخوفهم وغضبهم من خوفهم، هذا. وقفت في مجال ما تبقى من النظرة. منتظراً بتوتر مكتوم، مدعياً الهدوء، حتى ترجع هي ونظرتها مرة أخرى إلى الركن الذي تقف فيه.

عادت ببطء وهي تتنهد تنهيدة ثقيلة رفعت صدرها الذي ما زالت تضعه خلف البلوزة دون حمالات، ما زال يحمل نفسه بكبرياء الرياضي الكهل المتقاعد.. وحينما هبطت نظرتي على صدرها، التفتت إليّ بتلك الغريزة التي لم تفارقها أبداً منذ أن عرفتها. غريزة حيوان تلتقط أنفه الحساسة، الخطر، رابض يكاد يغمض عينيه ليروح في عالم نعاسه الحيواني فيرفع رأسه منتفضاً وقد جمع عضلات جسده كلها في حزمة واحدة واشرأب بعنقه بينما ترتعش عضلاته المتوفزة تحت جلده الحار... لكنها عادت إليّ وعرفتني وتأملتني لحظات طويلة، دون أن تطرف. لعلها تبحث في وجهي عن أشياء لا أعرفها ولا يعرفها سواها في هذا العالم مثلما أعرف أن أشياء في وجهها لم أبح لها

بهـا ولا يعرفـها سـواي في هذا العالم. ولـعلها وجـدتها إذ ارتاح وجـهها بل وانتشرت ابتسـامة حلوة، لكنها، غريبة عليّ لم أعرفهـا من قبل وقالت عارف؟ أحياناً.. أحيـاناً.. ألاقي نفسي بقول الحمد لله إنك لسه عايش، واحـمّر وجهها وقالت وهي مـا زالت تبتـسم تلك الابتسـامة الغريبـة الحلوة. وضعت ذراعـها داخل ذراعي وسحبتني باتجاه الشارع. قلت لها لكي أتظاهر بأني لم أر ارتباكها واحمـرار وجهها عـارفة؟ أنا كمان بقـول لنفسي أحمـدك يا رب إنك ما زلت قليلة الأدب رغم إنه من المفـروض إنك بنت قسيس. أعلم وتـعلم هي، بأن ما نقـوله الآن، لا علاقـة له بما تحس هي به أو مـا أحس أنا به، بسـبب حضـورها المفاجيء، وبسبب النبرة التي حدثتني بها في التلـيفون، وبسبب تلك الابتسامة؛ لأني كنت ما أزال أحـس بالخوف وكانت،هي لا تزال، بعـيدة، رغم إحـساسي بالجهد الخارق الذي تبـذله لكي ترجع كلها مرة ثانية. أعطتني مفتـاح سيارتها، وعادة هي لا تفعل هـذا كثيراً، قد تفـعله حينما تريد أن تطلب مني شـيئاً، تعلم هي، أني أتردد أو أرفض إعطـائه أو أقـوم به. أو حيـنمـا تكون في ذلك المزاج الشبقي فهي تقول: أن التركـيز في قيادة السيارة، يجعلها تفقد رغـبتها الجنسية. تقول؛ إن سبب ذلك أن يديها وساقيها تتـحركان خلال القيادة بطريقة لا تناسق فيها. فتـحت الباب لها ولمحت لحم ساقيها فوق الركبـة، وأحسست بغصة وأنا أرى العـروق الزرقاء ولعلي أشـحت بوجهي، ولعلهـا أحست، بتلك الغـريزة الخاصة بها، رغم أنها كانت ساعتها تميل بجـانبها باتجاه الباب الآخر لتفتحه لي لأني حينما جلست رأيتهـا تلملم ثوبها فوق ركبتيها، وتشـعل سيجارة تعطيني إياها، وتشعل لنفسها أخرى، وتقول لي وهي تنفث الدخان حيث خرج الكلام من فمها مختلطاً سميكاً بالدخان: بابا حصلت له حاجة غريبة، فأنظر إليها غير فاهم و غـير منتبه تمـاماً أو غير مـصدّق فتقـول لي هذه المرة، وهي لا تزال تنظر إلى يدها الممسكة بالسيجارة: بابا ساب الكنيسة...

* * *

رونسي
.. وأمزجتها المختلفة (٢)

أحبه وهو يشرب من رحيقي وأحبني ألحس عسله ونصطلي بنارنا. لم أصدقه حين قال إنه لا يبالي ومع أنه اعترف لي كعادته وكعادتنا بعد ذلك بسنوات حينما اقتحم عذراءه الأولى والأخيرة بأنه لم يشعر بشيء خاص من تلك الآشياء التي أسماها ترهات والتي يكتبها الكتّاب عن الليلة الأولى وفض البكارة والإحساس بالذكورة والرجولة إلى آخره لكني أحسست بالحزن ببعض الحزن عليه وله فقد كنت أريد أن أقدم له الإحساس بأهميته الخاصة في حياتي من خلال أهازيج الرعاة الرومانسية وكل هذا الكلام الفاضي لكن هذا الكلام الفاضي لا يزال يعشش في دماغ حبيبي وتلافيف جسده وعليه أن يمزج بين عالمين قاسيين متناقضين حاملاً إياه على كتفه كما يقول العوام مدخلاً إياه في الفتحات المتاحة وبين رومانسيته التي تنغص عليه مزاجه باستمرار التي رسّخت في روحه بأن جسد الأنثى مقدس وإلهي بالرغم من دناسة رغباتها وقد شاركت الكنيسة وعانسات مدارس الأحد اللاتي يمارسن العادة السرية والسحاق بانتظام والترجمات الرديئة لفرويد، في إيصاله إلى حالة من العنة المقدسة. حينما أقول لك بأني أتزوج رجلاً آخر وستظل أنت حبيبي مهما حدث ولكنك ترفض أن تفهم فأقول لك إن الزواج مؤسسة وأن العشق حالة وأن الزواج بيت وأولاد ومدارس وغسيل وطبيخ وتليفزيون وأن العشق عري وغيرة ورحلات وأسرار وتحقيق الجسد وتخطي التابو واختلاسات ولهفة وصراع وشبق لا يروى مثلما لا يروينا شيء الآن منذ أن شربنا ماءنا المشترك أول مرة أحررك من اللباس القطني الرخيص وأتشمم الرائحة الحلوة الثقيلة وآخذ رأسك أقود عطشك لأخدود ناري تبرد تحرقه فتمتص عسلي الذي أتذوقه لأول مرة في حياتي من شفتيك المبللتين بالعرق والرحيق وهو يدير ويستدير يقبل ويدبر يفتح ويغلق يدق على الزوايا

يغطس في اللجة ليطفو على السطح حروناً فأفتح عمقي أريد أن أغرقه بين موجة وموجة لتقول لي بعدها بسنوات حينما أصبحت رجلاً وشجاعاً بأن امتزاج الطعم الرائحة بين أنفك ولسانك جعلاك تحس لفترة طويلة بعد أن غادرتني وذهبت إلى بيتك وسريرك بثقل فخذي فوق كتفيك وعنقك وأنك حينما تمددت على سريرك أحطت ساقيّ بذراعيك دافناً رأسك مرة أخرى بينهما منهنهاً كما قلت لي بعد أن أصبحت رجلاً وشجاعاً مع إنك في اليوم التالي جبنت أن ترفع عينيك إلى وجهي وتشاغلت بالنظر إلى المروحة التي يعلوها التراب.

* * *

مزاج القتلة

لرونسيه مخبئها السري، الذي تفوح منه روائحها. موحش بعض الشيء، ورطب بعض الشيء، لكنه ممتلىء بأشيائها الصغيرة ولعبها القديمة، وورودها الذابلة وقناني عطورها الفارغة. غرفة صغيرة ملحق بها ردهة فسيحة تفتح على سطح البيت القديم الكبير الذي كان أهلها يعيشون فيه قبل أن يموت بعضهم ويهاجر البعض الآخر ويختفي الباقون في الملاجىء، والموانىء البعيدة والقبور. احتفظت رونسيه بهذه الغرفة، التي كانت تقيم فيها مربيتها، مدام فيكتوريا قبل أن ترحل هي الأخرى في النزوح الكبير إلى كندا، لتلتحق بأختها. وإلى هذا المخبأ تأتي رونسيه، حينما تضيق بها الدنيا الواسعة.. تتسلل من الحفلات الصاخبة في ردهات الأمم المتحدة أو القصور على ضفاف المتوسط، أو من رجالها، الذين تتركهم ينتظرونها في مواعيد حددتها لهم وهي تعلم مسبقاً أنها لن تف بها.. فترتدي روبها القديم المتهرىء الساتان، الذي أعطته لها جدتها في عيد ميلادها السابع عشر. تتمشى حافية في السطح لتجلس تحت تكعيبة الياسمين الهندي، تلمح من بعيد، التلال المحيطة بالمدينة القديمة تلفها سحابة رقيقة من الدخان والسموم.

البـواب الداكن السـواد، الطاعن في العـمـر، يوالي الشـقـة بعنايتـه ويسـقي الياسمـينة، والفل البلدي، والريحان، والصبّار، ويدفع النقود الضـرورية لشركتي الكهرباء والماء، ويفتح نوافذ الشقة مـرة في الأسبوع أيام الآحاد، يهويها، وينفض التراب الدقـيق الأصفر عن أركانهـا. يتحرك بهدوء وبطء ويغـمغم لنفسه بلـغته المنسية وهو يمسح بمنفضدة ريش النعـام، التراب، عن الصور القديمة التي اصفرّت الآن يحـدق في الوجـوه، التي كانت تصـخب في البـيت الكبـيـر. لا يبتـسم ولا يقطب فقط ينظر ويغمغم. وحينما تأتي رونسيه، فجأة، كعادتها تدق زجاج نافذته في غرفـته في الطابق الأرضي صـائحة بفرح مـفتعل "مـا سكا كناه عم نور" ولا تنتظر إجـابته بل تنطلق تـصعد الـدرج القديم المريح الذي تآكلت بعض درجـاته والتي برت الأرجل الهابطة والصاعدة حوافيه.

ترسل رونسـيه البـواب، إلى بلانتهـا القديمة، قـريبة البـواب أو لعلها ابنتـه. لم تستـطع رونسيـه أن تعرف! فتـحضـر مرتدية ثوبهـا الملون، وعلبـة نشوقهـا. ترفع جسدها اللحـيم الذي لم يؤثر فيه الزمن، ترفعه ببطء، صـاعدة الدرج حتى السطح في الطابق السـابع لاهثـة، ترتاح كل بضع درجات، لكنـها تواصل الصـعود حتى مبتـغاها. اليوم، بدأت رونسيه طقوس الاسـتيقاظ كعـادتها. لا تزال على الفراش، وبلاّنتهـا تفتـرش الأرض بجوارها تقـرأ لها الفنجـان بعد أن كبـسّت لها سـاقيـها وقدميها. ستبقى كل منهما في مكانها ساعات الصباح الهادئة، تتحدثان، وتهومان، وتدخنان السجائر. وقع الخطوات الغـريبة، على الدرج الرخامي، جعلهمـا تلتفتان بتوتر كحيوان الغاب الذي يترصد الخطر؛ لكنهما لم تتحركا من موقعيهما وصوت الخطوات يقـترب. همست النـوبية: وداد. أومأت رونسـيه مـؤكدة وقد انـبسطت. دخلت الغرفـة تلهث. وقفت لحظات حـتى تعوّد نظرها على الضـوء الخفـيف بعد شمس النهـار الساطعـة، تلتقط أنفـاسها، بينـما تنظر إليهـا المرأتان، دون اندهاش، وبترحيب صامت غير مبالغ فيه؛ فللخن تقاليده التي لا يجب تجاوزها. خلعت وداد حذاءها بالقرب من الباب وتحركت حافية في المساحة الصغيرة الخالية، وهي تعلم جيداً بعدم وجـود مقاعد أو أي شيء آخر يمكن استخدامـه للجلوس، لكنها كانت

تؤجل الحركة الوحيدة المنتظرة، وهي أن تقفز إلى السرير بجوار رونسيه فلم تكن تعلم كيف حال مزاجها اليوم، وهل سترحب بها إلى جوارها أم تتركها واقفة، لكن رونسيه ربتت على مرتبة السرير النحاسي المرتفع، فقفزت وداد عليه، بينما مدت لها الأخرى يدها بفنجال من القهوة تفوح منه رائحة الهيل .

حينما قررت وداد "اكتشاف العالم" والسفر في الرحلات الفنية (كما أطلقت هي عليها) كانت رونسيه الأولى التي أبلغتها وداد بذلك. قبلت الأمر ببعض الانزعاج، وبكثير من الحدس. غضب البنت انصب عليها. كان عمرها حوالي الثامنة عشرة. الآن مضت أكثر من عشرين سنة على الوفاة التراجيدية لوالدي رونسيه في حادث سيارة.. وبضع سنوات على وفاة جدتها، لتكتشف رونسيه، الآن عمق وحدتها في العالم، حينما غادرت هي بيتها فتاة في الثامنة عشر أيضاً، تحمل جنينها في رحمها هاربة من عشيقها الذي لم يكن يعلم بحبلها منه، لتلد ابنتها، التي لم تخبرها لسنوات طويلة عن أبيها، بل بعثت بها - و ما تزال تحبو - إلى والدها الذي كان "غفر" لها حسب تعبيرها هي الميلودرامي. كان لا يزال يعيش في العاصمة وفي الشقة الكبيرة. وفاة الوالدان - والطفلة في العاشرة - وضعت الأم، مرة أخرى في مواجهة الابنة، التي كبرت الآن، فأخذتها معها إلى شقتها في باريز، - مؤقتاً- لتسلمها بعد ذلك إلى المدرسة الداخلية الباهظة الثمن، ولم تبال كثيراً، حينما أصرّت،الابنة أن تناديها باسمها، وليس بماما. الابنة، التي تعودت منذ طفولتها، أن تقبل الحياة كما تأتي إليها تعرف أيضاً خصوصية وضعها، لذلك، ذات يوم، حزمت أشياءها القليلة، وهربت من المدرسة الداخلية، وانتظرت والدتها على باب شقتها،لتقول لها ببساطة إنها "قررت أن تترك المدرسة وأن تكتشف العالم".. بقيت ليلة واحدة في الشقة، وسافرت في اليوم التالي راجعة إلى "جذورها" حسب تعبيرها. أعطتها أمها عنوان ومفتاح "الخن". واستمرت، تبعث لها بمبلغ شهري يكفي احتياجتها الضرورية، حتى أخبرتها الابنة، أنها وجدت عملاً في فرقة مسرحية وأنها "تشكرها" على المبلغ الشهري، وأنها ليست في حاجة له الآن.

تتعكز رونسيه على بقايا طفولتها ومراهقتها؛ البواب والبلانة وشقة السطح التي كانت تلتجئ إليها، حينما تخنقها الشقة الواسعة.. مثلما تعكزّت على صداقتها برونسي، لتواصل ما انقطع بينهما في ابنتها التي أسمتها على اسمها. تفهم تماماً الآن ما الذي يؤرق وداد، ويغرز فيها ذلك الإحساس المستمر بالقلق وعدم الأمان. لم تكف يوماً عن مواصلة حبها الطفولي لها.. فوداد هي أيضاً كل ما تبقى لها من تلك الأيام التي تنزاح الآن تدريجياً لكن بثبات مدهش ومزعج في الوقت نفسه من ذاكرتها.

تعرف رونسيه، كيف كانت تكسب وداد نقودها. تعرف تفاصيل الرحلات الغامضة المفاجئة لإمارات الخليج. تعرف إحساسها بقدر من الذنب من الطريقة التي تسير بها حياتها.. فلم يكن هناك سوى رونسيه في الأيام الأولى للتجربة، تحكي لها وداد وتنهنه على صدرها وتنتظر منها الزجر والتأنيب. رونسيه لم تزجر ولم تؤنب بل مسحت لها دموعها وهدهدتها في حضنها. قدمت الفهم والغفران بل وأهم شيء كانت وداد تبحث عنه بدون وعي من خلال دموعها.. كيف تواصل حياتها دون أن تنحني أو تنكسر. علمتها أن تعيش حياتين: حياة العاهرة (الغالية الثمن) وحياة امرأة مليئة بالاهتمامات الثقافية والإنسانية، وأن تفصل تماماً بين الحياتين.

ثم أرجعت أبيها لها. غفرت لها البنت كل ما كانت تختزنه ضدها في مخابئها السرية.

نظرت رونسيه إلى البلانة؛ فلملمت جسدها وحاجاتها، وسحبت معها حصيرة وخرجت لتكوع تحت الياسمينة. قالت وهي تنظر إلى عيني وداد:

- سعيد؟

أجابت الأخرى: سعيد

تعرفت وداد عليه، في إمارة من إمارات الخليج حينما ذهبت لأول مرة مع فرقة مسرحية. وجدت اهتماماً غير عادي من المتعهد الخليجي الذي قدمها إلى "الشيخ" باعتباره راعي الفن والثقافة.

تجربتها أيامـها كانت محدودة. لم تكن لها سوى عـلاقات طياري مع الرجال ..كانت تطلق عليهـا "انفجارات صحية".. ثمة خطوبة طويـلة استمرت سنوات، مع واحد، من مـحيطها، هاجـر إلى العراق ليتكسب النقـود التي ستساعده على الزواج. ثم اختـفت أخـباره أيام غـزو العـراق لإيران، واعـتـبـرته السلطات في البلدين، مفقوداً. تأست عليه بعض الوقت، ثم أزاحـته بعيداً داخل علب ذاكرتها وأغلقت عليـه، وواصلت حيـاتها كـممـثلة، تقـوم بأدوار ثانوية وتنتظر أن يطرق الحظ بابها؛ لهذا حينما عرض الشيخ (راعي الفن) أن يستضيفها في دارته الغالية، على شاطيء الخليج، لم تتردد كثيراً في قبول الدعوة .

هناك التقت سعيـد الرشيدي. المصري الوحيد الذي يعـمل في خدمة الشيخ. "مـرافق" لم تستطع أن تحـدد علاقـتـه الغـامضـة بالشـيخ، الذي كـان يرتاح له، ويستمـتع بصحبته. الولد مـهذب لبق متحدث وابن نكتـة. لا يجلس حتى يدعوه الشيخ للجلوس. يشعل له سجائره ويعمّر له كؤوسه.

عاملهـا سعيـد برقة وأدب وحذر؛ فـهي "تبع " الشيخ وكل مـا يخص الشيخ يتعامل معه سعيد برقة وأدب وحذر.. أو هكذا يبدو.

حينـما ملها الـشيخ، بعد شـهر واحـد، كانت لا تزال تقـيم في الدارة على شاطيء الخليج الساحـر، وبدأ سعيد يزورها بانتظام، ولم تسـتطع أن تعرف، ما إذا كانت زياراته، نابعة منه، أو بإيعـاز من الشيخ.. في الحقيقة لم تهـتم كثيراً، بل رحبت بصحـبته التي تنقذها من ملل النهار الـطويل، والانتظار غير المرحب لزيارات الشيخ المتباعـدة. في الصباح يأتي سـعيد بسـيارته اليـابانية الصغـيرة ويحتسي معها القهوة في الشرفـة المكيفة التي تطل مباشرة على الخليج. يتحدثا مع بعضهما بارتياح وحرية، فقد كان كل منهما يعرف جيداً وضع الآخر. لهذا نبتت بينهـما العلاقة الخاصـة، التي تنبت بين مسافرين في الصـحراء، في رحلة طويلة لا يعلم أحد مـتى تنتهي... استـدرجها لتحكي؛ فـحكت دون تحفظ ولم تكذب.. بل لعلها كانت تريد أن تفضفض عن نفسها. لم يقل لها الكثير لكن ما قـاله كان يكفي.. بلدته الصغـيرة. القصة التـقليدية المألوفة عن الفـقر، الذي

يجعلك تضع ثيابك القليلة في صرة، وتنطلق في أرض الله.

سعيد هو الذي أحضر لها مظروف النقود من الشيخ في اليوم الأخير من إقامتها. سلمها المظروف المغلق. لم يقل لها إنه أقنع الشيخ البخيل بمضاعفة المبلغ، ولم يقل لها أنه هو الذي أغلق المظروف الذي ألقى به الشيخ غاضباً على الأرض - كعادته - لينحني سعيد - كعادته - أيضاً ويلتقطه. فقط تبادلا العناوين وأرقام الهواتف وقال لها بصوته الخافت: "ما تنسيش.. إذا عوزتي حاجة.. سعيد الرشيدي جاهز". ودّعا بعضهما بجدية، دون ابتسامات ودون قبلات (بالطبع.. قبلات على مرأى الجميع.. وفي الخليج؟!).

عادت إلى قواعدها في الخن، وإحساس بالسأم يعكّر عليها صفاء أيامها الخالية من العمل والمفاجآت.

اتصل بعد شهرين من الشقة المفروشة التي أجرّها في الحي الراقي.

قال لها:

- باتصل بيكي من المكتب.. مكتبي.

فتح لها الباب بنفسه ودار يفرجها على الشقة وهو لا يخفي إحساساً بالزهو. أعجبها الأثاث الرقيق العملي. كل شيء يبدو جديداً وغالي الثمن. قادها إلى نهاية الشقة وفتح لها الباب المغلق للغرفة الأخيرة.. كان بها سرير كبير عليه غطاء وردي وبجواره مذياع صغير وأباجورة بغطاء وردي أيضاً. ثمة فازة بها زهرات التيوليب الوردية. قادها إلى منتصف الغرفة حيث توجد تسريحة صغيرة. لمحت عليها زجاجة عطرها المفضّل الغالي "أفيون". وقفا ينظران إلى بعضهما في المرآة. لم يلمسها. قال لها: خدي راحتك. حاعمل كاسين وراجعلك.

خلعت ثيابها ببطء (فهي تفهم هذا التعبير المهذب في صيغة الأمر. لم تندهش. كانت تتوقع هذا منذ أيام الدارة على الخليج).

تنظر إلى جسدها في المرآة. امرأة في الخامسة والعشرين. نظرت بتمعن إلى ثدييها ببياضهما المشرب بحمرة خفيفة وقد نفرت الحلمتان واحتقن لونهما كزهرتي التيوليب. هزت شعرها فانسدل على كتفيها. أسود حالك تتخلله خصيلات

داكنة النحاس. يختزن جسدها جمال طبقتها وتهورها. طبقة النخبة القديمة، التي ترعى الجسد، وتصونه، بعكس الطبقة الوسطى التي تمتطي جسدها ليصل بها إلى مآربها. هي طويلة، عبلة، رياضية، حسية.

ترددت هل تزيح الغطاء الوردي أو تستلق فوقه. انحنت تتأمل تطريزه الدقيق. أحست به عارياً يقف خلفها. أدارت رأسها تنظر إلى مرآة التسريحة فوجدته ينظر إليها أيضاً. عدلّت من وضعها قليلاً وتأملت جسده الأسمر القوي العضلات. جسد فتيّ يتوفز بالقوة.

ظل ثابتاً داخلها لفترة من الزمن. تحس به يملؤها. ترغب في أن تعزف موسيقاها وترقص، لكنه ثبتّها بحركة صارمة من فخذيه. مد لها يده بكأسها فاحتست محركة عضلات رقبتها فقط متوازنة بيديها على السرير، بينما تحرك هو بخفة، دون أن يغادرها، ووضع الكأسين بحذر فوق المنضدة الصغيرة بجوار الأباجورة.

فعلا الحب وهما ينظران إلى بعضهما في المرآة.. فعلاه ببطء وتركيز بعد أن نجح في إبطاء إيقاعها ليتوائم مع إيقاعه. فعلا الحب بصمت كامل.

توصلا إلى اتفاق سريع ومريح وبدون لجاجة. في الحقيقة كان الاتفاق فكرته هو وشروطه: إنها امرأته وليس مسموحاً لها أن تنام مع أحد سواه.

قال لها أن فكرة "المكتب" كانت تراوده من زمن طويل. تحويشة العمر، وحلمه منذ أن فهم اللعبة على حد تعبيره. الفكرة بسيطة: سيقوم المكتب بإمداد الزبائن في الخليج "بالبنات". سيجهز المكتب كل شيء؛ تأشيرات الدخول الصعبة لمنطقة الخليج، وبطاقة الطائرة وموعد الذهاب، والثمن المطلوب الذي سيقوم المكتب بتحديده. أما دورها هي فهي السكرتيرة وكاتمة الأسرار، وبالطبع هي التي ستكون حلقة الوصل، بين المكتب والبنات. سوف تحصل على راتب وعمولة، لكن عليها قبل أي شيء أن تبحث لنفسها عن شقة مستقلة (طلب منها أن تترك الحَن) وهو - أي المكتب - على استعداد، لإعطائها مبلغاً على الحساب.

أصغت إليه بذهن غائب. كانت لا تزال ترتعش بعد فعل الحب رغم دخولها

تحت الغطاء. ودت لو احتضنها لوقت قليل.. أن تغفو للحظات فوق صدره.. أن يمسد بيده فوق ظهرها وأردافها. أن يقبّلها ولو قبلة واحدة (فلم يقبّلها منذ اللحظة التي بدأ فيها حتى انتهى).. لكنه يثرثر الآن حول المشروع الغريب وقد تعامل معها باعتبارها قضية منتهي أمرها. غاظها هذا بعض الشيء.. غاظها أكثر استسلامها له دون مقاومة، ولو شكلية. ترى ماذا يظنها الآن؟.. قالت لنفسها وهي تشعل سيجارة.. وماذا يظن نفسه؟ ألم أره يلحس مؤخرة الشيخ ويلهث خلفه ككلب؟

- إيه رأيك؟

تنبهت أنه أنهى ثرثرته وينظر إليها متسائلاً:

قالت وهي تغرز صدرها العاري في صدره، جاذبة إياه إليها، محيطة فخذه بساقها:

- ممتاز

أضافت: عمري ما شفت حاجة حلوة بالشكل ده.

نظر إليها غير فاهم. نزلت بشفتيها إلى صدره تداري ابتسامتها وخجلها من رغبتها، التي لم تتعود الإفصاح عنها من قبل. مسحت بشفتيها نازلة إلى بطنه. تأوه.

قالت لنفسها: الدور عليّ الآن لكي آخذك بطريقتي يا سعيد يا رشيدي.

إلى سعيد الرشيدي أخذت رونسيه بعد أن قالت له إنها أمها. تمعنته رونسيه، كما يتفحص باحث النباتات، نوع نادر سمع عنه، لكنه، لم يصادفه في جولاته الحقلية. تمعنته بفضول واندهاش وتعاملت معه بحذر وتحفظ. هو استقبلها بترحاب تاجر البهائم يحاول أن يعرف عمرها، من خطوط رقبتها، وطبقتها، من شكل أظافرها، وحالتها الجنسية، من لون بشرتها. كان حذراً أيضاً، يعاملها بذلك الاحترام الموروث في طبقته لطبقتها بعد أن قالت له وداد إن جدها لأمها كان باشا ورأس الوزارة أكثر من مرة. تحاشى الثلاثة الحديث عن "الأب الغائب". عاملها أيضاً، بذلك التشفي الخفي، الممتزج بقليل من السخرية، وهو يرى بنات

الباشاوات تكدحن في سبيل الرزق. عاملها أيضاً بذلك الاندهاش، الذي يتعامل به الصبية حينما تظهر لهم الجنية.

لم يحبا بعضهما، لكنهما واصلا التقدير المتحفظ لكل منهما. يفهم كل منهما الحياة، يحاولان أن يحتفظا بموضع إصبع فيها دون أن "يقبضا" الحياة بجدية.

احتارت رونسيه في تقييم علاقة وداد به، وإن احترمتها (العلاقة) واعدة نفسها أن لا تتدخل بينهما. ورأتها طبيعية.. أو كما تقول هي بينها وبين نفسها: نتيجة طبيعية للطرد الطبقي؛ فكل منهما مطرود من طبقته، التي طردها "الوطن" من رحمته.

كفت رونسيه، منذ زمن طويل، كفت عن الحكم على الناس بمعيار أخلاقي، تقول: هل يمكن الحكم على الطبيعة بمعيار أخلاقي أو حتى ديني؟ وصلت إلى قناعة مريحة، وهي أن البشر يتصرفون في الحياة نتيجة لتوازناتهم - أو عدم توازناتهم - الكيميائية والهرمونية. وتضرب أمثلة على صحة النظرية متخذة الاكتشافات العلمية الحديثة المتعلقة بالجرائم.. بأن السبب الأساسي بل والوحيد هو الجينات الوراثية، والكيمياء الداخلية، أو كما تطلق عليها بسخرية خفيفة: السيمياء. لهذا حينما قالت لها وداد، إنها تكسب رزقها من القوادة؛ علّقت رونسيه: إن القوادة ليست فقط في التعريص الجسدي، لكنها موجودة أيضاً، في المنظمات الدولية، والمؤسسات السياسية، والاجتماعية، التي يتعامل بها ومعها، المجتمع الدولي والمحلي بكثير من الاحترام. بهذا؛ قفلت الموضوع.. موضوع وداد المفضل بأنها ضحية ظروفها (ظروف رونسيه) قالت لها: يا بنتي كلنا نتيجة ولسنا ضحايا.

- ما له سعيد الرشيدي؟

أجابت وداد:

- اختفى

نظرا لبعضهما. فهمت رونسيه ما تريده منها وداد، دون أن تفصح. تنهدت ومالت بجسدها، تتناول أجندة تليفوناتها. عقلها يتحرك بسرعة وبنظام كعادتها.

بحثت عن رقم رئيس الشرطة السرية. عثرت عليه. تحدثت بصوتها الطبقي (كما تسميه هي) صوت مترفع وبارد ومتباعد. بضع جمل قصيرة. تحدثت مثبتة نظرها إلى لوحة العاريات، مستحمات على مجرى ماء، ثمة كلب صغير يكاد يقفز من اللوحة التي تملؤها أجساد النسوة اللحيمة العارية.

***

قالت لوداد بعد أن أنهت المكالمة التليفونية "حاعمل كل جهدي". نظرت إليها الأخرى مبتسمة واحتضنا بعضهما لفترة طويلة (رونسيه عقلها يحسب بسرعة؛ لو كانت أمي مثل ما أنا الآن مع بنتي لما حدث ما حدث.تتنهد؛ نحن نتيجة ملعونة).

قالت لوداد إحكي:

"الشغل كان ماشي كويس". مفيش مشكلة. العناوين وأرقام التليفونات وأنواع الحاجات المطلوبة من البنات لمزاج العربان.. كلها موجودة في الكمبيوتر، اللي بغذيه كل يوم بداتا جديدة. سعيد قاللي الشغل زي الفل، ولازم نعمل شركة فيديو. في الأول ما فهمتش عاوز الفيديو علشان إيه. شوية شوية شرح لي فكرته. إمتى الكلام ده؟ من حوالي سبع تمن شهور. أنا بصراحة ما كنتش متحمسة. الشغل اللي بنعمله حاجة وتصويره وتسجيله سراً حاجة تانية. فكرة سعيد إننا ممكن نكسب أضعاف إللي بنكسبه حالياً. بعدين قاللي على فكرته الأصلية من المشروع؛ إننا نمسك حاجات على الزباين. قلتله يا سعيد بهدف إيه؟ قاللي زي ما هما ماسكين علينا حاجات لازم نمسكهم من بيوضهم. ده تعبير سعيد بالضبط وأنا الحقيقة لآخر دقيقة ماتحمستش.. سألته مين هما إللي ماسكين علينا حاجات يا رشيدي. زاغ مني. لكن إنتي عارفة سعيد أو يمكن ما تعرفيهوش كويس، لما يحط حاجة في دماغه. المهم جاب الكاميرات وخباهم في فيللة الشغل اللي مأجرها. كاميرات بتشتغل أتوماتيكي لما باب الشقة يتفتح أو من مجرد الحركة جوه الشقة، وما حدش يعرف أنه بيتسجله صوت وصورة لا من البنات

ولا من الزباين. أول مرة شفت الأفلام. إترعبت بجد على الحاجات اللي بيعملوها في بعض، خصوصاً، زباينا ناس مهمة في مناصب عالية مانتي عارفة إحنا ما بنتعاملش إلا مع العرب والشيوخ والكريم دي لا كريم إللي في البلد؛ وزرا وحكّام، وكله دكاكيني. وفي يوم من الأيام جالي سعيد وهو منفعل على الآخر. سعيد ده أصله حكاية. رأيه أن الواحد في الدنيا يا غالب يا مغلوب ويقوللي يا بخت من بات غالب مش مغلوب. المهم جالي يومها وطلب مني حاجة عمره ما طلبها مني قبل كده قصدي من ساعة ما عشنا مع بعضينا طلب مني أرجع للشغل تاني ليلة واحدة.. مرة واحدة يا دودو وموش حتتكرر. أنا بصراحة زعلت زعل. إبن كلب. شتمته شتيمة وسخة أوي. قلتله المعرص حايفضل طول عمره معرص حتى على مراته وأمه. كنت جامدة أوي عليه. كنت مجنونة. راح معيط. تصوري أول مرة أشوفه بيبكي. سعيد الرشيدي بيعيط زي العيال الصغيرين اليتامى. عرفت حكاية الزبون اللي حاروح معاه. ضابط مهم في أمن الدولة ومش بس كده لكن تجارة سلاح ومخدرات وحاجات تانية.

وإيه اللي رماه على سعيد؟ الحظ بأه. البخت المايل. عرفت كل حاجة من سعيد. إنه الراجل ده ماسك حاجات على سعيد ويمكن يوديه في داهية.. في ستين داهية. حاجات إيه يا سعيد يا رشيدي؟ ما أنا بشتغل معاك وعارفة البير.. وغطاها. ما رضيش يقول بالتفصيل لكن من الحاجات اللي قالهلي عرفت إن الراجل ده عارف حاجات كتير عن شغلنا ومسجّل لنا تليفوناتنا. الأدهى من كده، ودي أول مره أعرفها، إن سعيد دخل في تجارة السلاح. يبيع سلاح للي بيدفع. جماعات دينيه من الناحيتين. أنا إترعبت. بصيت لقيت نفسي، وسعيد كمان داخلين في الغويط. في حدوته ما لهاش أول من آخر. المهم. طيب وطلباته إيه سعادة الباشا؟ عاوز يقضي ليلة معايا، وإنه أقسم إنه موش حاينام معاكي. وإشمعنى معايا أنا ياعم سعيد؟ لا ياحبيبي ده عاوز يذلك .. يكسر عينك. عارف إني بتاعتك وما بنزلش الشغل. المهم وافقت على عيني. سعيد قاللي حنسجله ونصوره ونبقى إحنا كمان ماسكينه من بيضانه. ده تعبير سعيد المفضل. أنا بس

حبيت أديكي فكـرة ولو بسيطة عن سعيد اللي مـا تعرفيهـوش. رحت الشقة وأنا قرفـانة. سبـقت أنا على الشقـة، وهيأت الجـو. جه هو بعد شـوية ومن أول لحظة شفته كرهته. كان معاه شنطة من بتوع الرياضيين معلقها على كتفه ولابس ملكي. لأ.. مش كبير يمكن خمسـة وأربعين خمسين طويل وعريض ورياضي لكن وشه يا رونسيه.. وشه يخـوف، حتى لما ابتسم، أو عمل نفسه بيـبتسم كان زي الذئب. المهـم راح فاتح الشنطة، ومطلع منهـا حبل وكرباج. أنا أول ما شـفت ده خفت كنت عاوزه أمشي. ألغي المعـاد من أصله. هو فهم بسرعة. ضـحك ضحكته اللي عاملـه زي النواح. قاللي مـاتخفيش يـا ست الكل. ما خافـش إزاي؟ أمال ده إيه ده؟ قاللي الحاجـات دى علشانه هو مش عاشاني أنا. فـاهمة يا بنتي؟ فـهـمت طبعـاً. مانا شـفت حاجـات زي ده وأفظع في الأفلام اللي بنـصورها في الشـقة. قلعت قدامـه ولبست قـدامه. ركع على الأرض يلبسّني الجـزمة وباسها. بعـد ما خلصنّا وهو خارج بص لي بصـة تخوف. رجع الضابط تاني قـاللي وهو ماشي، قوللي للمعرض بتاعك كله تمام وحقابله بكره في المكان اللي هو عارفه. بصراحة دمي نشف. قلت لسعيد على كل حاجة على كل اللي حـصل. سعيد كان منفعل على الآخر وقام يرقص ويهـتف دنيا فونيا والزمن كبـأس. بعديها بأسبوع سـعيد اختـفى. خرج في مـشوار عـادي وكان بينا مـيعاد نتـعشى سـوى في المطعم اللي بنروحـه دايماً. رحت وانتظرته ما جـاش. روحت البـيت. بيت سعـيد مـا لقيـتش حـاجة في الآنسـر ماشين. تـاني يوم نفس الشيء. دورت عليـه في كل حتـه عند قرايـبه وأصحـابه وفي المستـشفـيات وحـتى في المشرحـه. فص ملح وداب.. أنا بصراحه شاكّه في الضابط ده.

***

جلست رونسيه على الكرسي الفوتيـل المريح سيء الذوق (منجد بالقطيفة ومطلي بالذهب) في الغرفة الواسعة المكيفة الهواء بالطابق العشرين في "البرج" المشيـد في الجزيرة، التي يحـيطها النهـر. احتل هذا الطابق وطابق آخـر مكاتب

"أمن الجمهورية العسكرية الديموقراطية - قسم النشاط الملكي" مهمته الحقيقة متابعة "الملكيين" وتحليل حركتهم واتصالاتهم.

تطل نوافذه على النهر، وعلى النادي "الجزيرة" العريق، الذي أغلق أبوابه منذ زمن طويل، أمام معظم الناس، وفتحها لأفراد الطبقة الجديدة، الذين أثروا من المضاربة في الأراضي، وبيع السلاح، وشحنات الطعام والشاي الفاسد.. البرج نفسه قبيح البناء، به مطعم دوار وشرفة في أعلى مستوى فيه، يؤمها السائحون الذين يأتي معظمهم من الأحياء الفقيرة في المدينة، ليلقوا نظرة على الفردوس المحرّم. رونسيه تكره البرج لكنها تحب الجزيرة، حيث قصر أسرتها الذي تحول إلى مقر لأحد الوزراء. تستطيع من مقعدها الآن، دون أن تدير رأسها كثيراً ناحية اليمين، أن ترى القصر وتلمح الأشجار التي طالما..

- أهلاً بالدكتورة

انتبهت على الصوت الأجش، وعلى صاحبه، الذي دخل عليها الغرفة من باب جانبي. يرتدي حلة غالية من أرماني (هكذا تبينت) قدرت ثمنها بسرعة، في رأسها، وهي تبتسم له، مادة يدها دون أن تنهض من مقعدها (أو حتى تتظاهر بذلك).. خمسة آلاف دولار، لكنها قررت أنها موضة العام الفائت، وأحست بالشماتة التي تحس بها دائماً حينما تراهم مهما حاولوا أن يلحقوا بطبقتها (التي أطاحوا بها باسم العدالة، والاشتراكية النابعة من تراثنا).. لن يلحقوا بها، فدائماً تفوتهم تفاصيل صغيرة لكنها مهمة. تفاصيل تأتي في الدم ولن يمكن لأحد (من طبقات أقل) أن يكتسبها بالمران!

رجع وجلس خلف مكتبه الخالي من الأوراق. يعبث بقلم حبر باركر من الذهب الخالص، قدّرت ثمنه، وهي ترد بأدب وبنصف ابتسامة محسوبة ومتعمدة:

- أهلاً بالباشا

تعرف أيضاً ولعهم بالألقاب الطبقية (التي ألغوها) ولا يرضيهم أقل من لقب باشا. تتذكر باسمة وهي تنظر إليه أنه واحد من الحرس القديم. أيامها حينما اقتحموا

قصر والدها (للاستيلاء عليه) لعله كان في منتصف العشرينات من عمره لكنها، تذكر اليوم والتاريخ بالضبط.. تذكر حتى الملابس التي كانت ترتديها وهي فتاة السادسة عشر. دفع والدها رشوة كبيرة للجهة المسؤولة عن الاستيلاء على قصور وممتلكات (أعداء الثورة) فأغمضوا أعينهم عشرين سنة، صعد خلالها الأب بسرعة في دهاليز السلطة الجديدة؛ خبير في القانون الدولي. نال الثقة الحذرة التي يتعامل بها العسكر مع المدنيين. حسم أمره ونقل "مضاربه" للنظام الجديد. فهو خريج أكسفورد؛ هكذا ظل يحتفظ بقصره ومنصبه كمستشار للرياسة في شؤون العلاقات الدولية. جاء اليوم الذي رأى فيه واحد من الدائرة الضيقة للقيادة قصره، وحلى في عينيه. كانت الرشوة قد مضت عليها السنوات الطويلة ولعل من أخذها مات ولم يشفع للأب ولاءه وإخلاصه، وجاء اليوم المتوقع منذ زمن طويل لكي يسلم القصر وينتقل إلى شقة. وتنقل القصر بين عدة أيدي حتى استولى عليه الوزير الحالي.

قال لها وهو يضحك:

- إحنا باشوات آخر الزمن وإنتوا باشوات زمان .

قالت ضاحكة، تعني كل كلمة وعبارة مستترة:

- إحنا السابقون وأنتم اللاحقون.

رغم أنه ضحك، إلا أن المعنى المستتر لم يفته. سألها، لا يزال يدير القلم الباركر بين أصابعه:

- إيه أخبارك؟

هي التي كان عليها الدور الآن لتتنهد:

- وحشه

- بيقولوا علينا إيه أصحابك؟

كان يقصد الإدارة الأمريكية التي بدأت في الآونة الأخيرة ترسل إشارات، تنبيء "عن قلقها العميق" بسبب التوتر والمعارك الدائرة بين "الحكم" والتشكيلات الإسلامية والمسيحية المسلحة.

- مش عاجبهم اللي بيحصل. مش عاجبهم موضوع الفساد وناويين يفتحوا

ملفاته في الميديا. حاجات كثيرة مش عجباهم وخصوصاً ما أصبحتوش الآن مفتاح المنطقة، بعد السلام مع الفلسطينيين وإنهاء المقاطعة لإسرائيل. فيه لعيبة جدد، على استعداد للعب دوركم وبتكلفة أقل. ما تنساش كمان، جماعات الضغط المسيحية في المهجر، في أمريكا بالتحديد . أقويا جداً هناك. ليهم اتصالات.. مصالح مع بتوع البترول، وبتوع الميديا.. صنآع القرار في البيت الأبيض وفي الكونجرس.. ونصهم صهاينة زي مانت عارف.

تنظر إليه تحاول أن تقرأ ردود أفعاله وخاصة بالنسبة لجماعات الضغط وهل فهم الرسالة أم لا.

لم يبد عليه أي انفعال. لم تكن تتوقع أي انفعال منه. قالت لنفسها: سنوات من التدريب على إخفاء الانفعالات مثل المقامرين، لكن سوف نرى كيف يمكنهم إخفاء انفعالاتهم وهم يستقلون الطائرات مهرولين للمرة الأخيرة، ليست معهم، سوى أرقام حساباتهم السرية في بنوك سويسرا.

قال لها وهو ينظر إليها مباشرة:

- والحزب الملكي أخباره إيه؟

كانت تتوقع السؤال. بل كانت تعرف أنه السؤال المركزي الذي تلف حوله جميع الأسئلة. رجعت بظهرها إلى المسند العريض للفوتيل مدركة أنها بحركتها هذه، سحبت طرف جونيلتها الضيقة (إيف سان لوران) إلى منتصف فخذها تقريباً. فخذ أسمر قوي اكتسب سمرته من سمار جسدها الأصلي الضارب إلى الذهبي المشرّب بحمرة الصحة والرياضة والاعتناء المستمر من امرأة (في نهاية الأربعينات) بجسدها الذي تحمله بكبرياء.. لعلها الكبرياء الأخيرة التي بقيت لها. لم تبال بعينيه على فخذيها.

- الحزب الملكي؟ بدأو ينظموا نفسهم أحسن من زمان. بالك إزاي فرانكو رجّع الملكية تاني لأسبانيا؟

لم يقل لها إنه يعرف أنها "موجودة" داخل الحزب الملكي. هي تشك لكنها تعرف احتياجه لها، الآن، وبعدين.

- الجماعة يؤيدونه؟

كلاهما يعلم أن اصطلاح "الجماعة" يعني جماعات الأقباط في المهجر والأقباط في الداخل.

- موش كلهم. بعضهم يؤيدونه، لأن لهم مصالح.

اعتبرت أن الموضوع قد أغلق، وعليها أن تبدأ جانبها من الصفقة.. من الغرض الحقيقي للزيارة. هو أيضاً يعرف ذلك. تحت أمرك قالها وقد سحب بخفة درجاً على يمينه أسفل سطح المكتب مباشرة. تعلم من خبرتها أنه وضع جهاز التسجيل على أهبة العمل. اعتدلت في جلستها وشدت بعنف مقصود طرف جونيلتها مغطية فخذيها إلى ما قبل الركبة بقليل. الكلام اللي حاقولله مش للتسجيل. آوت أوف ذى ريكورد.

هز رأسه موافقاً. أغلق الجهاز. قام بخفة مفاجئة من خلف مكتبه ووقف بجوارها ناظراً من النافذة. حينئذ حكت له الحكاية التي حكتها وداد لها مع بعض التعديلات، وإغفال متعمد لبعض التفاصيل.

لم يغير من وقفته ولم ينظر إليها مرة واحدة طوال سردها للحكاية.

قال دون أن يلتفت إليها: "الموضوع يبدو إنه فيه سلاح.ده أخطر حاجة في الموضوع.. سيبك من الحاجات التانيه. دي فكه". إنتابها إحساس بأنه يعرف أكثر مما يظهر. لكنها تعرف قواعد اللعبة، فهي بنت الباشوات القدامى الذين وضعوا القواعد.

سألته وهي خارجة:

- إمتى أعرف أخبار عن سعيد؟

قال لها:

- إديني أسبوع. وبالمناسبة يا دكتوره، عندي مشوار لنيويورك الأسبوعين اللي جايين؛ تحبي توصيني بحاجة؟ فهمت ما يريد أن يقول: أنه يريد "اتصالاً" قالت له بصوتها الطبقي: أول ما تتصل بي بخصوص أخبار سعيد، حاكون مجهزالك كل طلباتك. تضاحك هو معجباً بذكائها وحذرها.. سيبي وأنا أسيب.

تضاحكت هي:

- سيب إنت الأول وأنا أسيب .. يا باشا!

رونسي.. أيضاً

أقول له ياحبيبي أحبك رغم بلاهتك وعدم وسامتك (لا أستطيع أن أقول له رغم دمامتك) دائماً كان يسألني تحبينني يا رونسي فأقول له أحبك رغم بلاهتك وعدم وسامتك ياحبيبي.

ما الذي يجعل واحدة مثلي تحب واحداً مثله. في البداية لم أكن أحبه كنت أعاني فقط من الملل في الإجازة. رأيته أول مرة في الكنيسة، يتثائب أثناء الموعظة الطويلة لبابا. أنفه الكبير لفت نظري. حاولت أن التقط صوته أثناء الترتيل لأعرف درجة بلوغه، فقد كانت ذقنه لم تجر عليها الموسى بعد وزغب خفيف فوق شفته العليا، يحسس بإصبعه عليه بين وقت وآخر، مما يجعلني أريد أن أضحك، وأفكر في الوقت نفسه، في الشعرات البنية أسفل خاصرتي، تمتد من تحت السرة بقليل، في شريط رقيق لتتسع في مثلث ناعم ومتسق. شعر رأسه الأسود الأكرت القصير يعطيني الإحساس، بأن شعره هناك، قصير وأسود ومجعد، مثل شعر الجنايني، في المدرسة الداخلية، الشتاء الماضي، حينما ضبطته مقعياً، يغتسل من حنفية الحوش ذات عصرية، وكنت مريضة في غرفة العيادة، المطلة على الحوش، أطل من النافذة يأكلني السأم، بقية البنات في صالة الطعام يتناولن عشاءهن. لعله كان في الثلاثين. نحيل وقصير القامة وأسمر داكن البشرة، حتى حينما شد جلابيته إلى أعلى، أنزل سراوله الطويل. ليس هناك فرق في درجات السمرة بين فوق وتحت. رأيته قائماً أسوداً. أعلم هذا الإحساس البالغ الخصوصية للحظة التي يقرر فيها واحد آخر أن يأخذ عذريتك منك، ويحولك من أبله ساذج إلى فاهم وعارف. لكن قبل ذلك كله لابد من التعميد

بالنار والعسل. الإحساس الذي إنتابني وأنا أتسلل بالليل، إلى عشة الجنايني، كما فعلت الليدي شاترلي. لكنه كان ميت من الرعب، وأنا بشعري المحلول وقميص نومي الأبيض حافية، وقد بلل الندى وجهي. أو لعلي كنت أقرب إلى أوفيليا، ينظر إليّ بعينين، إبيضتا من الخوف، لا يلمع غيرهما في العشة المظلمة، مع إني انتظرت حتى نامت الداخلية، وكنت أنا أرتعش أيضاً مثلما يرتعش هو وقد أجلسته على حافة الكرسى، أعمده بمائي وناري وعسلي وأنا أتأمل جماله، واتساق خطوطه وحكمة الطبيعة في بهاء مجدها واكتمالها. مثلما تنفث التنانين النار من فيها؛ ينبجس من فمي العسل، من ريقي، والنار من دلتاي، حينما يلتحم النهر بالأرض حافراً في منتصفها مجراه تحيطه عشب الشعر البني الناعم، تتموج أطرافه مع الموج وإيقاع الجسد

* * *

يجلس القسيس والد رونسي، والتي كبرت الآن وأصبحت في منتصف العمر كما يقال.تعافر مع العالم، ومع من تبقى لها من أصدقاء ومحبين وعشاق. يجلس القسيس في غرفته الصغيرة، وقد فتح نافذتها على العالم، الذي قرر الانسحاب منه. ليس كله، بل ذلك الجزء الصغير منه، الذي لم يعرف سواه. كنيسته، ومن يأتي إليه، وإليها. أولئك الذين يتعبدون في كنيسته، يتناولون بين وقت وآخر جسد المسيح ودمه. يعترفون أمامه بخطاياهم، ثم يعاودون ارتكابها من جديد. وخلال سنوات من الاستماع لخطايا البشر، يستطيع الآن أن يختصرها في في شيء واحد: الطمع. الرغبة في الاستحواذ. أن يحصل الإنسان على شيء لايخصه؛ مالاً، أو جسداً. لذائذ صغيرة غير مكتملة، وغير مروية. دائرة متكررة، من ارتكاب المعصية، والندم، ثم ارتكابها من جديد.

بدأ يحس بالعجز. قاده هذا الإحساس إلى نوع من الكآبة، وقاده "هذا النوع من الكآبة" إلى ساعات طويلة من التأمل.

لكن ما الذي يجعل "شخصاً" ما يغيّر من "طريقة وأسلوب" تعامله مع

محيطه الاجتماعي والديني. هـذا المحيط الذي يتضمن بالأساس، الأسرة والأهل والأصدقاء. الحلقة الصلبة المتماسكة برابطة الدم والديانة، والعلاقات، خاصة في منطقـة كهذه، حـيث يتم التـعرف على ديانة شـخص ما، من مـجرد اسـمه. هذا "الشـخص الما" في هذه الحـالة، ليس "مـا" بل أنه واحد من "أعـمدة" مجتـمعه الصغـير، الذي يتحرك فـيه يومياً. يتـعامل معه، بنوع من الاحـترام الخاص نتيـجة "مكانته" الدينية. هذا الشخص "الما" عاش طوال حياته العملية، حتى فترة مؤخرة قصيرة، يبشر بتعاليم دينه الذي نشأ عليه، وأجداده، وأسلافه منذ قرون طويلة.

الآن، وهو على مـشارف السنوات الأخـيرة من حـياته، يتـخذ لنفـسه مـساراً مخـتلفاً (تماماً) عن مسـاره القديم. لكن هل هذا صحـيح هل هو مسار مـختلف (تماماً)، وهل تم هذا فجأة، كما ظن الناس حتى أقرب المقربين له؟

لكن هل هذا صـحيح أيضـاً؟ تعبـير أقـرب المقربين؟ وهل يعـرف أحـد من هؤلاء (المقربين) ما الذي يـدور في عقل شيخ في السبعين أو لعـله في الثمانين؟ يعـيش، وحيـداً، في قرية صـغيـرة في جنوب الوادي بعد أن مـاتت زوجتـه، منذ سنوات، وأخذت معـها إلى قبرها، أسراره الخـاصة التي كان يُسر بهـا إليها، وهو يحتسي معها قهوة العصاري، محاطاً بصور ابنته الوحيدة، وكتبه وأوراقه. أو لعل هذا لم يـحـدث عـلى الإطلاق؟ لم يُسر إليـها بَشيء مما يعتـمل داخل عقله من شكوك وتسـاؤلات؟ وطوى صدره الشيخ الواهي على أفـكاره الداخلية السرية؛ شفـقة مـنه عليهـا. أو لأن الفجـوة اليومـية قـد ازدادت عمـقاً بينهـما، ولـم يـعد باستطاعة أحدهمـا تخطيها، أو مد يده للآخر. فجوة من الـصمت تملؤها تفاصيل الحـياة اليومـيـة والخطابات التي وصلت أو لم تـصل من الابنة وأخـبار الرعـيـة وأسعار الطعام والكـهرباء وحوادث الصحف والصلاة اليومـيـة قبل تناول الطعام ورتق الثياب القديمة والبحث عن فـردة جوارب ضائعة ونظارة القراءة وماذا تحب أن تتناول في الغذاء.

ويخلو البـيت بعد مـوت الزوجة، الـتي نامت تحت سقـفه (وسـقوف بيـوت أخرى كثيرة، خلال مصاحبتـها لزوجها، في رحلة حياته) أكثر من أربعين عاماً أو

لعلها خمسين، فحتى الابنة نفسها، لا تعرف بالتحديد، وتحاول أن تحسب سنوات زواجهما بعد أن تطرح عمرها وسنة من الحبل حسبما تتذكر. ويخلو البيت الصغير في القرية الصغيرة، الملحق بالكنيسة الصغيرة التي تؤمها الرعية الصغيرة. ويظل هو يواظب على عاداته في الاستيقاظ مبكراً وحلاقة ذقنه كل صباح وارتداء قميص نظيف بعد أن يلمّع حذاءه الجلدي القديم البني في أيام الأسبوع العادية والأسود، في أيام الآحاد، ويشد حمالات بنطاله المثبتة بالأزرار الحديدية، في كمرة البنطال، من الصوف الأصلي، الذي ما زال يحتفظ بجدته، وإن أصابه بعض اللمعان عند ثنية الركبة، وفي المقعدة، ثم الصديري الذي من لون البنطال. والجاكتة من التويد المضلع، في الشتاء، في الأيام العادية والسوداء السادة في أيام الآحاد. البنطال القطني مع الحمالات، والقميص المقلم في الأيام العادية والأبيض أيام الآحاد مع ربطة العنق التي لاتتغير صيفاً وشتاءاً ربيعاً وخريفاً، والجاكت القطني بالبطانة الحريرية من ذات لون الجاكت بزرارين، وجميع الثياب مغسولة ومكوية، قامت بذلك الزوجة وتقوم بها الآن الأرملة المتوسطة العمر، والتي عرضت خدماتها بدون حياء في ذات اليوم الذي ماتت فيه الزوجة، حينما أتت نساء الكنيسة ليغسلنها ويلبسنها ثوبها الأسود السابغ المثبت فيه وردة حريرية قرمزية والذي تعودن أن يرونه فوق جسدها الضامر أيام الآحاد. رتبت الأرملة غرفة النوم والسرير النحاسي الكبير الذي تفوح منه رائحة الموت ورائحة الحياة. جاءت مبكرة في اليوم التالي وجهزت له شاي الصباح مع لقمة من الخبز الشمسي والجبن الأبيض عديم الملح ومعلقة من عسل النحل. شمسّت مرتبة السرير وقامت بغسل أغطيته ووضعت أغطية نظيفة تفوح منها رائحة الصابون الرخيص تناولتها من الدولاب الكبير، وخرجت وعادت ثانية ساعة الغداء بطعام طبخته في بيتها الذي لا يبعد سوى خطوات عن بيت القسيس، وانتظرت صامتة في المطبخ حتى أنهى أكل اللقيمات القليلة، التي راقبته، وهو يمضغها بصمت وتمهل بأسنانه القوية البارزة بعض الشيء، والتي بقي الكثير منها في فمه، ثم تناولت الأوعية الفارغة، وغسلتها، رجعت ثانية في المساء حيث كان هناك الكثير

من الرجال من الرعية، يجلسون في صمت يقطعه أحياناً سعالهم، فجهزت لهم القهوة (التي احتسوها بصوت عال) ومسحوا بظهور أيديهم، شفاههم، وشواربهم، وهم يهمهمون "المسيح يعزيك" فيهز هو رأسه صامتاً جالساً منتصباً كعادته على كرسيه الخشبي بمسند الظهر العالي وتحت أردافه حشية مطرزة حال لونها وضعتها الزوجة منذ زمن طويل حينما اشتكى ذات صباح بعيد مغمغماً من البواسير. وانتظرت الأرملة في زاويتها الجديدة في المطبخ المعتم صامتة، أيضاً، حتى انصرف الرجال فلمّت الفناجيل والكوبايات التي شربوا منها القهوة، وغسلتها جيداً بالصابونة التي وجدتها في المطبخ وعلقتها في المطبقية حتى يتصفى ماءها، ومسحت يديها في طرف فستانها الواسع الأسود، وجائت إليه وهو في مكانه على الكرسي وسألته إذا كان عاوز حاجة تاني، فهز رأسه شاكراً ونظرت هي لحظة طويلة إلى نظارته الذهبية المستديرة المعلقة على كوبري أنفه المستقيم البارز بعض الشيء وإلى شعر رأسه الأبيض القصير المحلوق بشكل منتظم وإلى شاربه الأبيض القصير أيضاً وإلى ذقنه التي لم ينس حلاقتها في يوم الدفن وكررت سؤالها وكرر هو نفيه وشكره.

وجائت في صباح اليوم التالي والأيام التالية. ويتقبّل هو هذا الوضع ويعطيها بعض النقود لشراء الطعام ولوازم البيت، ولم يتخل عن عادته في الاستيقاظ وارتداء ثيابه والخروج إلى الأماكن التي تعود أن يذهب إليها.

* * *

حينما وصلت رونسي بعد أسبوع من الدفن (فلم تستطع أن تحضر في يوم خروج أمها النهائي من البيت لأن البرقية التي وصلتها على عنوانها، في نيويورك، انتظرتها حتى عودتها من المكسيك، حيث كانت تحضر هناك مؤتمراً من تلك المؤتمرات التي تنظمها الأمم المتحدة التي تعمل بها) قبلّته، وجلست صامتة بجواره، تحس بالذنب الذي يحسه الأولاد والبنات الذين يتركون بيوت والديهم، ويستقلون بحياتهم بعيداً عنهم. ومع أن الصلة لا تنقطع كلية إلا أنها تضمر مثلما

تضمر عظام الوالدين. هذا الإحساس الذي يتحول، من الذنب، إلى الغضب ونفاذ الصبر، ومحاولة البحث عن كلمات للاتصال، والعقل يعمل باتجاه مختلف الآن، وسريع، في حساباته؛ هل أطلب منه أن يأتي ليعيش معي وهل يقبل وإذا قبل فما الذي سيحدث لحياتي التي انتظمت بعيدة عن حياته منذ سنوات طويلة، وإذا رفض، فمن سيرعاه الآن. لكنه يدهشها هو الذي لم يتوقف عن دهشتها منذ أن قال لها ذات مساء وهي ما زالت بعد مراهقة بضفيرة وجوارب قصيرة أن عليها أن تتعلم كيف تتعامل مع جسدها بحب، وتحترم عقلها؛ لأن الجسد والعقل هبة الله. حينما كان في تلك الأيام يستيقظ مبكراً ليمارس تلك التمرينات التي سألته مرة عن معناها فشرح لها فلسفة اليوجا والعلاقة المعقدة القلقة بين الجسد والعقل والروح.

يجلس الآن مرتدياً الثياب التي تعرفها (وهي مغمضة العينين) حسب أيام الأسبوع وقد ألقت الأباجورة اليابانية التي اشترتها له خصيصاً من طوكيو. ضوئها الرائق على جانب وجهه وجزء من نظارته الذهبية وعروق رقبته التي ودت لو مالت عليها بوجهها تنتحب. ولعله أحس إذ نظر إليها مبتسماً ووضع يده الكبيرة الناعمة بشكل غريب فوق رقبتها، فتميل على اليد، بجانب وجهها وشفتيها، وهي تفكر، كيف أنها حينما عرفت بوفاة الأم، وجف قلبها على أبيها، وليس حزناً على أمها، لكنه يرفض عرضها قبل أن تنطق به، ويقول إنه سيواصل حياته كما واصلها طوال السنوات الماضية. وتمسح أصابعه الناعمة القوية خدها والدموع التي تساقطت ببطء عليه.

الآن تجلس في السيارة وسط زحام المدينة تفكّر بنوع غريب من الهلع كيف أنها لم تعرفه أبداً وتقول لرفيقها الذي يقود السيارة بتركيز وحذر دون أن يسألها: تصوّر! كنت أظن أني قريبة منه أعرف كيف يعمل عقله، والآن أحس بأني غريبة تماماً عنه مثل غربتي عن أمي التي اعتبرتها اعتيادية وبسبب قربي منه. وتصمت هي لتقول كأنها تحدث نفسها: هذاالرجل العجيب. ويتابع هو تفكيرها ليقول لها عجيب؟ لماذا؟ ويصمتان ليسألها فجأة ذلك السؤال الذي

أراد أن يسألها إياه منذ أن أخبرته وكيف عرفت هي؟ فتقول إنه هو الذي أخبرها بالتليفون هذا الصباح حيث سافر من القرية إلى المدينة المجاورة وكرى غرفة في الفندق الوحيد هناك، منذ ليلة أمس، وتحدث معها هذا الصباح بالتليفون.

الشيخ المنتظر، الآن، في الفندق الوحيد، في تلك المدينة الجنوبية، ينتظر ابنته الوحيدة. فالشيخ الجالس منتصب القامة في البلكونة الصغيرة الملحقة بغرفته الصغيرة والتي تطل على حركة الشارع البطيئة، وعلى جزء من النهر لم يكن في الحقيقة مهتم بأن ينتظر أحداً، وأخبر ابنته بقراره في التليفون، في صباح هذا اليوم بعد أن قضى ليلة مضطربة بعض الشيء؛ لأنه لم يتعود أن ينام خارج فراشه، وسريره، وملاءاته، وروائحهم، التي يألفها، وإن لم يكن يحبها بشكل خاص؛ أنه أيضاً حينما أخذ حوائجه القليلة الضرورية من بيت الكنيسة لم يخبر الأرملة عن رحلته، أو وجهته، ولم يخبرها بالطبع، ولم يخبر أحداً أيضاً، بقراره، الذي أدهش ابنته، وأربكها (التي اكتشفت أن عليها أن تعرف والدها من جديد مرة أخرى قبل فوات الآوان) كذلك لم يذهب إلى أي مكان في المدينة منذ أن وصلها، إلا هذا الفندق.

ولم يكن يؤجل ذهابه إلى أي مكان، لأنه لم يكن بحاجة أن يذهب إلى أي مكان ليعلن للناس ما قرره. الرب .. هو المسؤول الوحيد، عن هذه العملية وأنه قدم نفسه إليه، منذ زمن بعيد، وكرس حياته له، ويعتقد، أن من حقه (الشيخ) وخاصة بعد العلاقة الطويلة المعقدة، بينهما، أن يتعامل (معه) بالطريقة التي يحبها (الشيخ) وليس بحاجة إلى إعلان ذلك على الملأ. لا على زملائه، ولا على أي شخص. زملاؤه الذين تفوح منهم، رائحة النوم، والطعام الرخيص، الذين سيأخذون الموضوع باعتباره شخصياً؛ وأنه (الشيخ) قد أصابه عته الشيخوخة. طوال عمره، وما تبقى منه، يحتقر صغار تصرفاتهم وأفكارهم. إنه يعرف التعامل (معه).. التعامل الذي أخذ وقته، من الشد والجذب، حتى استقرت قواعده.

الآن يجلس في البلكونة الصغيرة، لاينتظر أحداً بعد أن هجر بيت الكنيسة التي أنهى علاقة عمله بها. ترك بيت الرب، ليذهب إلى فندق، عامة الناس.

مزاج الكتابة ـ أمستردام
١٥ نوفمبر

أتابع بدهشة وتقزز إعدام الشاعر والمسرحي النيجيري وتسعة من زملائه شنقاً على يد العسكر في نيجيريا. هؤلاء ليسوا "جماعات" طامحة في الحكم ، لكنهم من المدافعين عن البيئة. سياسيون يؤمنون بالحل السلمي. التليفزيونات الغربية "الرأسمالية" غطت القضية وأعادت بث فيلم تسجيلي قصير عن المحاكمة. القاضي الذي يجلس في الوسط بدين يرتدي الثياب الأوروبية الداكنة ويضع على رأسه برنيطة مضحكة يبدو أنهم بعد الاستقلال قلدوا القضاة الإنجليز الذين كانوا يستعمرونهم واستعاروا برانيطهم، لكنهم "تمسكوا بقوانين الغابة النابعة من تراثهم وتقاليدهم" وقذفوا في البحر القوانين التي يتعامل بها الخواجات. يذكرني هذا بالمحكمة "الشرعية" التي أقامها نميري منذ بضع سنوات في السودان قبل الإطاحة به لمحاكمة شيخ طريقة صوفي عجوز(في الثمانين) اسمه محمود محمد طه؛ حينما أعلن أنه لن "يبايع" نميري خليفة للمسلمين. حكمت عليه المحكمة بالإعدام شنقاً ووضعوا جثته في طائرة وألقوا بها في البحر! كنت في السودان بعد الإطاحة مباشرة بنميري، أعمل لحساب القسم العربي في الإذاعة الهولندية. تابعت المحاكمات التي أقامها "النظام الجديد" ضد أعمدة نظام نميري الذي أعطته القاهرة حق اللجوء السياسي.

أرجع إلى المذكرات التي كتبتها. مقتطفات منها كما يلي:

"في سجن كوبر تم شنق محمود محمد طه قبل سبعين يوماً من الإطاحة بنميري. طه هو مرشد "جماعة الإخوان الجمهوريين" كان صديقاً لنميري وجاء

الخلاف حينما أعلن نميري أنه سيحكم بـ "شرع الله"، فأصدر قرارات سبتمبر١٩٨٢ بقطع أيدي السارق وجلد السكارى ورجم الزناة. أعلن طه أن قرارات سبتمبر باطلة. قال: "لا يمكن تطبيق الحدود في بلد يعيش فقيراً. على الحاكم أن يوفر أولاً للرعية كفايتهم وله الحق بعد ذلك أن يطبق الحد عليهم". قدمه نميري إلى المحكمة بتهمة "الحض على كراهية النظام". تطورت المحاكمة لتحاكمه بتهمة "الردة والكفر" بعد أن أعلن أن بيعة نميري باطلة. في سجن كوبر ذات صباح سيق محمود محمد طه مكبلاً بالسلاسل إلى المشنقة. أخفوا جثته. قال لي واحد من أتباعه أنه سمع أن العسكر ألقوا بجثته في البحر. وقيل إنهم قذفوا بجثته من الطائرة إلى الصحراء. لا يعلم أحد مكان قبره". من المذكرات أيضاً "شاهدت اليوم فيلم مسجل على الفيديو منقول عن التلفزيون السوداني عن "إعادة" محاكمة أتباع محمود محمد طه، بعد أن أعلنوا "توبتهم" وتكفيرهم لمحمود طه. الفيلم من عهد نميري. القاضي اسمه المكاشفي. يقال إنه ينتمي إلى الجبهة الإسلامية بقيادة الترابي "أتوا بهم مقيدين في السلاسل. سلاسل طويلة ثقيلة تغل ما بين أقدامهم وأيديهم. الغرفة مليئة بالجنود والعسكريين. القاضي يجلس على المنصة. ملتحي يرتدي الثياب الأزهرية. على يمينه ويساره - كما صرح هو - "مجموعة من العلماء" يرتدون الثياب الأزهرية. يضع أحدهم على وجهه نظارة سوداء. أمامهم زجاجات المثلجات وأكواب الماء البارد والشاي.المراوح تدور في السقف والعرق يتصبب بوضوح من الوجوه. "السجناء الأربعة بثياب السجن. وجوههم غائرة. شعر رأسهم أشعث. لحاهم نابتة. قدم القاضي ورقة مطبوعة لكل واحد منهم ليقرأ صيغة التوبة الرسمية الشرعية. كما قال القاضي الذي أضاف "وتكفير محمد محمود طه الذي أماته الله شنقاً في سجن كوبر"المساجين يقرأون بالدور. كل واحد وجهه مدفون في الورقة. قرأ القاضي التماسهم إلى رئيس الجمهورية وطلبهم العفو عنهم من عقوبة الإعدام. "جاء دور مسجون اسمه عبد اللطيف عمر حسب الله. رفض تكفير طه. ثار جدل طويل بينه وبين القاضي و"العلماء" الذين آزروا القاضي. حجة المسجون أن

إعلان الإسلام هي شهادة "أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله"، وضرب مثلاً بذلك يوم فتح مكة وقال إن الرسول لم يطلب من الذين، دخلوا في دين الله أفواجاً، أن يكّفروا أبا جهل أو أبا سفيان "نهره القاضي قائلاً: يا عبد اللطيف، يا عبداللطيف.. إذا كنت قد رجعت إلى الدين ورجعت عن أفكارك فلماذا لا تكّفر محمود محمد طه؟ فيرد عبد اللطيف: ليست مهمة المسلم في الحياة أن يدين أفكاراً تخص رجلاً آخر مضى. يسأله القاضي: مضى وين؟ يجيب: راح.

يسأله: راح وين؟. يجيبه: عند ربه. يصيح القاضي بهستيرية: أماته الله شنقاً في سجن كوبر عقاباً له على كفره وإلحاده.

"يضيقون الخناق على عبد اللطيف الذي يقول لهم في النهاية: سأفعل كما تريدون". يهنئه القاضي معلناً أن هذه هي التوبة الشرعية. يطلب منهم خلع ملابس السجن والقيام بالوضوء والصلاة وارتداء ثيابهم الاعتيادية.. فعلوا ذلك. طلب منهم القاضي مرة أخرى "تكفير محمود محمد طه الذي أماته الله شنقاً في سجن كوبرعقاباً له على كفره وإلحاده"..

فعلوا ذلك أيضاً. التقيت عبد اللطيف بتدبير سابق في بيت صديق سوداني في أم درمان. ما زال وجهه هضيماً وجسده هزيلاً. سألته السؤال السخيف "لماذا فعلت ذلك". أجابني بنفس الهدوء الذي كان يحاجج به القاضي المكاشفي "شيخنا طلب منّا أن نتخلى عن أرائنا أمام المحكمة وأن لا نلق بأنفسنا إلى التهلكة.. تقية". قضينا بقية الوقت نتسامر ونتحدث عن المكاشفي ونميري. "لاحظت خلال جولاتي بالخرطوم كثرة أعداد المتسولين والمرضى بالجزام والبرص وأمراض أخرى لا أعرفها. يتحركون كالأشباح في الشوارع، يمدون أيديهم بالسؤال.أيضاً عدداً كبيراً من مقطوعي الأيدي والأرجل.

"أقرأ منشوراً ملصق على مدخل "دار الأساتذة" بجامعة الخرطوم موقع عليه من ثلاثة جمعيات قبطية في الخرطوم والخرطوم بحري وأم درمان يخاطب المجلس العسكري الانتقالي ويشرح مشاكل الأقباط أبان تطبيق "الشريعة". يقول المنشور "لقد أصبحنا مواطنين من الدرجة الثانية ولاقينا عناءً شديداً. تم جلد

بعض قساوستنا لأنهم كانوا يحملون نبيذ المناولة.. نطالب بالعدل" ألتقي بالصادق المهدي في بيته أسجل له حديثاً حول الديمقراطية وتطبيق الحدود. "يومي الأخير بدون مواعيد. أتمشى لوحدي في الخرطوم. أدلف إلى كافيتيريا نظيفة. أراقب الزبائن القليلين. من كل زوج بهيج . حاجة تفرح. شيء كهذا في أيام نميري والترابي كان سيندرج تحت جريمة "الشروع في الزنا" نعم! سألت أهل الذكر قالوا لاتوجد حاجة في الإسلام اسمها الشروع في الزنا!

"إحساس حلو بالأمان يغمرني. بهجة تزيح من أمامها إحساسي السابق بالانقباض. كنت في سوق أم درمان في العصرية واشتريت كمية لابأس بها من إحليل التمساح سوف أهدي البعض منها لعدد محدود من الأصدقاء. سأحتفظ بالباقي لنفسي. مفعوله أكيد ومجرب"

اليوم وأنا أعيد قراءة وكتابة ما كتبته منذ حوالي عشر سنوات "التاريخ الذي كتبته في المذكرات كان خمستاشر مايو خمسة وتمانين" أتأمل ما حدث بعد ذلك في السودان. أتذكر أحقاق إحليل التمساح ومصيرها ومصير أصحابها .

لويس ــ ١

لويس صليب إثناثيوس، ضابط برتبة رائد في "القوة الخاصة السريعة لمكافحة الإرهاب الديني".. هذا هو اسمها في الملفات الرسمية السرية للجنة المشتركة العليا، التي يتناوب رئاستها ضابطان كبيران من الشرطة والجيش كل منهما برتبة مارشال. تكونت "القوة" بعد استيلاء الجنرالات على ما تبقى من أشلاء الدولة. مهمة هذه القوة التي لايعلم عنها الكثير في الميديا أو حتى في صفوف الرتب الصغيرة والمتوسطة في الجيش والشرطة، تتركز في القيام بمطاردة و"تصفية" من تطلق عليهم، المصطلحات العسكرية "العناصر المسلّحة المناوئة" تزود هذه القوة

بإمكانيات خاصة، من المعدات، والأفراد، والتدريبات. يتم اختيار افرادها و"تجنيدهم" في القوة الخاصة، بعد اختبارات نفسية وبدنية دقيقة وصارمة، في معسكر منعزل في الصحراء الغربية. كان في الأصل معتقلاً بناه وأسسه جيش الاحتلال البريطاني إبان فترة وجوده في مصر. اعتقلوا فيه أسرى الحرب من قوات المحور، أثناء الحرب العالمية الثانية. عندما إنتهت الحرب، سلموه إلى السلطات المصرية وواصلت استخدامه كمعتقل، تضع فيه المناوئين السياسين، الذين تغيروا حسب ما تتغير السلطات المحلية، التي تعاقبت على الحكم.

استخدمته الجمهورية العسكرية الديموقراطية بعد ذلك، حينما استولى الجيش، على السلطة، تحول المعسكر إلى مكان ثابت لاعتقال ونفي المعارضين؛ من اليمين الديني والسياسي ومن اليسار أيضاً خلال عملية الانفراد بالسلطة والتخلص من "العناصر" المناوئة حتى تلك التي لا تدين بالطاعة المطلقة، والولاء التام.

بازدياد حدة الصراع والمواجهة بين الجمهورية الثالثة، والصعود المفاجيء للفيلد مارشال وإعلان الجمهورية العسكرية الديموقراطية، واشتعال الصراع المسلح مع "العناصر المناوئة". وفشل أساليب القمع التقليدية، بواسطة الجنود العاديين من رجال الشرطة؛ نبتت الفكرة لتكوين القوة الخاصة، وبالتالي احتياج هذه القوة إلى قاعدة تدريب خاصة بها بعيدة عن العمران. المعتقل المهجور كان أحسن الأماكن، التي وهبتها الملفات المتربة، لامتلاكه الشروط والمواصفات المطلوبة لمهمة كهذه.

الضابط صليب إثناثيوس (والد لويس) وصل إلى السودان مع زوجته التي تزوجها بأيام، قبل تكليفه بالرحيل، ليلتحق بالقوة البوليسية المتواجدة هناك، وهو يحمل على كتفه تاجاً واحداً (العلامة العسكرية في عهد الملكية). وفي السودان أنجبت له زوجته الشابة، لويس، ثم ماتت بعد ذلك بحوالي سنة وهي تحاول أن تلد له مولوده الثاني، الذي كان ذكراً أيضاً. لكنه ما لبث أن لحق بالأم المتوفاة بعد أقل من يوم.

ما الذي جعل الأب، يختار هذا الاسم المتحذلق، لابنه. هذا الاسم الغريب

على مسيحيي الوادي؛ الذين اعتادوا أسماءً استعاروها من أسلافهم مثل إيزيس ورمسيس أو شاروبيم وبسطوروس وتوفيلس، لعل الأب في أول تجربة له بالتعامل مع الأجانب حيث كان قائده المباشر بريطانياً؛ انبهر بالتجربة وتنامى عنده الإحساس بالانتماء لهؤلاء الأقوياء الذين يشاركهم احتقارهم للأهالي المهزومين، ويشاركهم، أيضاً، الإيمان بنفس الدين. الانتماء الذي جعله يحس بالراحة، والأهمية، في استمرار البقاء في السودان، بل والزواج بعد بضع سنوات من ممرضة سودانية مرضته، حينما ألقت به الملاريا في المستشفى الحكومي، وتركته واهناً عكر المزاج، بعد نقاهته البطيئة الطويلة. تعوده في استراحة الضباط، حيث يعيش مثل بقية الضباط العزّاب، بعد أن أرسل لويس إلى مدرسة داخلية في الخرطوم، تديرها الإرسالية الإنجيلية البريطانية.

اكتشف الأب، الجسد الأفريقي الفتي - لأول مرة - للممرضة ذات ظهيرة حارة في جناحه المنفصل في الاستراحة. هاله الاكتشاف؛ حينما قارن بعد ذلك بينها وبين الزوجة التي ماتت وهي ما تزال في العشرين. لون البشرة، نعومة الجسد، انسيابه لكن ذلك كله، لم يكن هاماً بالنسبة له، عندما شم رائحتها هذه الرائحة المختلطة بالدلكة. أو لعلها نتيجة لها. مزيج من أعواد الصندل والمر، وتتبخر بها السودانيات. الشيء الآخر هو تعامل البنت الممرضة (كما كان يدعوها) مع الجنس ببساطة، لم يعتدها خلال تجربته الجنسية القصيرة مع زوجته.. بساطة اعتبرها هو في البداية جرأة صدمته لكنه طلب المزيد. يمكنه بالطبع أن "يعيش" معها دون زواج مثلما يفعل الرجال الذين في مثل مركزه في السودان، حتى الذين لهم زوجات؛ لكنه كان يريد أن يبدو كشخص خاص أمام مجتمعه الجديد من البريطانيين والمهندسين خريجي الجامعات، الذين يتكلمون الإنجليزية وتلتقي زوجاتهن مع الزوجات الإنجليزيات، في النادي، يشربن الشاي الذي يقدمه لهن "سفرجية" من الأهالي تم تدريبهم على ذلك.

كان يعلم أيضاً أن عمليات التبشير نشطة، بل وتجد التشجيع والدعم من السلطة الفعلية في السودان. كان يعلم أيضاً بذكائه الفلاحي الذي ورثه عن

أسلافه، أنه بتنصير الممرضة، سوف يثبّت نفسه نهائياً وبشكل قوي في السلم الاجتماعي الإداري للمجتمع الكولونيالي في السودان؛ وبالتالي سيجد دائماً الحماية، التي يتوق إليها إذا ما لقي العنت من رؤسائه أهل الوادي من المسلمين. الممرضة من قبيلة الشايقية. قبيلة تمتلك إحساساً عالياً بالكبرياء القبلي. يشتهر رجالها بالشجاعة ونساؤها بالجمال. حينما عرض صليب، الزواج على الممرضة، ظن أنه يسدي إليها معروفاً. فقبولها بالزواج منه، سوف ينقلها إلى طبقة أعلى وسيسمح لها بشرب الشاي في النادي مع زوجات الضباط والمهندسين. لعله برر لنفسه الصفقة، التي ستدفع به إلى أعلى في السلم الوظيفي مقابل تخليها عن دينها.

التنصير والزواج لم يتما بالسرعة التي آمل بها الضابط وتخيلها. لم يكن يعلم مدى قوة الارتباط القبلي. ظن أنها مجرد ممرضة، في أدنى السلم الاجتماعي، والوظيفي لمن هم مثله.لم يكن يعلم أن أسرتها حكمت، وتحكم، فرعاً هاماً من الشايقية. لم يكن يعلم أن أبيها، ومن بعده أخيها الأكبر "شيخ قبيلة". لم يكن يعلم أن الممرضة (التي تميزت عن قريناتها من بنات القبيلة بالرغبة في التعليم والتي ساعدها أخوها الأكبر في تحقيق طموحها، لم يكن يعلم أنها لا تملك من أمرها شيئاً خاصة هذا النوع من الأمر: تغيير الديانة وبالتالي، الزواج من رجل خارج نطاق القبيلة) لم يكن يعلم أنها تواصل الاتصال بأهلها، وأنها ذهبت بنفسها تناقشهم وتحاججهم. لم يكن يعلم قدر التضحية التي تقوم بها من أجله (لم يكن يعلم أنها أحبته.. هكذا ببساطة) وليس من أجل شرب شاي ما بعد الظهر مع زوجات الضباط والمهندسين. لم يكن يعلم بالطبع، وهو الذي لم يخرج أبداً عن نطاق أسرته الفلاحية الضيقة، مدى سطوة القبيلة في مجتمع لا يزال قبلياً. أخيراً لم يكن يعلم بالعنت الذي واجهها من أسرتها، ولا بالعنت الذي سيواجهه أخوها شيخ القبيلة، حينما يعلن للقبيلة عن موافقته على رغبة الأخت. لم يكن يعلم شيئاً من هذا كله وكيف له أن يعلم، وهو متسربل في ذاته وسترته العسكرية التي تضيق على جسده الآخذ في

السمنة مثلما هي أفكاره الضيقة عن نفسه وعن السودان وعن الحياة كلها.

قال لها أخوها، شيخ القبيلة، إنه يحررها من رباط القبيلة، والقبيلة حرة منها. قال لهـا إنها بتخليـها عن ديانتها، لتتـزوج نصرانياً، وأجنبـياً؛ قد خـرقت مرتين قانونين مـهمين في القـبيلة. لكنه قـال لها أيضـاً أن هناك شرطين لقبـوله بما تريد: الأول أن لا تحضـر "رجلها" أبداً إلى مـضارب القبـيلة، والثاني "أن تهب للقـبيلة ابنها أو ابنتها منه". ودعتها أمها باكية.

تعلمت سـارة -- هكذا أصـبح اسم الممـرضـة الجديد - بـسرعـة، الإنجليـزية وإتيكيت شرب الشاي في النادي، وتركت بالطبع مهنـة التمريض (بتحريض من زوجهـا) لتعمل، ربة بيت فـي الفيلا، التي حـصل عليها صليب إثـناثيوس، هدية زواج، من القيـادة العسكرية، مع ترقـية سريعـة. نحن لم ننس لويس، لكن الذي نسيه هو والده. لم يفـتكره إلا قبل الزواج ببضعة أيـام. أرسل لمدير المدرسة طالباً منه أن يضع ابنه في القطار ليقضي بضعة أيام معه. وحينما أتى لويس منزعجاً من هذا الاستدعاء العاجل، أخبره الأب بطريقة مبتسرة، بزواجه.

لعل الرب أراد "تجـربة" سارة، فلم يفتح رحـمها. لكنها أحـبت ابن زوجها. بادلها هو الحب الذي حرمه الرب منه بأخذ أمه إليه.

قالت له سـارة سراً ذات يوم عن اتفـاقها مع أخـيها. قـالت له هل يرضى بأن تقدمه إلى القبيلة بدلاً من الابن الذي لم يأت؟

وافق هو بسعادة؛ فقد كره مبكراً كل ما أحبه أبيه في الحياة!

لويس - أيضاً

المقابر المتناثرة القـديمة "المهجورة". مولد السيـدة العذراء شفيـعة الدير القديم والمغارة. الخيام ورائحة الطبيخ. القمار والفسيخ. المرتلون والمصلون.

في الطرف الآخر من الجبل والمقابر توجد المغارة.

جبل الطير.. إذا ما وقفت على مدخل المغارة فسوف تشرف على النهر من الجهة الشرقية.. إذا ما وقفت على مدخلها المنحوت في الصخر الجرانيتي. على المدخل منحوت بشكل غير دقيق صليب خشن. أقرب إلى مفتاح الحياة منه إلى الصليب. بجواره كتابات لايعرفها لويس. لعلها بالقبطية القديمة هكذا قال لنفسه.

إذا ما أدرت وجهي للغرب فهناك الصحراء ودروبها الممتدة حتى السودان. درب الأربعين. ما أن اتجه إلى النهر وأسير فوق شاطئه الشرقي متجهاً إلى القلب محاذياً بشكل وهمي درب الأربعين فسأصل إلى قبيلتي.

أتت المرأة التي تحضر كل يوم في موعدها المعتاد في المغربية. تلتحف بردائها الكتاني الأزرق و تتلفع بالشال الأرجواني.. وجف قلبه يتذكر عينيها المندهشتين العسليتين اللامعتين. عينا ذئبة، قال لنفسه. وشم أزرق مخضّر على الذقن. خطان مستقيمان ينحدران من الشفة السفلي المذكوكة ويلتقيان فوق ذؤابة الذقن المدببة.

المرة الأولى قالت إن اسمها مريم. في الثانية دميانة. في الثالثة قالت؛ هاجر، التي ولدت إسماعيل. قالت إن ابنها اسمه إسماعيل، وأن أبيه إبراهيم أراد أن يضحي به نتيجة إطاعته غيرة مراته، لكن الرب نجاه وجعله رئيساً لشعب كبير.

ترى.. ماذا سيكون اسمها هذه المرة؟

هذه المرة

قالت له: ساره.

(اسم أمي!. لماذا؟).. عقله المنطقي الحساس يعمل بسرعة وهو يقف على مدخل المغارة، يكاد يتكيء بجسده على الصليب.

* * *

قال له الخال: "لقد بلغت كما يبلغ الرجال" تضرج وجهه الذي نبت عليه زغب بني خفيف. أحنى رأسه ينظر إلى الجمرات المشتعلة في الموقد الحجري. العشة على شاطيء النهر يأوى إليها الخال ساعة القيلولة. الحصر الناعم من سعف النخيل المروي مباشرة من ماء النهر فوق الأرضية الطينية الصلبة النظيفة.

تحضر البنات كل صباح يكنسن العشـة، وينفضن الحصير ويرششن الماء المجلوب من النهـر على أرضهـا الصلبة وحـولهـا، ويسقين أشـجار اللوف والبـلاب التي تظللها. ينيخ الخال ناقـته، يتركها ترعى حول العشـة. يدلف بعد أن يخلع مركوبه على فتحة الباب. يضع سيفه بجوار العنقـريب. يترك خنجره مثبتاً في جرابه فوق زنده تحيط به الأحـجبة الجلدية التي تغّيـر لونها من القدم وتشربهـا للعرق. يخلع جلبابه ويضع على جسـده العراقي المغسول والمبخّر الموضـوع فوق المخدة المطرزة بالورد الأحمـر والأزرق. يتمـدد بالعراقي فوق لـيف العنقريب الناعم كـالحرير. يهوم ناعساً. بعد القيلولة تحـضر الابنة، وتوقد الكانون وتضع عليه إبريق الشاي. تفرش الحـصيرة في ظل اللالوبة وتحضـر إبريق الوضوء النحاسي. تعيـد ملأه من القربة الجلدية المعلقـة في الظل وفي مجرى الهواء بالماء الذي تسـقع الآن. يتوضأ ويصلي. تصب له الشاي في الكوب الزجاجي الصغـير خالطة اللبن مذيبة السكر بالقدر الـذي يحبه. يشـرب الشاي جـالساً على حصـير الصـلاة مديراً مسـبحـته الكهرمان ببطء في يده.

يجلسان وحدهما. عزم عليه بالشاي. قدم له علبة الدخان. هذه أول مرة يقدم له بيده علبة الدخان. رأى الخال خجله وتردده. ابتـسم وقال جاداً "لقد بلغت مبالغ الرجال" كرر مضيفاً دون ابتسام "وأصبحت أخو البنات". ابتسم لويس بفخر.

نزع الخال خنجـره من فوق زنده مصحـوباً بالأحجبـة وأعطاه له. الخنجر ذاته الذي جرحه به الخال في يوم أخذ العهـد. يومها رقص الخال وهو يهز الخنجر في الدائرة التي أغلقـها رجال القـبيلة من الشـمال والشـرق، وأحكمت نسوة القـبيلة إغلاقـها من الغرب والجـنوب. يسبح الخال في الهـواء حاملاً خنـجره الذي تلمع فوقه قطرات الدم. دمه ودم الخال. يطير مستقيماً في الهواء بجلبابه الأبيض وعمته البيضاء الكبـيرة. حافياً. الساقـان تدفعان بالجسد من فوق الأرض. يضم ركـبتيه. يلم قدمـيه على فخـذيه ليهبط فـوق الأرض الرملية المرشـوشة التي صالبـها الماء ودقات الأقدام القوية العارية لذكور القبيلة وإناثها. التعويذه المحفورة فوق الخنجر تتشرب الدم داخل حروفها. تنزلق قطرة تتداخل مع الأحجبة التي علقتها أم الخال

يوم ميلاده، وأضافت لها يوم طهوره، ويوم قص لمته، ويوم زواجه، ويوم ميلاد ابنته تاجوج. أضافت إليها أحجبة الأب حينما مات وتقلّد الخال شياخة القبيلة.

يصيح الخال بصوت عذب قوي "أبشر"، ويبشّر بذراعه هازاً الخنجر راقصاً حول لويس الواقف في مركز الدائرة، فيرد الرجال "أبشر"، وتزغرد النسوة مميلات بأجسادهن، هازات شعورهن المطيبة يهزجن "أخو البنات". ينتفض القلب بعنف. زهوة الاعتراف به في القبيلة. الرجولة الوافدة مثل المياه الرعناء في الجدول الذي انشالت سدوده. منذ الساعة سيسمح له أن يجلس مع الرجال وأن يؤاكلهم ويسمر معهم وسوف يعتزل خيام النسوة. عليه حمايتهن والدفاع عنهن والكف عن مزاحهن ومهارشتهن. سيسمح له بالدخول بدون استئذان إلى بيت الخال فقط. هناك تاجوج الواقفة مقابله في الصف الأول من صفوف النساء، تزغرد وتتمايل بجسدها، وتهز شعرها، مميزاً صوتها وهي تقول " أخو البنات" كأنها تقول له..

الخال يتابع بقلبه أفكار لويس. ينظر كلاهما إلى دفقات الريح المرئية التي تحرك الرمال بخفة تعيد فرشها برفق فوق الأرض.

" تاجوج ".. قال الخال.

خفق قلبه وهمس "مالها؟"

وضع الخال مسواكه في فمه وسوّك أسنانه ببطء ينظر إليه بعينين تكتمان الضحك. لم يستطع أن يكتمه طويلاً فغص به، خابطاً فخذه بكفه وهو يقلده " تاجوج مالها؟!.. تتخابث ياود البمباشي. "فيه غيرها؟! تاجوج اللي ما في غيرها"

يومها رقصت تاجوج مع البنات. ثم أفسحن لها لترقص منفردة رقصة الحمامة. باعثة هديلها من حلقها. الأثداء العذرية تهتز مع إيقاع الرقبة وحركة القدمين العاريتين المتحنيتين.ثوبها معلق على كتفيها وشعرها المدهون بالمسك والطيب تلقيه فوق رقبته وكتفيه، يحس به حارقاً كرفيف أجنحة قوية. زاجرة النهدين، وقد ظنّا أنهما سيلحقان بالشعر المنطلق فوق رقبته ليهبطان يروغان في حضن صدرها الذي يلمع عليه العرق يحول النسيج الخفيف بينهما وبين الكشف واللمس.

"تاجوج" كرر الخال بين الجد والهزر "تاجوج الحمامة تاجوج الجمل وتاجوج شيالة السيف وأخت الرجال" يعلم ما يريد الخال أن لا يفصح عنه. يمنعه الذوق والخجل والتقاليد القديمة. يعلم أن خاله هو الحافظ على الأصول. يسميه الرجال في القبيلة والقبائل المجاورة "الحافظ" يعلم أيضاً أن تاجوج له.

قالت له سارة ذلك. و"قالت" له تاجوج ذلك. يوم اخنارته لترقص له. يومها لم تشاركها في الرقص أخواتها وبنات القبيلة. يوم أعطته تاجوج الكرباج المصنوع من ذيل الثور الأبيض.

* * *

قالت تفيدة لأخيها القمص وهما يشربان الشاي في الصباح المبكر كالعادة، قبل أن يتوجه القمص إلى الكنيسة لخدمة القداس: "بكره، إن أحيانا الرب وعشنا، حيكون يوم تسعة وعشرين برمهات، يعني أول راس السنة بتاعتنا وأصله.."

قاطعها بنفاد صبر:

- "عارف"

لكنها أكملت فلم تكن تصغ إليه "اليوم ده يوافق أول بداية الخليقة. اليوم ده اللي بشّر فيه رئيس الملايكة ميخائيل ستنا العدره بالحبل الإلهي"

قطعت حديثها فجأة، وهي تبتسم بغموض. راقبها باهتمام، وقد انداح ضيقه ليحل محله شك في سلامة عقلها. قال لها وهو يحاول أن يستدرجها برفق ليفهم حالتها الجديدة عليه "وإيه المناسبة؟ يعني بتقوللي الكلام ده ليه ما نا عارفه ودرسته من زمان"..

راقبها بدقة وهي تملّس على بطنها الضامر قال لنفسه: الولية اتخبلت. قررت هي أن تقول له. ليس كل شيء. على النذر فقط.النذر الذي نذرته بعد أن استيقظت من الرؤيا "أصلي عليّ ندر ولازم أوفيه".

انتظرت أن يسألها حتى تستطيع أن تواصل. لكنه تجاهلها. ليس بقصد سيء،

لكنه ببساطة يحس بالملل منها ومن رتابة أيامه وببعض القرف أيضاً.

حينما رأته يمعن في الصمت، أخبرته بأنها نذرت أن تذهب لدير العذراء في جبل الطير. انتبه منزعجاً "واشمعنى جبل الطير يعني. ده بعيد في آخر الدنيا. عندك أديرة قريبّة.إنتي عارفة الوضع. الدنيا خطر".

أجابت بصبر من يحاول أن يفّهم طفلاً محدود الذكاء شيئاً بديهياً "ده المكان اللي حصلت فيه البشارة لمّا ستنا العدرا جت بالطفل يسوع بعد ما حبلت بالروح القدس".. قالت لنفسها ماله اليوم غبي أكثر من كل يوم. عمّالة أكلمه عن البشارة والحبل الإلهي وهو دافن بوزه في كوباية الشاي. أحست بالذنب، فأعادت ملء كوباية الشاي له مرة أخرى وفتحت مشنة الكعك التي كانت بجوارها وأعطته كعكة.

يعلم أنها حرونة كالبغل. لن يقدر على ثنيها عن رغبتها التي اعتبرها حمقاء. ومن أين لها بمصاريف السفر التي أصبحت باهظة هذه الأيام نتيجة المخاطر المتزايدة على الطريق الصحراوي المقطوع. لا يعلم أحد من يسيطر عليه الآن. قال لنفسه: بعد قليل ستنسى الموضوع أو على الأقل تحجم عنه حينما تكتشف مخاطر الرحلة. حينما يكشف لها رعونتها. لكنه عليه أن يتحرك الآن للقداس.

حينما رجع وجدها مشغولة تحمي الفرن وترتل. سألها متباسطاً (فقد أحس بالذنب لأنه أغلظ لها في الأيام الأخيرة وخاصة بعد ما حدث له بالأمس في الكنيسة من الملثمين).. بتعملي إيه يامقدسة دا حنا داخلين على صيام وللا لحقتي نسيتي؟.. ضحك متوقعاً أن تشاركه ضحكته.لم تلتفت إليه. لم تجبه بل واصلت ترتيلها. بعد قليل أقبلت عليه مبتسمة نشطة ومعها طعام الإفطار: "أنسى إزاي. أنا بحضر زوادة الطريق. إدعي يابونا ربنا يسهللنا طريقنا. دا حنا رايحين للعدره. رايحين نوفي الندر". تأكد له جنونها. انزعج.لكنه سرعان ما أزاح انزعاجه، بأنها لن تستطع مغادرة المدينة المطوقة بمختلف الفصائل المتحاربة. تناول إفطاره بصمت وهو يفكر - لأول مرة - منذ وقت طويل، كيف ستصبح حياته إذا لم ترجع. خجل من نفسه. رشم علامة الصليب على

صدره بسرعة وهو يطلب من الرب أن ينجيه من الأفكار الشريرة.

ظهر مار جرجس لتفيدة، في تلك الليلة، وقبيل الفجر بالتحديد، حينما صاح ديك الجيران، ماتت من الرعب، وهي تغطس وتقب، في لجة سميكة من الماء الهادر. طار فوقها مار جرجس ومسها بذؤابة سيفه. ابتسم لها لحظة صغيرة قبل أن تشيله السحابة التي كان فرسه الأبيض يمتطيها. مسها بالسيف فوق بطنها. حينئذ عرفت تفيدة أنها مختارة من السيدة العذراء، شفيعتها ومن قديسها مار جرجس؛ لشيء بالغ الأهمية والقداسة. تعرف أن مار جرجس لا يظهر إلا للمختارين. أن ظهوره دائماً بأمر العذراء. العذراء شفيعتها طالما صلّت لها ودموعها تسيل على وجهها الهضيم . أشعلت لها الشموع . صامت على اسمها. أيقونتها المذهبة في الكنيسة، تحظى منها باهتمام خاص وهي تنظف الكنيسة وتمسح الغبار من فوق الأيقونات.

تحس أن شيئاً غريباً في جسدها، بعد الرؤيا. تخاف أن تفكر فيه. تخاف ان تترجم ما تحسه وما رأته بالكلمات العادية. تحس باللمسة الحارقة لذؤابة سيف مار جرجس فوق بطنها. تحت سرتها مباشرة (في الفجر تسللت بهدوء إلى الحمّام وحاولت أن ترى إذا ما كانت هناك علامة تحت السرة أو فوقها. لم تر شيئاً. لكنها قالت لنفسها ليس هذا بالمهم الآن). تحس بالهواء الذي أحاط بها والحصان يسبح فوقها. لا تريد أكثر من ذلك. أما حكاية النذر فهو نذر قديم كانت تؤجل الوفاء به. لا تذكر مناسبته الآن وإن تذكرّته فجأة بشكل مُلِحّ وهي ترقد متصلّبة مرعوبة فوق فراشها. تذكَّرت التاريخ الذي سيهل بالغد.. تذكرته أيضاً فجأة. ربطت بين النذر والتاريخ والرؤيا. فهمت النداء الإلهي، أطاعت.

تحروس بنشاط بين الفرن وسحاّرة الملابس. تجهز صرة ثيابها وتفتح كنزها الصغير السري. الأساور الذهبية الثلاث التي ورثتها من أمها. الخاتم الذهبي المرسوم عليه الجعران والذي وجدته في الكنيسة منذ بضع سنوات وأخفته. النقود القليلة التي اعتصرتها من مصروف البيت وتلك التي أعطاها لها تاجر الملابس

والكتب القديمة.. كنزها الذي حاشته عن عـيني أخيها. كنزها الذي كانت تدّخره لمصاريف دفنتها.

رتبت كل شيء بعـقلهـا المنظم. تضـحك مسـرورة في صـمت وهي تتخـيل تعابير وجه القمص حينما يكتشف...

انزوى هو في غـرفتـه يحاول أن يطرد تفـيدة من أفكاره. يضـبط الراديو على إذاعة بريطانيا (كما يسـميّها هو) يريد أن يسمع شيئاً عن الملـثمين. أحس بامتيازه الخصوصي. هو أول من أتوا إليه. ركعوا أمامه. اعترفوا وتناولوا من يده.

أحس باختـلافهم عن الآخرين. عن أولئك الذين يرفعـون الصليب الحديدي في الجانب الأخـر من المدينة.ترى من باركهم. وهل هم بالـفعل "جند الرب"؟.. هل اعترفوا، وتناولوا الأسرار المقدسة حتى إذا ما ماتوا..؟

لـم يعتد من قـبل على أسئلة من هذا النوع. لم يأته ملثمـون، من قبل، يطلبون منه البركة.

فجأة قـفز من فراشه خـائفاً (كان متـمدداً على للفراش فقد نحـل قش المقعد وأصبح يدخل في مؤخرته).. يلهث ويحس بالعرق يتجمّع فوق ظهره.. لماذا أتوا إليه هو على وجـه التحديد. بالصـدفة؟ أم.. وفوق كل ذلك تـأتيه تفيـدة بفكرة الذهاب للجبل. خطرت له فكرة أخـرى. أخافته أكثر، لكـنها فكرة جذّابة، أسند ظهره على مسند السرير من ناحية الشباك يراجع خطته.

* * *

المعلومات المتجمعة لدى لويس حول المسلحين الأصوليين تنقسم إلى:

مصادر السلاح، ومصادر التمويل، ومعسكرات التدريب، وأسلوب التجنيد، وشبكة الإمدادات، ووسائل الاتصال، وأماكن إخفاء السلاح.

لكن أكثر المـعلومات التي أثارت غضبـه تتركز في تهريب السـلاح وبيعه من خلال مصادر عسكرية في جهازي الشرطة، والجيش ، خاصة بعد اضطرار القيادة العليا للعـسكر للاعتراف بـوجود "شبكة غيـر منظمة من بعض الضـباط، وبعض

الجنود من فاقدي الضمير والانتماء للوطن" تقوم بتهريب السلاح من المخازن، ويبيعونه لتجار السلاح في السوق السوداء، الذين يبعونه بدورهم إلى كل من يدفع الثمن، وأنهى المنشور اكتشافه.."... وسنضرب بيد من حديد عليهم". كذلك تأكد، اكتشاف شبكة أخرى، تقوم بسرقة السلاح المضبوط في حملات الشرطة على مخابيء المسلحين، وإعادة بيعه مرة أخرى لهم.

يكتشف لويس بعد أن أزاح غضبه جانباً، عليه أن يبتعد عن الدائرة الجهنمية. عن الطريق الذي فرضوه عليه، حينما خطفت عناصر مسلحة مناوئة، زوجته، أو هذا ما أبلغوه رسمياً.

قال لنفسه: يريدون وضعي على خط النار. سبب شخصي. أنا الضابط المسيحي الوحيد، الذي اختفت زوجته، وقالوا لي إنها مخطوفة عند الجماعات.. وأنا الضابط المسيحي الذي أقود عمليات عسكرية ضد الجماعات. عينوه قائداً لمعسكر التدريب الصحراوي للفرقة الخاصة بمكافحة الإرهاب الديني. غضبه يتصاعد وهو يكتشف أن حياته وحياة مئات بل وآلاف مثله، تسحبهم معها وداخل دواليبها، هذه الدائرة الجهنمية بأنانيتها وغبائها.

لكن غضبه على نفسه كان أشد عنفاً. غضب صامت يحرقه من الداخل. خوفه المباغت من قرار ارتباطه بتاجوج. ليست تاجوج فحسب، لكنها قبيلة بأكملها. و تغيير ديانته. يومها.. قال له الخال جاداً بشكل لم يره من قبل: "أعطيتك خنجري. لم أعطه لابني وحيدي. أعطانيه أبي. أعطيت أبيك أختي، أعطتني إياك، أريدك كاملاً. أريدك لابنتي. أريد أولادك هنا. لن أسمح، بعد الآن، بخروج أحد، مثلما خرجت أختي. فتش في قلبك".

خاف أن يفتش قلبه. يعلم ما في داخله، أن تاجوج، أقوى من كل إيمانه الديني، هي إيمانه.. لم يفتش، لكنه اختار القرار الأسهل.

أيامها سار على قدميه في الدرب الصحراوي الذي يعرفه جيداً، سيأخذه إلى القطار، بعيداً عن الشايقية.. بعيداً عن تاجوج، وبعيداً عن أبيه.

أيامها أعطته سارة جواهرها وذهبها. قالت له: ارحل إلى أرض أبيك. فتش

قلبك هناك. لاتعد، إلا إذا قـررت أن ترجع إلى القبيلة. لم تقل له أنهـا تتمنى أن يرجع إلى المضارب التي نزحت عنها، ولن تستطع أن ترجع إليها حتى يوم مماتها.

تزوج من قريبة لأمه. لعله كان يريد من الشابة الزوجة أن تقول له شيئاً عن أمه، ولعله كان يريد - رغم كل شيء - أن يجد أبيه داخله. التحق بالكلية العسكرية.

بهدوء وبرود، بينه وبين نفسه، يقلّب مجموعة من الاحتمالات:

أن يهرب من المعسكر عبر الدروب الصحراوية غير المعروفة، متجهاً إلى السودان، أو يعلن ما اكتشفه، أو أن يقتحم قيادة العسكر ويقتلهم. يبحث الاحتمالات، وهو جالس في غرفة القيادة في المعسكر. وهو يتمشى بمفرده في المنطقة المحيطة به. وهو يأكل وجباته. وهو يتظاهر بتبادل الحديث الاجتماعي المؤدب مع زملائه. وهو يختلي بنفسه في الحمّام والمرحاض. وهو مستلق على فراشه، استعصى عليه النوم يقلّب الفروض والاحتمالات.. المكسب والخسّارة، المغامرة والمخاطرة.

شيء وحيد كان يجعله يحس بالارتياح خلال هذا كله؛ إنه الآن وحيد تماماً، وإن عواقب ما يمكن أن يحدث له إذ ما قرر تبني أي احتمال من الاحتمالات السابقة لن تصيب سواه.

* * *

المرأة التي تأتي كل يوم، أتت اليوم أيضاً. أتت في المغربية ملتحفة بدثارها الكتاني الأزرق، وعلى رأسها شالها الأرجواني. وجف قلبه، يتذكّر عينيها اللامعتين. ذهبهما مثل النحاس الأصفر اللامع مثل عيني الذئبة. وشم على الذقن، أزرق مستقيم ينبت من منتصف الشفة السفلى اللحيمة حتى منتصف الذقن المثلثة، يقسمها إلى قسمين.

تاه في الصحراء، بعد أن ضلل طائرات الهليوكوبتر، التي كانت تبحث عنه. وجدته هي. دلته على المغارة، وكشفت له عن السراديب التي تصل بين هذه القبور عبر المغارة وتحت الصخرة حتى الدير الصغير الموجود في سفح الجبل بالقرب من

المزرعة. لم يسألها لماذا هي هنا، وكيف عرفت سر السرداب. لم تسأله ما الذي أتى به، ولماذا يختبيء حينما يسمع أزيز الطائرات. تقبّل كل منهما الآخر بكثير من سعة الصدر وقليل من التحفظ، يعلم كلاهما أنهما عابران، التقيا في دروب الصحراء وسينطلق كل منهما في اتجاه. اتجاهه الذي رسمته الأقدار والصحراء لهما.

تشاغلت بوضع قلة المياه على الأرض. فرشت طرحتها على الأرض، ووضعت فوقها الرغيف الشمسي الذي لا يزال طازجاً وحاراً بعد خبيزه منذ لحظات. حبات تين شوكي، نزعت قشرتها الحادة الشوك بقطعة حجر مسننة. ثم سارت خطوات ووقفت على قمة المغارة، تدير رأسها ببطء، تنظر عبر الأفق. كأنها تتسلم الحراسة وهو يأكل. تربع على الأرض يرتشف جرعات طويلة بطيئة من القلة الباردة.. "الليلة ماشي" لم يكن سؤالاً بقدر ما هو تقرير حالة. دهش لحدسها. لم يرفع رأسه ولم يجب. يعلم أنها لم تسأله ولا تتوقع جواباً.

"حضـرتلك زوادة" لا تزال واقفة في مكانها. انتهى من طعامه. وأحس بجسده يعاود نشاطه القديم المألوف.. حيويته. فهي لا تطعمه إلا مرة واحدة في العصرية، تتركه طوال اليوم نائماً أو مهوماً. تختفي لتظهر بالطعام الذي لم يتغير كثيراً. الليلة يغادرها. هي تعلم ذلك. لكنه لا يعلم عنها سوى اسمها. كأنها قرأت فكره. قالت له:

"لمّا تقابلهم. تقابل أهلك، قللهم إن ساره بتسلم عليهم. وصيهم ما ينسونيش زي المرة اللي فاتت، ما يسيبونيش في الغربة". هز رأسه مؤمناً على طلبها.. لم يسألها. أحس أنها تعرف. لم يرغب في أن يعرف ماذا تعرف هي.

حينما اكتمل القمر، عادت إليه ثانية وسلمته الزوادة. حفنت قبضة من الرمال التي لا تزال محتفظة بحرارة الشمس ، ونثرتها برفق فوق رأسه وهي ترتل بصوت خفيض (أذهلته حلاوته).. تباركه وتطلب من القديس الشافي أبو تربو حمايته من وحوش الصحراء وزواحفها السامة: "يا من أرسلت ملاكك لتخلص عبدك. أحلفك يا قديس يابو تربو باسم الله خالق السموات والأرض وكل ما

فيهما، أنه حيث يذكر اسم الله واسمك في أي موضع فلا تدخله أبداً الأرواح النجسة ولا المخالب والأنياب السامة.."

طافت حوله سبع مرات تضرب الأرض بقدميها العاريتين.. قادته من يده كما يقاد الطفل، ووضعته على أول الدرب.. اختارت له الصحراء. طريق الأربعين. أحنى رأسه متقبلاً اختيارها. لمعت عيناها لحظة خاطفة قبل أن تستدير لتختفي.

ترنيمة دميانه، مريم، سارة، هاجر، أم إسماعيل..

"لقد تجلت العذراء لي وأنا في محنتي مثل هاجر التي طردتها سارة الغيور العاقر وأقنعت زوجها بأن يطرد ابنه الوحيد الطفل المسكين إسماعيل.. فلتس أيضاً اضطر أن يطردني تحت ضغط الناس وخاصة أمه مع أني ألد له ابناً وهو الرجل الذي منع عنه الرب أولاداً من صلبه.

العذراء أشفقت عليّ في محنتي، وخبأتني من عيونهم، وجعلتني ألد بسلام، وتجلّت لي ساعة المخاض وقالت لي يا دميانه إن يسوع نظر إلى خوفك واستمع الرب إلى تضرعاتك وسأشملك برعايتي وشفاعتي لأنك اجتزت الامتحان الصعب وتمسكت بإيمانك بي ولذلك سأمدك بقوة من عندي، ستمشين فوق الماء وتشفين المرضى وتطردين الأرواح الشريرة وسيخافك الملوك وقادة الجيوش وقد غفر الرب لك طيشك وساعة ضعفك لأنك يا دميانه فتحت رحمك لبذرة الإنسان. هذا ما قالته لي سيدتي العذراء بصوتها الحلو حينما تجلت لي في المغارة المقدسة التي التجأت هي إليها مع الطفل يسوع ويوسف النجار حينما عبروا الصحراء من فلسطين هرباً من سيف هيرودوس الظالم.. العذراء تحس بالظلم لأنها جربته وتعرف رعب الأم التي تحمي طفلها من سيوف القتلة.. ولهذا تجلّت بكامل مجدها لي، ولم تكن نظرتها حزينة كما يرسمونها في الأيقونة المقدسة المعلقة فوق المذبح.. كانت تضحك لي..

لا.. بل كانت تبتسم وقد شممت ريحتها المنبعثة من جسدها المقدس ورأيت أسنانها البيضاء تشع نوراً وبهاءً مثل نجوم السماء.. هللويا هللويا.. المجد لله في الأعالي. لم يفعل هو أكثر مما فعل داوود النبي حينما رأى زوجة أوريا الحثي - الفارس الشجاع في جيشه الذي أخرج سلاحه يحارب أعداء الملك النبي داوود - رآها تستحم على السطح فأرسل يطلبها ورقد معها. كنت انتظره على السطح.. سامحني يا رب.. ألم تصبح زوجة أوريا، أم سليمان؟. هللويا.. الرب يحكم بالعدل، كما حكم لهاجر الجارية المصرية أمام غيرة سارة اليهودية، فأرسل لها الملاك ليدلها على بئر الماء وينقذ الطفل من الموت عطشاً في الصحراء، ووعد هاجر أن يجعل ذرية إسماعيل مثل رمل البحر ومثل نجوم السماء".

هطلت قطرات المطر لأول مرة في الصحراء منذ زمن طويل. مدت دميانه يدها خارج الكهف، ترتجف.. اشرأبت بعنقها ووجهها المتسخ الخائف من فتحة الكهف تضحك، فاتحة فمها تستقبل داخله قطرات الماء العذب. سحبت الطفل من قماطه وزحفت به خارج الكهف. خلعت ثيابها وعرته من قماطه الذي لفقته له من مزق ثيابها. وقفت به عارية، وعارياً، تحت المطر المنهمر، رافعة إياه على امتداد ذراعيها بمحاذاة رأسها وقدماها القويتان السمراوتان تدقان الصخور في مدخل المغارة ترقص لأول مرة في حياتها وهي ترتل: أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين.

أسميك إسماعيل واسمي نفسي هاجر.

هناك حكاية يحكيها زوجها فلتس الفلاح عن عبد المسيح الجلاد ومعه بطرس الراعي وشاروبيم الحرامي، الذي نزل من الجبل الليلة الماضية بعد أن سمع بهروب دميانه وحكاية حبلها.

"شاروبيم الحرامي من المطاريد وهو ابن عمها لزم. كان يحمل بندقية لي إنفيلد مقروطة. دقوا عليّ الباب بعد العشا بقليل بعد أن أنهى محمود الأعمى الآذان في المصلية حدا الترعة. قلت في سري يا قاعدين يكفيكم شر اللي جايين. الجلاد والراعي والحرامي عمرهم ما يجتمعوا على خير أبداً. دخلوا بدون إحم

ولا دستور. قمت عملت لهم شاي. الحرامي قاللي وهو ينف على الأرض: إحنا عرفنا فين المرة الشرموطة مستخبية هي وابن الحرام اللي جابته من المسلم. الجلاد قال ماحبناش نروح لوحدينا قلنا إنت برضه جوزها عيب ما تروحش معانا. جوزها أحق من غيره. الراعي قال بس إحنا عارفينك خرع وركبك سايبة.. قلنا تيجي معانا تعمل منظر قدام أهل البلد تغسل عارك..

إحنا حانقوم بالواجب ونغسل عارك وعارنا علشان مش عارفين نرفع راسنا في البلد.. بصق على الأرض.. الأولاد الصغيرين، أولاد المسلمين دايرين في البلد يقولوا مافيش غير مسلم اللي يعرف يعشّر مرة القبطي.. القبطي يتجوزها والمسلم ين... قاطعه الحرامي قبل أن يكمل زاجراً إياه قائلاً له إحنا في إيه وللا في إيه."

أخذوا يتشاورون، كيف ينفذون خطتهم بحيث تعرف القرية من فعلها دون أن تستطيع الحكومة استخدام أي دليل ضدهم وخاصة فلتس الفلاح، لأن كل من الراعي والجلاد ليست لهم علاقة قربى به أو بدميانه. بالنسبة للحرامي فسيطلع مرة أخرى للجبل دون أن يحوِّد على القرية.

فلتس الفلاح لم يكن متحمساً للعملية. كان قد قرر أن يرحل بليل من البلد كلها. قرر أن يذهب إلى ليبيا. إنه يعرف الطريق عبر الصحراء ويمكنه حسب تقديراته أن يقطع المسافة في أسبوع عبر المدقات الصحراوية. إنه طيب وحويط في الوقت نفسه.. وإذا كانت دميانه عملت ما عملت، فهذه إرادة الرب. المقدر والمكتوب لابد من إتمامه. لكنه لم يستطع معارضتهم، وخاصة الحرامي الذي يعرف الكثير عن قسوته وحماقة قلبه.

قال: "لعنتهم جميعاً في سري، ولو كان الأمر بيدي لسلمتهم للحكومة. لكني قلت في قلبي، سأضع همي على الرب وهو يعينني. سأجاريهم وقد أستطيع أن أقنعهم حينما نصل إلى مكانها أن نتركها في حالها هي والولد. نضربها مثلاً ونهددها بأن تترك البلد كلها. أو ساعتها ربنا يفرجها. لعلها تكون قد تركت مكانها. ربنا كبير"..

حينما انهمر المطر سرّ بذلك. كانوا الآن بالقرب من المغارة فهرولوا يحتمون

منه خلف صخـرة. ساعتهـا كانت هي تخرج من المغارة وتخلع ثيـابها وتنزع عن الطفل قماطته وترقص عارية تحت المطر.

ارتعب الرجال وهم يشاهدونها من مكمنهم. ذابت شجاعتهم. همهم فلتس: نرجع.. المرأة مجنونة والطفل لابد سيموت من البرد.

الحرامي أخذ يسب بصوت خافت.

الجلاد قال: نهجم عليها ونقتلها هي والطفل.

أيده الراعي. لكنها دخلت إلى المغارة.

قال: "تبعناها بحـذر. زحفنا حتى فتحة المغـارة. سمعناها ترتل، فنظرنا إلى بعضنا لا نصـدق آذاننا. فجـأة رأينا حية كـبيرة تزحف إلى بـاب المغارة وتلتف حول نفسها وترفع رأسها وتنظر إلينا ولسانها المشقوق يخرج من فمها المفتوح. استدرنا وركضنا".

الدير لا يقبل داخل أسـواره الأطفال بكافة أنواعهم.. يتـامى كانوا أو أولاد حرام، لكنهم فتحوا الباب للمرأة المخبولة التي تحـمل رضيعها. لم يسمحوا لها بالدخول. أخذوا الرضيع منها وأغلقوا الباب في وجـهها. وفي اليوم نفسه بعد أن عمده أبونا رئيس الدير في حوض المعمودية الحجري القديم، مسحه بالزيت المقدس الخـاص بالدير، والذي كـان يستخـدم فقط في مـسح الذين يجـتازون الاختبار، ليصبحوا رهباناً.

راقب الرهبان أبونا، يمسـحه بالزيت المقدس. لكن أبونا نفسـه لم يكن يعرف لماذا فـعل ذلك قـال: إن الرب ألهمـه بأن يكسر القـاعدة القـديمة ويمسح بالزيت المقدس طفـلاً لم يأخذ العهـد بعد. حمل أبونا الطفل إلى المعـزة التي كانت تقف بمفـردها في الحظيرة الخـاصة بالدير والتي وضـعت بالأمس فقط ولـيدها فمـسح ضرعها بيده، يحننه. أقعى بجوارها حاملاً الطفل في وضع أفقي واضعاً فمه على حلمـتها. أخـذ يرضع بنشاط، بينمـا المعزة تثـغو مـجتـرة بهدوء. همهم الـرهبان بالبركة قائلين: فليتمجد الرب والشهيد العظيم القديس مار جرجس.

غيـروا له قمـاطه ببقـايا جبـة قديمة لراهب مـتنيح. ركع الرهبان يحـيطون به

يرشمون علامة الصليب على جباههم المعروقة، ويرتلون: "فليتبارك المهيؤون الطريق أمام الرب" وحمله أبونا بنفسه فوق بغلته هابطاً من التلة التي أقيم فوقها الدير، متجهاً إلى الوادي حيث الملجأ المخصص لهذا النوع من الأطفال اللقطاء.

في الطريق تذكر أبونا أنه لم يعط الطفل اسماً، ولام نفسه بأسف على هذه الهفوة. لكنه قرر أن يعطيه اسم شفيع الدير: جرجس.

وهكذا أصبح للطفل إسمان لكنه حينما يكبر ويهرب من الملجأ سوف يتخذ لنفسه اسماً ثالثاً، هو عبد الله، ولقباً من عمله الذي اتقنه واشتهر به بعد ذلك وهو الحدّاد، حيث يدور على القرى حاملاً على كتفه أدوات الحدادة، يصنع السكاكين، وسيوف النوارج للمزارعين.

لا يستقر في مكان واحد أكثر من أيام محدودة ليختفي بعد ذلك فجأة، وبهدوء كما ظهر. ليس له بيت أو أسرة أو عنوان محدد. وهكذا تكونت حوله حكايات هامسة. بأنه مخاوي جنية، وأنه يمارس السحر ويعرف الغيب، ويستطيع أن يشفي المرضى ويخادن الطير.

كيف يكتشف أطفال الملجأ وضعهم في هذا السلم؟ لعل فلتة لسان ساعة غضب من القائمين على الملجأ، تكشف الماضي الحزين لهذا الطفل أو ذاك أو لعلها همسة من المترددين على الجنازات أو الاحتفالات.. إشارة عين.. إيماءة.. هزة رأس آسفة أو شامتة أو مُحذِّرة.. وهكذا رغم حرص إدارة الملجأ ومحاولتها الادعاء بأن كل "اللاجئين" سواسية أمام الرب، وأمام إدارة الملجأ، فإن الأطفال سرعان ما يكتشفون أسرار وجودهم في الملجأ، وفي الحياة، ويتحركون وفقاً لقوانينها، أو إذا إردنا الدقة وفقاً لقوانين الكنيسة؛ ورغم أن أحداً لم يصرح بها علانية إلا أنها موجودة وحية بين أستار الهيكل وثياب الكاهن.. حينما اكتشف الصبي المراهق جرجس، موقعه في السلم الاجتماعي للملجأ، وضع ثيابه القليلة التي تبرع بها أهل الخير تزلفاً للرب، في صرة، وسار ببساطة، متجهاً إلى باب الملجأ. دار حوله. تسلق السور بهدوء، وبدون عجلة.. بعد حوالي عشرين سنة، أصبح قائد الملثمين!

لكن.. هذه حكاية حصلت من زمن طويل!

مار جرجس

لما ماري دردس راح ينكز الأميرة المسيحية من فك التنين الرهيب.. راحلوا إزاي يا إخوتي؟.. راحلوا وهو لابس الدرع والسلاح؟.. وللا راحلوا لابس ملكي ومعاه رغيف عيش؟.. راحلوا إزاي يا إخوتي؟ يجيب الجمهور المتجمع في الكنيسة الصغيرة التي ضاقت بهم.. يجيبون بصوت متهدج: راحلوا بالسلاح. يسأل الواعظ المعتلي المنبر بصوت عذب: كالوش.. تعالى يا تنين نتفاهم؟

لاع.. يجاوبونه بصوت حاسم.

كالوش.. اذهب بسلام يا تنين؟

يأتي صوتهم كالرعد: لاع.

يسود صمت مسرحي في الكنيسة سيئة الإضاءة، والتي لم يعد طلاؤها منذ سنوات. بنت العصافير أعشاشها في شقوق السقف القديم.

يفرد الواعظ ذراعيه، وهو يتأمل بعينين قاسيتين نافذتين جمهور المصلين الخاشعين، وقد بدأت أجسادهم تتمايل بإيقاع رتيب بطيء، يتحول إلى حركة جسدية وصوتية عنيفة.. راحلوا بالسيف والحاربا والخوزا.. وهو راكب على حصانو الأبيض.. راحلوه يا كاتل يا مكتول.. وهجم عليه بكوة الرب يسوع المسيح وبشفاعة أمنا العدرا المكدسة وغرز سيفوه في كلبه.. غرز إيه؟

– غرز سيفوه.. فين؟

– في كلبه.. في القلب

ينهض المصلون هائجون يتقافزون فوق أرضية الكنيسة، تصاحبهم زوبعة صغيرة من التراب. تفزع العصافير وتضرب بأجنحتها في فضاء السقف وشقوقه.

يصيحون ودموعهم تسيل على خدودهم: هللوليا هللويا.. ليتمجد اسم الرب.. رب الجنود. تلمع عيونهم بشهوة القتل.

من كنائس صغيرة مشابهة، ومن جمهور ممسوس كهذا، في طول مصر وعرضها، نبت تنظيم "فرسان مار جرجس الشهيد العظيم". انضم إليه مئات من الشباب والشابات والرجال والنساء وقد علقوا، فوق صدورهم، ميدالية صغيرة لمار جرجس وهو يمتطي صهوة جواده الأبيض شاهراً حربته موجهاً إياها إلى صدر التنين.

في البداية، لم يكن تنظيماً بالمعنى السياسي أو العسكري.. جماعات متفرقة، من مستويات ثقافية وطبقية مختلفة. تدريجياً بدأت الميدالية في الظهور. تم توزيعها بشكل واسع، لتتحول بعدها إلى رمز يربطهم ببعضهم. ورش صغيرة نبتت في الأحياء الفقيرة. في بيوت وشقق وبدرومات، يعمل فيها "أسطوات" على إستمبات بدائية ليتلقف إنتاجها، شباب وشابات، يتجولون في القرى والنجوع. يتجمعون في الكنائس، وعلى مداخل الأديرة. يعرضون الميداليات بصمت ومعهم صناديق صغيرة من الورق المقوى أو المعدن يجمعون فيها "التبرعات" التي يسقطها الشارون.. كُلٌّ حسب قدرته. وجوه الشباب متجهمة وصارمة.. يتحركون في جماعات، يظهرون ويختفون فجأة.

ثم بدأت الأخبار الهامسة في وجل تتواتر. أخبار عن هجوم خاطف لإنقاذ رهائن، تمَّ اختطافهم بواسطة الجماعات السنيه (كمايطلقون عليهم).. أخبار يتم إذاعتها في نشرات صغيرة سيئة الطباعة أو مكتوبة باليد على ورق رخيص. بها ملحوظة تقول: "وزع النشرة على إخوتك في الرب ولا تمزقها حتى لا تمزق العذراء المقدسة شملك".

من يجمع نقود التبرعات وأين تصب؟

من يطبع النشرات وأين؟

متى تحولت الشائعات المبالغ فيها إلى حقائق وأخبار تذيعها وكالات الأنباء؟

متى سقط مقاتلون؟ ووزع الأحياء من رفاقهم والعاطفين عليهم صورهم، أثناء القداسات التي أقيمت لراحة أرواحهم؟ ولأن الجو العام الذي أنبت كل

هذه الأشياء كان خارج الزمن.. زمن خاص بذاته يسبح في فضائه المنفصل، متغذياً على منطقه الخاص وعلى الغريزة الأساسية في الإنسان.. الكراهية.

* * *

سري وعاجل جداً

السيد العقيد مدير شعبة أمن الأضرحة وشبابيك الأولياء

تحية واحتراماً

طبقاً لتعليماتكم وتوجيهات السادة المسؤولين، فإننا نقوم بمراقبة الأضرحة الدينية وشبابيك الأولياء المختلفة مراقبة دقيقة وذلك بالتعاون مع خدامين الأضرحة وحراسها المتواجدون في الموقع بصفة دائمة، وحيث أنهم يقومون بتسليمنا جميع الأوراق التي يدسها الأهالي في شبابيك الأضرحة بغرض الشكوى لأغراض مختلفة. وبفرز وارد اليوم ٢٧/ ٤/ الساعة صفر خمسة، وجدنا المنشور التالي المرفق والمرسل لسيادتكم مع مخصوص طبقاً لتعليمات السيد النقيب قائد وحدة ضريح السيدة زينب رضي الله عنها وذلك لما يحتويه هذا المنشور من أفكار هدامة وما يمكن أن يثيره من بلبلة إذا ما وقع في أيدي أعداء الوطن العزيز. وتفضلوا سيادتكم بقبول الاحترام ونحن في انتظار تعليماتك للعلم واتخاذ اللازم.

ملحوظة: تركنا المنشور على حاله بلغته الركيكة ولم نتدخل، طبقاً لتعليمات النقيب صلاح الدين الكردي. قائد وحدة أمن ضريح وشباك السيدة زينب.

عرض حال رقم واحد

إلى صاحبة المقام ورئيسة الديوان السيدة زينب عليها السلام ورحمة الله وبركاته أما بعد مقدمه لجناب مقامكم الطاهر العبد الفقير لله بعد أن ضاق بي السبيل ولمعرفتي أن الشكوى لغير الله موزلة هذا بالإضافة أن الشكوى للحكومة تكلف الواحد حق التمغة وكما لا يخفي على جنابك بأنه من المحتمل جداً أن يتم القبض على صاحب الشكوى المزلوم وعقابه كالعادة ما يحدث كسيراً لذلك ولأسباب أخرى كسيرة أرسل عرضحالي هذا مباشرتن إلى مقامك العالي تجنبن لرقابة البوسطا وللبصاصين الذين يجوبون البلد بالطول والعرض وأحب أن اقول أولن أني لا اعبر إلا عن نفسي ولم يوكلني واحد من جماعتنا بالحديث عنهم وأعتقد السبب في أنهم شديدو الزعل والخوف من جماعتكم وأنا عازرهم في هذا فهم يحسون أن جماعتكم عملوا عليهم ملعوب منذ أن جائوا إلى مصر المحروسة بدعوة منهم لكي يساعدوهم في التخلص من حكم الرومان النصارى الذين عزبوهم وقتلوهم لأسباب لاداعي لزكرها لأنها بالتأكيد لا تخفى عليكم لهذا فإن جماعتنا يحسون بالغيظ من كل ما يحدث من جماعتكم وأنا متأكد بأنكم لو عرفتم بالحاصل لما تأخرتم بإجراء اللازم ورفع الزلم عن جماعتنا وخاصة بعد أن دفعنا الجزية كذا مية سنة التي وافق رئيس جماعتكم أن يأخذها من جماعتنا وأن يتركهم بسلام لكن الزمن غدار والدنيا نسايا ومنذ وقت قريب ظهر ناس من جماعتكم يريدون إرجاع الحال لأيام زمان لما كان أمير المؤمنين يسكن دمشق أو بغداد أو الآستانه ويأخذون الجزية من تاني. وكل هذا التاريخ معروف لجنابك مع انهو والحمد لله أخذنا نعيش مع بعضينا كأخوة. ولم يعد هناك خلفاء بتوع بغداد والذين عملوا حاجات مع النسوان والغلمان يعف القلم عن زكرها في مخاطبة جناب مقامك الطاهر وبتوع العباسيين اللي زكرهم التاريخ نبشوا قبور الخلفاء قبليهم وطلعوا الجثث. ضربوها علقة. الحقيقة الواحد

محتار لا يعـرف لماذا يريد هؤلاء الناس إرجاع الخلافة من تاني خصـوصاً بعد ما عملها مـعاوية بالتوريث بعد مـا كانت بالشوره. يمكن علشـان كده؟ مين عارف.
أخذوا يهاجمون جماعتنا في عقر دارهم وكنائسهم رغم العهد القديم بينهم وبين ابن العـاص وابن الخطاب هذه واحدة والثـانية فكر ناس من جـماعـتنا أنهـم يريد إشهـار إسلامه لانهم خـايفين وأنا عن نفسي مستعـد أن أشهر إسـلامي في التو واللحظة ولـكن أريد منك النصـيـحـة والمشـورة أي إسـلام أدخـله هل إسـلام التلفـزيون الذين قـالوا بعدم مـواكلة النصـارى ثم يروحون يجـلسون مع البـابا ويشربون شاي وياكلون جاتوه أم إسلام مرشد الأخوان الذي يقول أنهم لا يجب أن يكون النصـارى في مراكـز قـيادية في الجـيش. أم إسـلام موائد الرحـمن لمدة ثمانية وعشرين يوم و بعدين ترجع ريمه لعـادتها القديمة. لعله إسلام بتوع الجرايد زي بتاع جريدة الأهرام الذي لما يروح بلاد الخواجـات النصارى يقول كلام تاني غيـر اللي يقوله في بـلاد المسلمين وكذلك الصـفحة الديـنية في جرايد الحـكومه والجريدة الدينيـة بتاعتـها. أو إسلام مشـايخ الحكومة مع انهم حللوا مـال الغلابه للريان والسـعـد والشـريف وغيـرهم من النصـابين وهم نفس المشـايخ إللي مـا بيحبوش يعملوا العمليات الجراحية إلا عند الدكاتره النصارى واليهود في أمريكا مع إنهم يحرمون عـلى الغلابه العلاج هناك بحجة أن ربنـا عاوزهم يموتوا. ولهذا فإن كـان القول بالشـهادتين يحل المشكلة إذن فـلا بأس، وليس هذا إنتهـازية مني لكن حاعمل زي الجمـاعة بتوع مكة لما الرسول عليه السلام دخلها فـاتحاً منتصراً بإذن الرب فهربوا على الحرم والكعبة وبعـضهم كت على بيت أبو سفيان مع انه ما كانش آمن لسـه لكن الرسول امنهم. إحنا عاوزين نشوف لينا حتة نـدخل فيها حتى نصـبح من الآمنين بإذن الرب. وفي الحقـيقة الواحـد محتـار لأن الواحد إذا دخل في إسلام الجـماعـه التانيين وهذا بدون ذكـر أسمـاء وأنتي سيـدة العارفين بطبـيعة الأحـوال، فاحـتمـال أن الجماعـة الأولانيين ياخدوا الحكم منـهم زي ما بيحصـل اليومين دوله في أفغانسـتان فيلاقي الواحـد من جماعتنا نفسه بدون ما يقصد مع الجماعة الغلط. لأن الواحـد من جماعتنا إذا دخل الإسلام اليومين دوله

فهو يدخله خائفاً لكي ينجو برقبته وأعتقد أن هذا عمل ما يرضيش ربنا ولكن المسئول عن هذا هم جماعتكم ابتداءاً بمشايخ الحكومة والتلفزيون والجامعة ومساجد وزارة الأوقاف والفتاوي إياها إللي بتحلل فلوس النصارى باعتبارها غنيمة حرب، مع إننا اتهزمنا نصارى ومسلمين في الحروب إللي دخلناها سوا ضد الجماعة إللي بالي بالك. اشمعنى تعتبرونا مهزمين مع إنكم اتهزمتوا معانا بل أن القائد الكبير كان واحد منكم. وإذا ما دخلنا الإسلام خوفاً وليس عن قناعة فالذنب يوم القيامة سيكون برقبة من ذكرت لك أسمائهم وليس برقبتنا نحن وهناك أسماء كثيرة داخل البلد وخارجها ترتعش يدي إذا ما كتبتها خوفاً ولهذا فلن آتي على ذكرها وإن كانت لا تخفى على رئيسة الديوان. لهذا تجدين جنابك أن الموقف عاوز تفكير شديد لأن الزمن حوال وماحدش عارف. ولهذا نطلب المشورة من أهل المشورة مثل حضرتك لأنك كما نعلم تعرفين الإسلام الصح من الإسلام الكذب والثالثة ياريسة الديوان وقاضية الحاجات هو أن تكشفي للناس عن الملعوب الكبير الذي دخل فيه بعض جماعتك بمزاجهم أو بغباوتهم الله أعلم لكن النتيجة واحدة هو أن تضيع البلد ونصبح مثل بتوع أفغانستان نندار على بعضينا قتل وسحل وليس هذا بيت القصيد وخلاص لكن الخواجات إللي بالي بالك ومعاهم جماعتهم هنا الطابور الخامس بتوعهم ربنا يورينا يوم فيهم ما يهمهمش البلد ولا ناسها ولا حاجة عاوزين يجلسوا على تلها ويهمهم بس الكرسي إياه والمرسيدس والبنوك بتاعة سويسرا ولكن إللي حايشربها من كيعانه هم محاسيبك الغلابة مسلمين ونصارى لا ليهم في الطور ولا في الطحين وأستسمحك في أن اقول هنا شيء نسيته في البداية وفي الحقيقة أنا خجلان ومكسوف لأنه طلب بايخ لكن مهم وهو متعلق ببيوت الأدب في الكنايس حيث انه لا يمكن بناء كنيف أو مرحاض أو بيت أدب في كنيسة إلا بعد موافقة ناس كبيرة علشان الهمايوني الذي لا أعرف ما هو بالزبط. فرجاء السماح ببناء بيوت الأدب في الكنايس وأن يترك المسئولين الكبار حدانا الحاجات الهايفة هذه ويهتمون بإلغاء خانة الديانة من البطايق الشخصية والعائلية لأن لم إلغائها يفكر

الواحد بإيام زمان حينما طلب حاكم مصري لا اذكر إسمه الآن من النصارى رعاياه أن يلبسوا الزراق تميزاً لهم عن ابناء عمومتهم الشطار الذين أخذوها من قصيرها وأعلنوا اسلامهم وهكذا لصقت بنا حكاية العضما الزرقا. عرفت من بعض أفراد في جماعتنا أنهم مبسوطين من اللي بيحصل لأنهم يريدون عمل مملكة منفصلة على أرض مصر المحروسة علشان التهليب إللي حايحصل حينما تنهمر كالمطر فلوس الخواجات عليهم. أنا شخصياً ضد هزه المملكة، لانه من المستحيل أصحى وأنام على جرس الكنيسة والقداديس وهذه حاجة تقصر العمر وتصيب البني ادم بضغط الدم. أنا تعودت من نعومة أزفاري أن اسمع الآدان بل وأحب أن أسمعه لأنه بيفكرني بربنا سبحانه وتعالى خمس مرات في اليوم وهذا شيء حسن.

ملحوظه - أنا اقصد هنا الآدان اللي بصوت حلو. إنتهت الملحوظه. الحقيقة سيادتك فيه ناس كثيره من المسيحيين مرعوبة على نفسها وعلى عيالها خصوصاً أن الحكومة عاملة ودن من طين وودن من عجين بل فيه إشاعات أنه فيه جماعة من الحكومة ليهم مصالح في توليع البلد وجعل جماعتنا يقعوا مع جماعتكم والله أعلم وليس آخراً لعلك تسألين لماذا لا أكتب أنا عرض حالي هذا إلى الست العدرا أو ماري جرجس من جماعتنا ويكون زيتنا في دقيقنا والإجابة سهلة وصعبة وهذا حال الدنيا فأول هام لأن الورق متلخبط عند جماعتنا بين مال الله ومال الحكومة والسبب الثاني زيادة المشاكل في العباسية وأنا لا أحب ريحة ما يدور هناك وأني بصراحة ربنا أحب أن أدخل البيوت من أبوابها وخاصة أنه من المفروض أن يسمع جماعتك كلام جنابك العالي. وبعدين فنحن أهل ونسايب وهذا عرفته مؤخراً بفضل إلهام من الرب حيث عرفت أن عائلتنا لها صلة قرابة بالسيدة ماريا الشهيرة بالقبطية التي تشرفت بالزواج من الرسول عليه السلام فقلت لنفسي هذا من فضل ربي فأذهب مباشرة إلى آل البيت فنحن نسايب ولعل كانت للرب حكمة في ذلك إذ حينما خلى المقوقس يرسل ماريا إلى حضرة الرسول عليه السلام الذي قبل الهدية فإن الرب بالتأكيد كان يعلم بالوقت

الصعب الي سيقع على نصارى مصر المحروسة من أولاد عمومتهم الذين أسلموا بعد الفتح فأدخر لنا ماريا القبطيـة والتي تقبلها الرسول الكريم معززة مكرمة ولم يجبرها على تغـيير دينها أو حتى دفع الجزية. وتـالت هام لأننا نعرف إنك فضلتي أهل مصـر المحروسة عن العالمين بتشريف مقـامك الطاهر في أرضهـم ورابع هام لأن المداحين والموالدية في مصر المحروسـة ينادونك بلقب يا مـاما وقد سـمعته بأذني وسجلته على شريط وهو يقول:

لمين اشكي حـالي لاكن مش حـاشتكـي إلا ليه هو لوحـده آديني واقف قـدام الست أم هاشـم وازعق وأقـول يا ماما يا كريمة أنا ناديت على كل الأوليـا وآديني بنادي واقول يا مـاما يا سـيدي الحسن وأخـوه الحسين وصـاحبهم زيـن العابدين وبانده واقول يا مـاما يا كريمة إتذكـريني وماتنسينيش وأنا عمال أناديلك يا مـاما زينب وليه ما بتجاوبيش ردي علي يا ماما يا كريمة. انتهى الموال.

وبهذا ياسـت الستات وقـاضيـة الحاجات أنـهي عرض حالي المقـدم لجنابك الطاهر ولك العـزر مني وأطالب بالسمـاح أنا العبد الفـقيـر لله لعدم ذكـر اسمي للأسباب التي ذكـرتها في البداية وأنا متأكد أنتي تعـرفينه. والسلام عليكم وعلى آل البيت ورحمة الله وبركاته. كـتبه العبد الفقير لله في مصـر المحروسة في شهر مايو من سنة الف وتسعماية وسبعة وتسعين من ميلاد السيد المسيح له المجد وهي سنة ألف واربعماية وسـبعتاشر هجرية إسلامـية وسنة ألف وسبعميـة وأربعتاشر قبطية للشهداء.

السيد النقيب صلاح الدين الكردي

قائد وحـدة أمن ضريح وشبـاك السيدة زينب رضي الله عنـها نود أن نبلغكم اهتمام السيد اللواء الوزير بالمنشـور الذي بعثت به والذي وجدته قوة الحراسة في شباك ضريح السـيدة زينب رضي الله عنها ونخبركـم أيضاً بـأن السيد الوزير قرر

منحكم علاوة استثنائية تطبيقاً لتوجيهاته شخصياً في سياسة الوزارة بمكافئة الموصيب وموعاقبة المخطأ والمطلوب من سيادتكم مضاعفة اليقظة في عملكم الهمام بشكل حساس للأمن القومي وسيرى الله عملكم والمؤمنون صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيا مصر وحفظها الله إن شاء الله من كيد الكائدين بفضل توجيهات السادة المسئولين.

عرض حال رقم – ٢

إلى حضرة جناب السيدة زينب
بسم الله الرحمن الرحيم
بسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين أما بعد

فإني أستدرك خطأي من الأول حينما لم أحييك التحية الواجبة في الإسلام التي فرضها علينا الموظفين في الشهر العقاري والتي يبدأ بها المذيعين في التلفزيون، لذلك وبالعند فيهم أضيف إليها تحية أهل ماريا بالقبطية بلدياتنا وقريبتنا عليها السلام بصفتها من زوجات الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام سأضطر ان اقطع عرض حالاتي لك بعد هذا، لأن بعض جماعتنا عرفوا والله أعلم كيف بالعرض حال الأول، حيث أعلن الكهنة في الكنائس عقب صلاة الأحد بأنه حرام على المسيحي أن يخاطب الأولياء المسلمين، وأن الخطابات يجب أن تكون من خلال بوسطة الكنيسة إلي جهة مسئولة في البلد حتى لو كانت للأولياء. لذلك، وخوفاً من التحريم لكل من يعصي الأمر فسيكون هذا هو خطابي الأخير ويا دار ما دخلك شر على رأي المقدسة والدتنا أما بعد:

أريد أن أسالك بصفتك ريسة الديوان وقاضية القضاة سؤال أخير هل الزي الباكستاني كان على أيامكم وهل كان أبو بكر الصديق وحمزة وعمر بن

الخطاب وأبو ذر الغفاري يرتدون السروال الأبيض وفوقه القميص الطويل بدون ياقة او بياقة. وماذا رأي حضرتك في القاضي الذي دخل المحكمة بالزي الباكستاني باعتباره الزي الإسلامي. يارئيسة الديوان: إني اسحب كلامي بخصوص عدم ممانعتي في إشهار إسلامي كما فعل أعمامي وأخوالي زمان حينما دخل جماعتكم البلد هنا وخاصة بعد الحكايات المؤسفة التي لا تخفي على جنابك من قتل المصلين في الكنيسة. وقد تحدثت مع المقدسة حرمنا وقالت أنه من المحتمل بعد أن اشهر إسلامي أن ألتقي بواحد أو أكثر من الجماعة الذين قاموا بالقتل في الكنيسة فماذا سيكون موقفي؟ هل أضع يدي في يده وأحييه تحية الإسلام وخاصة نحن صعايدة والدم عمره ما يصير ميه وكيف أمد يدي بالسلام لواحد قاتل ناس من أهلي؟ لذلك رجعت في كلامي في الموضوع السابق وسأضطر أن اصف مع أهلي الحاليين في السراء والضراء وربنا يرحم ويلطف بنا جميعاً وقال لي أخ راهب مكشوف عنه الحجاب أن ما يحدث الآن من قتل للمسيحين وخلافه هو من علامات الساعة أي بالعربي الفصيح ربنا عاوز كده وأنه من الأحسن عدم الوقوف في وجه الإرادة الإلهية بينما قال لي واحد علماني أن ما يحدث هو ملعوب كبير وفيه ناس في مناصب عاليه جزء منه وأن السبب في ذلك أن فيه فلوس جامدة من الأمريكان بحجة محاربة السنية المسلحة إلى آخره وطبعاً كما لايخفي على سيادتكم أن فيه ناس في مناصب عالية تعمل بالمثل الشهير إللي يقول حرم الزيت على الجامع، وناخدوه على البيت أحسن. علماً بأن الحكومه أخذت الأرض من اللي وزعوها علينا في الزمانات ايام جمال عبد الناصر ربنا يقدس روحه ورجعتها للباشوات تحت إس فتوى بأني وغيري كنا نأكل مال حرام وأجد الحكومة واقفة في الطابور مع الأخوان في موضوع الأرض مع انها تحاربهم في نفس الوقت. وخطر في بالي الآن أن ناس من جماعتنا ومنهم أنا يشتركون مع ناس من جماعتكم في رأيهم في الحكومة وهذا كما..............

السيد العقيد مدير الأمن أضرحة وشبابيك الأولياء
شعبة شبابيك الأولياء

بسم الله الرحمن الرحيم
بعد التحية والاحترام

مرفق بهذا المنشور الذي يحمل عنوان عرض حال رقم اتنين وهو يبدو من نفس خط وورق المنشور السابق وأن يختلف عنه في انه ناقص حيث تبدو الجملة الأخيرة في السطر الأخير من المنشور غير كاملة ولا نعرف السبب في ذلك وجاري البحث عن كمالة المنشور خاصة واننا نلمح المباديء الهدامة في السطور الأخيرة طبقاً للقانون الذي ينص على محاكمة كل من يحض على كراهية الحكومة وكراهية النظام الجتماعي. ومن قراءة وتحليل المنشور الناقص أنه سيكون الأخير والحمد لله على ذلك وكل هذا بفضل يقظتكم وتوجيهات السادة المسئولين.



الكتاب الثانى

... وفيه يكتشف الكاتب ضياع ما كتبه، وخيانة من كان يظنهم أصدقاءه، ومطاردات تلاحقه من أناس يريدون له الأذى، وما ينتج عن ذلك من مغامرات تفوق الخيال...

"وبالنسبة لأسلوب تفكيري، ليس هناك أكثر مدعاة للسرور من أن يكون الواحد أجنبياً، ولهذا امتزجت مع الكائنات البشرية، لأنهم بالطبع ليسوا من نوعي،
وبالتحديد، لكي أكون أجنبياً بينهم".

منطق الطير

الفصل الأول

أغلق الكمبيوتر، الذي كان يكتب عليه، بحركات بطيئة، غير واثقة. لاحظ أن ظفر أصبع السبابة في يده اليمنى، متسخ. تجمعت الأوساخ تحته. نمى بعض الشيء. فكّر نفسه، وهو ينظر إلى يديه وقد بسطهما أمام عينيه الكليلتين..بأن يقص أظافره بالقصافة (التي اشتراها منذ بضعة أيام، من البائع الذي اقتحم المقهى، ينادي على بضاعته منغماً). جمع أوراقه بملل، ووضعها بدون ترتيب في الحقيبة الجلدية القديمة، رافقته السنوات العشر الأخيرة. لا تزال في حالة جيدة. مال بظهره على مسند المقعد الذي اشتراه بنقوده ونقله إلى مكتبه، في عربته القديمة (اشتراها مستعملة) الأوبل.

خالس النظر إلى الفخذين المنفرجين أمامه (من خلف عويناته السميكة العدسات، التي وضعها الآن خصيصاً على وجهه) المنفتحين من مسافة قريبة بزاوية حادة. يحاول أن يخترق كتلة اللحم عند التقاء الفخذين بعد تلاصقهما. أحست بغريزتها بنظراته؛ فأفرجتهما، منزلقة على مقعدها بمؤخرتها، مواصلة الحديث بالهاتف، ضامة فخذيها ومفرجتهما، بحركة بطيئة مستمرة. ابتسم، ابتسامة صغيرة، دون أن يفتح شفتيه. أخذت تضحك بمرح(في الهاتف) مدخلة يدها الأخرى في تقويرة بلوزنها. ببطء بحركة دائرية تمسّد ثديها(الصغير). تنتفخ البلوزة تحت يدها.

اليوم ترتدي بلوزتها الحريرية الصفراء. اشتراها لها (منذ عام تقريباً؟) والجوب الكحلي الضيقة. لا يعلم من اشتراها لها. لم تكن تمتلكها حتى الشهر الماضي، حينما أخبرته وهما مستلقيان عاريين، فوق فراشه الضيق بأنها - خلاص - لن تلتقي به بعد النهارده. لأنه - حسب تعبيرها - ترى لا يوجد مستقبل لعلاقتهما ".. مش شايفه مستقبل لعلاقتنا، مش كده برضه؟.. بعدين أنا كمان حاسه بالذنب". ود أن يسألها ساعتها: ذنب؟ بالنسبة لمين؟ لكنه بدأ يحس بالملل منها،

ومن العلاقة التي تتخذ طابعها هي؛ ملهوجة، عصبية وميلودرامية (حسب وصفه لها مرة). تظاهر بالجزع، كأنه فوجيء بقرارها الذي كان يتمناه، ولم يجرؤ على البوح، تطبيقاً لحكمة قديمة اكتشفها: دعهن يشعرن بأنهن التاركات ولسن المتروكات، لأنهن في الحالة الثانية سوف يلاحقنك بالدموع والتهديدات. في الحالة الأولى سيشعرن أحياناً بالذنب، باعتبارك المتروك المسكين، فيأخذن على عاتقهن في معظم الأوقات، تموينك بالصديقات المتعاطفات. و"توسل إليها" أن تعيد النظر في قرارها المفاجيء. أحس بسعادتها، لاكتشافها أهميتها في حياته كانت قد قررت إنهاء العلاقة التي لم تستمر سوى سنة واحدة.

الذي أدهشه – ولم يفصح بدهشته – سوى لمصطفى القلاش، أنه زهق من حكاية النسوان. آن الأوان أن يركز في حاجة تاني "زي إيه". سأله القلاش. أجابه: "نفسي أرجع أكتب من تاني، أصلي حاسس إن الكتابة والجري ورا الحريم ما يمشوش مع بعض"، ومع إن القلاش عبر عن دهشته أيضاً، من القرارين المصيريين كما أسماهما، إلا أنه شجعه. ضحكا على نفسيهما وهما يشربان البيرة في البيارة الصغيرة القريبة من مكان عملهما، والتي يلتقيان فيها بانتظام منذ سنوات طويلة.

يدها بين فخذيها، أبقتهما، منفرجتان. يعلم دون أن ينظر ماذا تفعل. غصة صغيرة تتجمع في حلقه.

رن الهاتف على مكتبه. رئيس التحرير

– "خلصّت؟"

– "خلاص"

– "حاتبعته أمتى؟"

– "حاعيد كتابته في البيت، وأجيبه بكره الصبح"

– ".. نروح النقابه، نتغدى هناك، ونشوف موضوع الشقة. النقيب الجديد داخل بشوية. علاقتي كويسه بيه. أحجز لك شقة. في أكتوبر سيتي"

– "حلوه دي . باشتغل في جريده مقرها في سته وعشرين يوليو وأسكن في

أكتوبر. أبويا اسمه العاشر من رمضان، وأمي اسمها ثورة التصحيح. ماشي.. نروح النقابه، بس مش حاكل هناك. على فكرة.. إيه حكاية الأمن اللي مالي البلد فجأة؟ فيه حاجة؟"

- "بعدين. شالوم"

- "يلعن أبوك"

لكن الآخر كان قد قطع الاتصال.

دون غضب حقيقي (كف عن الغضب منذ فترة طويلة وحل محله شعور بالاشمئزاز).. "ولاد حرام. الواد ده كان بيشتغل في الإعلانات وهوب بقى رئيس تحرير. أرني رؤساء تحريرك أقول لك ما هي بلدك".

تراقبه بحذر، وقد أنهت مكالمتها متعمدة، لتتسمع مكالمته، ثم تعليقه بصوت عال.

- "رجعت تكلم نفسك تاني. مافيش حاجة عاجباك".. وضعت ساقاً على ساق وانحسرت جوبتها أكثر إلى أعلى، دون تعمد هذه المرة.. "أشكر ربك يا خويا. رئيس التحرير بيتملقك. بيسألني عنك.. عامل إيه الزعيم النهارده؟ إنشالله يكون راضي علينا".. ما يكونش فاكرني خلفتك ونسيتك. وماله أكل النقابة".. هنا بلغت ذروة غضبها فهي تتناول معظم وجباتها في النقابة حيث تسكن في أطراف المدينة.. "مش أحسن من العك اللي بتعكه في البيت وبتسميه طبيخ. أكتوبر سيتي مالها؟ إيه وحاشتها؟".. الدموع تتجمع في عينيها.."أحسن من السطوح اللي ساكن فيها. مش عاوز تسيبها علشان في الزمالك والبوابين المعرصين بتوعك"..

" شاذ. إنت ما تعرفش تعمل علاقة طبيعية مع واحدة ست محترمة".. لم يفاجأ بانفجارها. شعور بالقرف الممزوج بالرثاء. نهض مسرعاً وخطف حقيبة. توجه إلى الباب. سألته بصوت محايد:

- "رايح فين؟"

أجابها بصوت محايد أيضاً:

- "حاشوف لي واحد شاذ زي

مساء اليوم ذاته

- "ما بتشربش ليه؟"

- "ماليش مزاج. رئيس التحرير، بوظلي مزاجي. العيال دي حاتجنني. طلع من نصيبي. زي ما يكون باعتينه علشان يأدبني. عارف؟ سحبني معاه للنقابه. علشان موضوع الشقة اللي دايخ عليها السبع دوخات. مُصر إنه يحلهولي. وبالفعل. كام تليفون للنقيب وللمحافظ، وخلاص عندي معاد بكره مع المحافظ علشان أروح أشكره واتعرف عليه. إنت شفت بيته؟"

- "المحافظ؟"

- "رئيس التحرير. يا بني حاجة من اللي الواحد بيشوفها في الأفلام"

- "وانت إيه إللي يوديك عنده. إنت بتكرهه"

- "مش عارف. مش فاكر حتى إيه كانت المناسبة. أظن كان في رمضان اللي فات، وأصر يعزمني على الفطار. مع إنه فاطر. تفتكر بيعمل كده ليه؟"

"إنه بيفطر وللا بيعزم واحد ذمي على الفطار؟"

- "إنه يجيب لي شقة"

- "يمكن بيحبك بجد. يمكن عاوز يزكّي على واحد من أهل الكتاب. وحنا مالنا يا أخي. المهم يجيب لينا إللي عاوزينه. اللي يجي منه أحسن منه. العيال المعرصين إللي مالين الجرايد اليومين دوله والبنات اللي فاتحين رجليهم من ورا ومن قدام، واخدين نصيب الأسد ونصيب اللبوه كمان. حضرتك من المفروض تفرح بعضمه فيها حتة شعته.. ما تنساش سيادتك، إنك كنت عايش بره أكثر من خمستاشر سنه. وفي غيبتك حصل اللي حصل. زي بتوع أهل الكهف. صحيت لقيت نفسك في زمن تاني. ماتنساش كمان، واحب أفكرّك إن كنت ناسي على

رأي أم كلثوم إنك معكوك عكة من اللي هي".

- "أولاً موش أم كلثوم. ثانياً عكة إيه. إنت بتخرف وللا سكرت من كوباية بيره؟"

- "إنت اللي عايش في البلهنية. ناسي إنك كنت في السجن. ناسي إن ليك ملف في المباحث وملف في أمن الدولة ويمكن ملف كمان في المخابرات؟. إن كنت ناسي افكرك".. قال الجملة الأخيرة منغماً بصوته الأجش.

تأمل كل منهما الآخر في جو البيارة الغائم. كل منهما يضع نظارة سميكة العدسات على وجه مليء بالتجاعيد والغضون. مصطفى القصير أصبح له كرش، يظهر بوضوح. بنت على أبواب الجامعة. كانا في المعتقل سوياً. الواحات الخارجة حيث تعرفا على بعض هناك. استمرت علاقتهما حتى الآن. يتبادلان الأسرار والنميمة. يتخاصمان مثل الصبية الصغار. ويقرران القطيعة النهائية. يتصالحان بعد فترة، وقد نسيا سبب الخصام. زوجة مصطفى لا تحبه (وكذلك معظم زوجات أصدقائه الحميمين) تعتبره منحلاً وله تأثير سيء على زوجها. يتعامل معها بمزيج من السخرية والاحتقار. قررا أن يلتقيا خارج البيت، بعيداً عن الزوجة. يلتقيان من وقت لآخر.

توقفا عن الكتابة منذ زمن طويل لأسباب مختلفة، لم يستطيعا مواجهتها بصراحة. انغمسا في الحياة (حسب تبريرهما) وحينما اعترف أنه يفكر في العودة للكتابة مرة أخرى، شجّعه مصطفى بحماس صادق:

"إيه أخبار الإحليل"

موسوس، يتفاءل ويتشاءم (رغم الفلسفة الديالكتيكية). أجاب بغموض وحذر "ماشي الحال".

ضحك صديقه الذي يعرف وسوسته، لم يعلّق. قام يتبول متطوحاً. أحس بقلق حقيقي عليه وهو يراه يتوجه إلى المبولة. يقضي معظم النهار خارج البيت. يأكل وجبةالغذاء (أكل السوق) يحمل جسده الذي يزداد ثقلاً بصعوبة متزايدة. نوبة قلبية خفيفة منذ شهور. رغم إحساسه بالقلق على صديقه، إلا أنه أحس

بالرضا على نفسه، لأنه بدأ مرة أخرى - رغم العمر المتقدم - أن يأخذ بين يديه أمور حياته. أحس بالخجل من مشاعره. أشعل سيجارة وأخذ يفكر بسرعة في أن يقول شيئاً مسلياً وظريفاً لصديقه حينما يرجع.

الفصل الثاني

الكتابة على الحائط

في تلك الساعة ظهرت أصابع يد إنسان وكتبت على حائط بيت الملك..
"ثقيل، وزنت بالموازين فوجدوك ناقصاً..
سفر دانيال

خذ عندك سلوى مثلاً وما فعلته هي أثناء النهار في المكتب.

حاولت البنت منذ الساعات الأولى لاستقرار مؤخرتها الرجراجة على المقعد الخشبي الضيق، منذ أن وضعوها في مكتبي، أن تكسب مودتي مما زاد في حنقي عليها وشكوكي في أهدافها ونواياها. عاملتها بمزيج من السخرية الباردة والاحتقار الواضح. حتى مؤخرتها الرجراجة التي تعرف تأثيرها، لم تشفع لها، ولا صدرها الذي تترك زرارين في بلوزتها مفتوحين، تغرق بين ثدييها الصليب الذهبي الصغير(اعتقدت بنت الكلب بإني سأحن لواحدة مسيحية مثلي، لكن خبرتي الطويلة بالبشر والآلهة أيضاً تجعلني أنفر من هذا الاستجداء الرخيص) ولا حتى صوتها المغناج ببحته التي تبالغ فيها بحيث تشعر المستمع أنها على وشك الأورجازم.. ولا.. ولا. كنت مشغولاً بفكرة رواية الإحليل التي احتفظت بها لنفسي سراً. مشغولاً بحياتي. وأهم من ذلك كله: على مشارف الستين، على

مشارف اكتئاب، أحس به مثل بداية الصداع النصفي الذي أعرف مقدماته.

أيضاً، أخذت هي تطور من حركـاتها حتى استقرت على ما أسـميته أنا الدبل كيك: يـد في صدرها تدلكه والأخـرى بين أفخـاذها. أحيانـاً كنت أكتشـف أنها تتعمد أن "تنسى" أن ترتدي شيئاً تحت الفستان. كانت تتطور بسرعة. حاولت أن أجعلها تعترف بدورها التجسسي عليّ، لكنها أنكرت باكية (أنا أعرف هذا النوع الكاذب من الدمـوع.. وعلى فكرة لا يوجـد شيء صـادق فيـهـا سوى رغـبـتهـا الجنسية) مما جعلني أفقد مزاجي وبصراحة استخسرهم فيها.

لم يعد الواحد بقادر على الممارسـة مثل أيام زمان. المزعج أن الرغبة ما زالت موجودة بذات القـوة (تقريباً).. لكن الهـمة؟.. أفهم لماذا يكره الشيـوخ الشباب، ويعزون إليـهم كل نقيصـة. هذا حسـد مستتـر خلف حاجـات تانيه. مثلمـا أكره سلوى، لأنهـا تذكـرني بقلة حـيلتي وبتدهـور حالتي. أكـره قـوتها وعـنفوانهـا، ورغبتها الطبيعية في الاستمتاع بجـسدها حينما تفرشه فوق الفراش متمطية كقط كبـير، تتأمل أعضـاءها باعجاب. تأمرهـا فتطيعهـا، دون تصلب ولا تتأوه إلا من اللذة وليس من آلام الغضـروف وتصالب العضـلات مثلما يحـدث للواحد الآن وهو يمشي، أو يمارس الأشيـاء التي كان يمارسها زمـان بشكل أكروباتي، دون أن يحسب أو حـتى يفكر في العـواقب. لعل هذا هو السبب الحـقيقي الذي جـعلني أهرب من سلوى إلى الكتابة.

تتنابني حالة سخيفة هذه الأيام من الرثاء للنفس الممتزج بالسخط، وأنا أحمل جسدي الذي أصـبح ثقيلاً، وروحي المتعبة المحـملّة بالهزائم الشخصيـة والعامة، تتخلل نومي أحـلام غير مفهـومة بأهلي، خاصة الأمـوات منهم ولعل السبب هو الموات الذي يحل بي وبالأشـيـاء من حولي. لا ترعـبني النهـاية قـدر ما يرعـبني الاقتراب منهـا. نهايتان في الحقيقـة، الأولى - وهي الأقسى في نظري - هي التي يواجهـها الذكـور من البشـر (هل الحيـوانات تواجه نفس الموقف؟).. لقـد تربينا على أن الفحولة الجنسية مرتبطة بالذكورة..

طيـب! وحينما تنتهي الفحولة أو تضـمحل ماذا يحدث للذكر منّا؟.. ها هو

داوود النبي بعد ما شاخ، ترقد عذراء في حضنه ولا يعرفها، تعمل كحاضنة، تأخذه في حضنها، أثناء الليل أو حينما تنتابه الهواجس، أليست وظيفتها الرسمية في بلاط الملك؛ حاضنة؟.

لماذا لا يتم الانسحاب من ملعب الجسد بكرامة واحتفال، كما ينسحب اللعيبة من الملاعب؟ أو لا بد من استخدام الكارت الأحمر؛ أي الطرد المهين؟.. موش عارف.

الفصل الثالث

– اعترفت؟

– أعترف على إيه؟ خدتهم على قد عقلهم.. لأ الحقيقة همّا إللي خدوني على قد عقلي.. صدقوا حكاية الحزب الملكي والملثمين وفرسان مار جرجس و...

– الرواية؟!

– قال إنه مافيش دخان من غير نار؟

– يعني النار موجودة؟

– والله أنا اتلخبطت على الآخر. هو بيدعي إن عندهم معلومات

– معلومات إيه؟ على الكلام الفاضي ده؟ ده جنون!

– أنا عملت إللي عليّ، بما إنهم اعتبروني بمثّل الطايفة، وعندي معلومات، أخيب أملهم فيّ؟ فتحت على الآخر. عملت فيها أبو العريّف.

مصطفى القلاش ينظر إلى بعيد ويسرح "مع إنه صاحبي وحبيبي من أكتر من تلاتين سنة إلا إني لسّه ما عرفوش كويس. قال لي كل إللي حصل بينه وبين أحمد صالح؟ أم أنه كالعادة عمل مونتاج؟ ثم حكاية الحزب الملكي، والملثمين وفرسان العدرا وللا فرسان مار جرجس. مجرد اختراع؟ أم أن الحكاية فيها ريحة الحقيقة إللي الواحد بيسمع طراطيش عنها من وقت لآخر؟ موش يمكن في

الكنايس بتاعتهم، بيتبادلوا معلومات، وحاجات، ما حدش من براهم يعرف عنها حاجة؟".

القلاش هاله تفكيره. حاول أن يوقف نفسه، التفت إليه مدارياً خجله قائلاً "ولا يهمك"

- انصحني. بصفتك مسلم أباً عن جد، أعمل إيه لو الجماعات وصلت الحكم؟

- موش حيوصلوا. إحنا في مصر. عمر ما الجماعات حا توصل الحكم

- يا سيدي فلنفرض. أعلن إسلامي؟

- طبعاً!

- أقول إيه؟ الشهادتين؟

- لأ. في الأول تصرخ بأعلى صوتك: إستتيبوني.. إستتيبوني. مرتين على الأقل. وبعدين لما يستتيبوك تقول الشهادتين. أو العكس موش فاكر.

- وإنت؟ حا يعملوا فيك إيه؟

- حا دخل بيت أبي سفيان!

.. لكنه حينما سار راجعاً إلى بيته، وحيداً، كان عقله يعمل بطريقة أدهشته. عرف الآن من سرق مخطوط الرواية التي لم تكتمل. لكنه لم يعرف السبب، إلا حينما تم استدعائه، أو في الحقيقة خطفه، من الشارع، تماماً مثلما حدث لبطل روايته هو.

قال لنفسه بصوت مسموع (أصبحت عادته في الأيام الأخيرة أن يكلم نفسه بصوت مسموع) حاجة مبتذلة. بيكرروا فيّ نفس إللي كتبته. هزار رزل. أحس أيضاً بخوف ثقيل يمسك بتلابيبه.

وفي البيارة ذاتها. موعدهما الأسبوعي الذي لم يتغير منذ سنوات. الآن - لعل هذا منذ وقت مضى؟ - استقرت عاداتهما ومواعيدهما.. حتى كرشيهما. اعترفا لبعضهما في جلسات سابقة - لعلها من سنين - بأنهما لم يعودا يستمتعان بالحياة زي زمان، وحسب تعبير القلاّش: ما فيش بهجة. حاول هو أن يقنعه ويقنع

نفسه؛ بأنها مرحلة عابرة بين منتصف الخمسين والستين. تظاهر الآخر أن يصدقه.

قال له القلاش، وهو يتأمل دخان سيجارته بعد نوبة كحة:

- عارف؟ أنا بحسدك

- على إيه؟ على خيبتي؟

- بالعكس. على جرأتك. على إنك رجعت تكتب تاني. نفسي أعمل زيك.

- طيب ما يلليه ، إعمل زيي. إرجع اكتب تاني

- عاوز أكتب بس مش عارف أكتب عن إيه. موش عارف أكتب إزاي

- إكتب عن إللي شفته. عن إللي سمعته. عن الحزب، عن الناس وعن السجن، عن الحياة في بغداد، عن تجربة الاشتراكية في اليمن إللي كان جنوبي. إنت كنت هناك وشفتها، عن الحياة في المانيا الشرقية، إللي كانت شيوعية. موش إنت عشت هناك يجي خمس ست سنين.

- تعرفشي إني عندي ابن من واحدة ألمانيه؟

نظر إليه بدهشة حقيقية. ابن؟ لم يقل له أو لأحد الكثير عن حياته في ألمانيا الشرقية. ابن.. وألماني كمان!

بدا الآخر متردداً، لم يحسم أمره بعد. كتوم. تعوّد على الكتمان من أيام العمل السري. وشكاك أيضاً بطبيعة الأمور، خاصة بعد زواجه. لا يحكي كثيراً عن مشاكله مع الزوجة. مجرد طراطيش كلام.

- بعدين. أصلها حكاية طويلة. ياريت أعرف أوصل للصيغة، إللي إنت وصلت لها. النص نص. كل حاجة عندك على النص: متزوج ومخلّف، عيلتك بعيدة عنك. عايش شوية في مصر وشوية برا البلد.

بتعمل إللي عاوزه. ساعة ما يجيلك مزاجك، تسافر.

لم يكن يصغي إليه. عيناه تراقبان الداخلين وخاصة الغرباء.. شك في اثنين. جلسا على مائدة قريبة منهما. قال لنفسه: يتظاهران في الانهماك - في حديث هامس. تجاهلاه تماماً.

ضرب بقدمه، قدم مصطفى من تحت المائدة. نظر إليه هذا مستفسراً. أشار هو

بعينيـه إلى القادمين الجديدين. همس له أن لايلتـفت تجاههمـا. حرك شفتـيه دون صوت "قائلاً" : مباحث.

الفصل الرابع

الإحساس الأول الذي أحس به، رغبته الجارفـة في التبول. ما زال لم يتمالك بعد كامل وعـيه، حاول أن يقوم من المقـعد الذي يجلس عليه، لم يستطع؛ مـقيد من يديه وقدميه إلى المقعد.

لعل أحدهم كان يراقبـه خلسة؛ سرعان ما انفتح البـاب المغلق الذي لم يتبينه حتى الآن، وظهر في مربع الضوء الساطع الذي ينير الطرقة الضيـقة خلف الباب المفتوح، رجلان، أو لعلهما شابان يحملان بندقيتين .

- حمد الله على السلامة

قالها الأكبر سناً الذي كان مـثل زميله يرتدي الثياب المدنية (بدون ربطة عنق) لم يستطع تبين نبرة التحية. متسهزئة؟ أم صادقة؟.. غمغم هو: عاوز أبول

- بس كده؟

قالها صاحب التحية.

تبين الآن أنها نبرة استهزاء.

- مؤقتاً

أجاب هو بنفس النبرة المستهزئة

- عندك مشكلة في الكلى؟

لم يجب. مـشكلتـه الآن أن لا يتـبـول على نفـسه. فـكر "عليّ أن أتحكّم في الموقـف. أن أتحكّم في نفسي" انتظر صامتاً ضاغطاً على عضلات حقويه.

قـاداه معـصـوب العينان، عـبـر طرقات وردهات، فـي دوائر أيضاً إلى مـا أحس أنها مبولة كـبيرة، نفذت رائحة الصنان إلى أنفه. أزاح أحـدهـما العصابة

من فوق عينيه، وقفا خلفه. رَكَّزَ إرادته في التبول.

يده ترتعش. الألم الحارق القديم الذي يصاحب التبول يعاوده "مش وقته".. كاد يقولها بصوت مسموع، يحاول أن يلهي نفسه حتى لا يجعل الألم يسيطر على تفكيره. تنهد يهز القطرات الأخيرة، ويغلق السحآب. أراد أن يستدير، باعتبار أن ما يحدث عادي، لكن اليد الحاسمة، أوقفته، وضعت العصابة مرة أخرى فوق عينيه. أداروه. أمسك كل منهما بذراع (هذه المرة برفق) وقاداه كما في المرة السابقة، عبر طرقات وردهات وفي دوائر أيضاً. غرفة مختلفة عن السابقة.. تأكد من ذلك (نزعوا العصابة من فوق عينيه). في الغرفة مكتب كبير يحتل الجزء الأكبر منها، تضيئها أباجورة كبيرة موضوعة فوق المكتب، ومصباح آخر في الزاوية التي أجلسوه فيها على مقعد وثير أمام مصباح الزاوية. تركاه. عند الباب قال الآخر الذي لم يتكلم من قبل:

- قهوه وللا شاي؟

- على الريحة.

أضاف بعد لحظة:

- لو سمحت

لكن الباب كان قد أحكم إغلاقه. فكّر:

لعلي أحلم. مجرد كابوس.

لكنه لم يكن يحلم. يعلم ذلك.وبطريقته البراجماتيه (التي تتقبل تصاريف القدر كما يحب أن يسمي ما يحدث له من خير أو مصيبة) أخذ يتأمل الغرفة، يحاول أن يتبين ماهيتها وبالتالي ماهية "الخاطفين" كما أطلق عليهم منذ أن انتهى من تبوله. بين وقت والآخر تنفذ إليه أصوات غامضة. ضحكات (رجالية) أصوات غاضبة وصيحات فزع، لعلها صيحات ألم؟.. "بيخوفوني".. فكّر يحاول أن يجلب السكينة إلى نفسه (التي هدأت الآن قليلاً) لكن شيئاً في داخله يقول له "إصحى.. إستجمع مخزونك القديم من الذكاء والخبث والحيلة.. إن حياتك في الميزان.. إصحى!"

باب جانبي لم يتبينه من قبل، خلف ستارة سميكة داكنة. دلف منه إلى الغرفة شبح سمين، خفيف الحركة، نشر حوله آفتر شيف نفاذ "لعلها تباك؟" فكّر. مصباح آخر سطع ضوؤه القوي الجانبي على صفحة الوجه السمين، بان لامعاً أسمراً له ملامح نوبية. عرفه مباشرة: أحمد صالح.

– شربت القهوة؟

صوته مداهن لامع مثل وجهه .

– حصل

– شاي؟

– لم تكن دعوة، بل أمراً. ثم..

– آسفين على الطريقة اللي جبناك بيها. أصلك ماكنتش حانيجي من نفسك. عارفينك. إنشالله ما يكونوش أزعجوك. حانشرب شاي، ونتعرّف على بعض. عاوزك تنورّني حوالين بعض المسائل.

تيقظت قرون استشعاره الآن تماماً. أحمد صالح، الذي سمع الأساطير عن قسوته وتفننه في التعذيب. كيف يتأتى له أن "يصعد" حتى يصل إلى رئاسة قسم هام كهذا في "أمن الدولة".. المعرفة المفاجئة التي كانت غائبة عنه طوال الوقت، لطمته: أنا إذن في أمن الدولة. لكن أي قسم؟

أحمد صالح، كان حتى فترة قريبة يعمل في قسم مكافحة الشيوعية، وضعوه على الرف فترة بعد أن هدأت غاغة مكافحة الشيوعية لتبدأ بعدها موجة مكافحة "الإرهاب الديني المسلّح" ليعاود ظهوره مرة أخرى ويحقق مع كثير من الجماعات الذين أذاعوا أهوالاً عن أسلوبه.. التهديد بالاغتصاب، إحضار نساء وزوجات وأمهات المقبوض عليهم من الجماعات، والتهديد باغتصابهن، بواسطة رجاله، أمام أعين المقبوض عليهم. فاحت رائحته، توالت احتجاجات المنظمات الدولية والمحلية لحقوق الإنسان، وضعه النظام على الرف مرة ثانية. اختفت أخباره وصوره من الصحف. هاهو الآن يجلس مرتاحاً بجسده السمين ووجهه اللامع والآفتر شيف النفاّذ، يعتذر عن الطريقة التي..

- حاريحك

ضحك ضحكة خافتة ممطوطة، انتهت بشهقات، أضاف:

- "حاسس بمخك بيشتغل زي الرهوان..

"حاريحك، إحنا قسم جديد، لسه بشوكه (ضحك مرة أخرى معجباً بتعبيره) مشوكين شوية. اسمه قسم الوحدة الوطنية. مش إنتم عَمَّالين تصرخوا.. وحدة وطنية.. وحدة وطنية. عملناكم يا عم قسم وحدة وطنية. القسم ده بتاعكم. علشان كده لازم تتعاونوا معانا".. قاطعه

- إحنا مين؟

نظر إليه الآخر بضيق، سرعان ما أخفاه تحت ابتسامة صغيرة

- إنتوا اليسار (أضاف بقسوة) الشيوعيين والناصريين، والقبط، آسف المسيحيين. إتلميتوا على بعض من تاني. (يتنهد) موش إنتم بتسموا نفسكم الوطنيين. إحنا كلنا اليومين دول وطنيين. في خندق واحد (ضحك مرة أخرى) معلهش.. إسمح لي أستعير تعبيركم. أصله حلو (شهق ضاحكاً).

- ضد مين؟

نظر إليه الآخر متمعناً.. فهو يحب هذه الألاعيب (كما يسميها).. المحاورة، والمرواغة، لأنه حينما يضيّق الخناق على الطريدة، وتسقط لاهثة الأنفاس "في حجره" يشعر بمتعة خاصة، لا يشاركه فيها أحد.

- اشرب الشاي الأول. سيجاره؟ وللا أجيبلك شيشة من رباعيات الخيام.

(يريد أن يقول لي إنه يعرف مزاجي. راقبني ويعرف ماذا أشرب وآكل وأدخن، واي مقهى. سيوحي لي إنه أيضاً يعرف مع من أنام. معلومات تافهة).

- "ضد مين؟ ضد الجماعات بالطبع، ضد جماعتك كمان. أنا عارف صعوبة الوضع بالنسبة لك، وخاصة فيما يتعلق بجماعتك. لكن إنتوا بتوع اليسار، مالكوش دعوة ببتوع الكنيسة. إنتوا علمانيين، عاوزين تفصلوا الدين عن الدوله. موش كده وللا أنا غلطان. لو أنا غلطان صحح لي. حا كون أسعد إنسان (يفكرني بمدرس الحساب في..)

موش بقولك أنا عاوزك تنورني؟"

دهشة عميقة تحل عليه. لعلها بانت على وجهه؛ مما أثار إعجاب الآخر بنفسه (أكمل) إحنا بنعرف دبة النملة. زي رئيس الوزرا؟ ومع إنه (يضحك) قال إذا واحد زانق واحدة تحت السلم إحنا برضه بنعرف، لكن أنا مالي يا حكومة.. هو مالوش دعوا. لكن أنا ليا دعوا.. أمال إحنا شغلنا إيه في البلد؟ حا نشتغل معرصين؟ وللا حا نشتغل معرصين؟

-أنا مش فاهم إيه العلاقة بين..

– العلاقة؟ كل الأشياء مترابطة. أنا درست في الكتب بتاعتكم (يقهقه).. طبعاً فيه علاقة. بس ده موضوع تاني. نرجع له بعدين. كل حاجة في وقتها. المهم إحنا عاوزين نتعاون مع بعضينا. إحنا برضه بنحب البلد زيكم تمام. ويمكن أكتر. عيب. موش حانزايد على بعضينا.. إحنا وطنيين. وزي مافهمتك.. إحنا كلنا في خندق واحد. يا نعيش مع بعضينا.. يا (بحركة بطيئة من يده اليمنى يشير إلى رقبته) حنروح كلنا في الباي باي.

الدهشة، حل محلها الآن شعور بخوف غريب، الخوف الذي يحسه الآن حينما يحاول أن يشد نفسه من داخل الظلمات المحيطة به، يجد نفسه يزداد غوصاً فيها (فتح أحمد صالح درجاً وأخرج منه ملفاً كبيراً وضعه أمامه، بحركة مسرحية ومدروسة، قلّب فيه ببطء. يتوقف أحياناً أمام صفحة أو فقرة يقرأها، محركاً شفتيه السمينتين الحسيتين، مبتسماً أو مقطباً. عرف الملف من نظرة واحدة سريعة.

– موش ده كلامك؟ خط إيديك؟.. الملثمين، وفرسان مار جرجس، وجنود المسيح، وكل الكلام ده. موش إنت اللي كاتبه برضه وللا أنا غلطان؟

لم يكن يبتسم الآن. وجهه الأسمر بدا وكأنه يكتسب لوناً قانياً. حتى صوته تغير. لم يعد الصوت الخافت المغناج (المبتذل).. أصبح لاسعاً كالكرباج.

– دي رواية. تأليف. تخاريف. بسلّي بيها وقتي (كاد أن يضيف "خيبتي" لكنه ألجم لسانه في اللحظة الأخيرة).

– ماشي! خدني على قد عقلي. مانا عارف إنها رواية موش تقرير.. لكن

سيادتك (قالها بسخرية واضحة) موش معروف في الأوساط الأدبية بتاعتكم كمؤلف روايات. آه نسيت.. مجموعة القصص الإباحية اللي نشرتهم من حوالي عشرة خمستاشر سنة. وفجأة الاقي واحد بيكتب رواية بعد صمت طويل. ورواية عن إيه؟.. أنا حابصم بالعشرة إنها رواية. طبعاً رواية موش تقرير. عندنا معلومات عن تحركات وسط الجماعة النصارى، آسف، المسيحيين. سخط وتذمر واتهامات حتى للبابا. عارفين ومتابعين كل ده. لكن إنت عندك معلومات، وبصراحة خطيرة. خطيرة جداً وما تقوليش إنها تخاريف مؤلفين، لأن وبصراحة أيضاً، تتطابق مع بعض المعلومات اللي عندنا واللي هي توب سيكريت. شفت بأه؟ ساد الغرفة صمت ثقيل. (أمامي حلين لا ثالث لهما. أصر على أنها تخاريف، وهو لن يصدقني، وبالتالي حا ندخل في حدوتة جديدة. تعذيب، والمسائل تفلت من إيديهم باعتبارهم أساتذة في الغشامة والقسوة.. الحل التاني إن آخده على قد عقله، زي ما طلب، وأديله أي كلام باعتباره معلومات توب سيكرت زي ما بيقول، وكل واحد يروح لحال سبيله، ويا دار ما دخلك شر. بس ده فعلاً كابوس. كأني كنت عارف إنه ده حا يحصل وإنه)..

"اقتنعت؟"

لم يكن تساؤلاً، بقدر ما هو تحد.

الفصل الخامس

الفيللا، لاتبدو أنها أستخدمت منذ فترة طويلة. مع ذلك فهي صالحة لإعاشة من يقيم فيها. غرفته بها نافذة واحدة تفتح على الحديقة الصغيرة المهجورة. النافذة مجلدة بقضبان من الحديد المتصالب.

وحينما نقلوه من مكتب أحمد صالح، إلى الفيللا، لم يهتموا بأن يعصبوا عينيه. كان ذلك في الصباح المبكر. عرف أنه في مدينة ستة أكتوبر. أعجبته هذه

المفارقة أن "يحددوا إقامته"، كما أفهموه في المنطقة التي وعده رئيس التحرير، بأنه سيجد له فيها شقة. هذا هو يومه الثاني في الفيللا.

قال له أحمد صالح، أنهم سيستضيفونه "كام يوم" لينشط ذاكرته – حسب تعبيره – ويكتب لهم تقريراً مفصلاً.

– "عن إيه؟" أجابه: "عن إللي إنت عارفه".

في اليوم الأول أعطوه كراسة كبيرة وأقلاماً (ليس قلماً واحداً.. تبين ساخراً). أغلقوا عليه باب الغرفة، مع إمداده بالطعام والماء والشاي والقهوة والسجائر (بدون كبريت..يطلب إشعالها من الحارس).

بعد ساعات من الوحدة والتفكير، قرر أن يعطيهم ما يريدون. قال لنفسه "وإذ لم يكن عندي ما يريدون، أخلقه لهم. المهم أنفذ بجلدي، بعدين فيه ألف حلال" كان يعرف أيضاً مقدار قوته، وضعفه. يعرف أكثر مقدار ضعفه، لن يتحمل الحبس ناهيك عن التعذيب "حتى الخفيف".. لذلك بدأ "يدبج" بحذر ما يطلبه أحمد صالح.. قرر أن يكون تقريره "ملخصاً" للرواية التي لم تكتمل.كتب: إن تفيدة التحقت بمجموعة من الحجاج والحاجات في طريقهم إلى دير جبل الطير، حيث أسسوا مع عدد من المؤمنين هناك فرقة مسلحة لحراسة الراهب تواضروس، الذي عينته الميديا العالمية المتحدث الرسمي باسم الميليشيات الرهبانية المسلحة.

القمص ملاك عبد المسيح، تم خطفه، ولا يعلم أحد مصيره، وهو في الطريق إلى أسطبل عنتر، من قبل مجموعة مسلحة قبطية متنافسة مع مجموعة الملثمين. يملأ الفجوات المتعلقة بسالي تومسون وعلاقتها بـ"البطل".

يتركونه ساعات طويلة بمفرده. بدون كتب أو صحف أو راديو. يسمحون له بالحركة داخل أسوار الفيلا. هناك حراس في الحديقة الجرداء بأسوارها العالية. يتمشى ويفكر ويلعب مع نفسه لعبة إكمال الرواية.

حيره مصير لويس. المدهش في الأمر، إحساسه بعدم التعاطف الكامل معه في موضوع تغيير دينه (أحس بالخجل من نفسه واكتشافه لعدم مرونته التي

يدعيها بالنسبة لموضوع الدين)، هل يجعله يعلن إسلامه ويتزوج تاجوج، ويكمل الدائرة التي كسرتها سارة. لكنه تتبعه بقلبه، وهو يخترق الدروب الصحراوية متجهاً إلى أمنه الأخير.. يقول متحدثاً مع نفسه بصوت عال: "الواحد أول ما يبدأ ينضج ويتعرَّف على العالم ويحدد موقعه فيه يأتيه هادم اللذات ومفرّق الجماعات. ده بالتأكيد ضد نظرية التطور. إزاي حا نتطور وإحنا يدوبك الواحد بدأ يفهم اللعبة يروح هوب! مثلاً تطلّعني رونسي من اللفة. تعلمني كافة الألاعيب. أول ما ابتدى أفهم تروح مني. تاخد نفسها مني. ليه ياستي؟ تحط اللوم عليّ. أصل أنت مش بتاع زواج ولا بتاع مسئولية. أمال أنا بتاع إيه؟ بتاع بطيخ؟

فوجيء بقرارها كما تعود دائماً أن يفاجأ بما تقوم به وما تفعله معه. كان في نهاية العشرينيات. خارج لتوه من المعتقل وأسرته تتقبل عودته إلى "البيت" بحذر وتوجس ومضض. الأب قد مات. الأخ الأكبر طبيب مهاجر إلى أمريكا وفي طريقه للحصول على الجنسية والاستقرار هناك. الأخت تزوجت بابن تاجر غني عضو مواظب في الكنيسة. الأخ الآخر ذهب ليعمل في بلاد البترول وتزوج من زميلته في العمل. الأم وقد انتهت مسئولياتها تقسّم يومها بين الكنيسة وزيارة الطبيب. أحس منذ البداية بالترحيب المتحفظ من الأم والأخوة. أزعجه هذا بعض الشيء لكنه يعرف في أعماقه أنه الابن الضال وأنه عكس الحكاية في الإنجيل لن يستقبل أهله عودته بالطبل والزمر والبهجة بل بأسئلة خرساء في الأعين.

ترك بيت الأسرة والتجأ إلى أصدقاء له ولرونسي يعرفهم من أيام الصعلكة، والنوم في الصيدلية. استقبلوه بترحاب حقيقي. رونسي في نيويورك تعمل في الأمم المتحدة. أرسلت برقية ترحب به وتعد بلقاء سريع.

"كنت عارف وأنا في السجن أن رونسي رايحة الأمم المتحدة. إحساس غريب. مش مرتاح له لكن وماله. طيب وماله يعني الأمم المتحدة حاتفرق إيه عن أي حاجة تاني. بعتت لصديق مشترك يزورني في الواحات ويبلغني الأخبار واعتذارها بأنها مشغولة بتحضير الأوراق وخلافه. أنا فهمت. هي خايفة من أنها

تتشبه لما تزور معتقل شيوعي. في النهاية خلينا نعترف. علشان تخش أمريكا حتى لو إنت موظف في الأمم المتحدة لازم تاخد فيزا من الأمريكان.الموضوع بعد كده موش محتاج شرح".

اللقاء بينهما بعد غيبة أربع سنوات. فوجيء بها تشكره والدموع في عينيها: "إنه ما جابش سيرتها". انزعج من شكرها وأربكته دموعها. "عادي. المفروض الواحد يعمل كده". أضاف لكي يخفف مما أحسه تصريح سياسي: "بيني وبينك قلت وجودك بره أفيد. على الأقل تبعتي لي سجاير". ضحكا، وأحس بالراحة فهو لن يدعي البطولة وخاصة عليها. أخذته إلى شقتها التي اشترتها من دولارات الأمم المتحدة، وأثثتها ثم أغلقتها. أحس أنها مختلفة في الفراش." موش هيا". خيّل له أنها تركت جسدها في نيويورك، لكنه زجر نفسه وهو يدخن سيجارته الأولى معها، والطفاية موضوعة على بطنها العارية مثل أيام زمان.

قال لنفسه: ما تبقاش حمار انت بقى لك أربع سنين..

"فعلاً حمار. الغريب الواحد بيعترف إنه حمار كل ما بيكبر في السن. طبعاً كانت مختلفة. والموضوع مش أربع سنين ولا يحزنون. مش جسمها بس اللي تغير. طريقة كلامها. ضحكتها. جزمها. كلوتاتها. الأورجازم بتاعها. كله بقي أمم متحدة!"

أعجبته العبارة الأخيرة، فضحك بصفاء قلب. سمع الحارس الضحكة فنظر إليه مندهشاً، وسجّل في عقله ملحوظة سوف يضمنها تقريره الشفاهي اليومي؛ بأنه يكلم نفسه ويضحك مع نفسه.

"أستاذة بنت الكلب.. أستاذة من يومها. كان عمرها كام؟ تمنتاشر.. تسعتاشر. لما لقيتني فوجئت حكت لي حكاية الجنايني في داخلية الراهبات. قالتلي كنت عاوزة أعمل ليدي تشاترلي. أول مرة أسمع الاسم. أديتني الرواية بالإنجليزي وساعدتني كتير في الكلمات الصعبة. موش الكلمات الصعبة بس. أفضالها كتير بس غدارة. عادي، أمم متحدة".

قالت له وهما بمفردهما في الشقة؛ إنها راجعة مرة أخرى إلى جنيف. قالت له

إن عملها مهم بالنسبة لها فهي تعمل في المفوضية العليا للاجئين. وهذا كان أيام مودة الفلسطينين. سألته مهتمة وماذا تنوي أن تفعل. فقال إنه لا يعرف بعد وأنه سيحاول أن يجد عملاً في الصحافة. عنده شهادة تؤهله لذلك. ضحكت ساخرة وقالت له ما تبقاش ساذج. هل تظن وأنت خريج المعتقل وليس لك ضهر أو أسرة كبيرة، وليس لك حزب وترفض الدخول في التنظيم الطليعي بتاع الحكومة، هل تظن بكل هذه المؤهلات سوف يقبلونك بينهم. قالت له إنها سوف تتصل ببعض معارفها وتحاول أن تتوسط له. تتكلم بثقة. سألها عن هؤلاء المعارف.. راغت وقالت الأحسن أن يكون هو بعيداً عن الموضوع. بعد أيام من سفرها تلقىّ رسالة مهذبة بالتليفون تحدد له موعداً مع رئيس تحرير صحيفة متوسطة الأهمية. تمت المقابلة في جو مرح. وجد نفسه محرراً معيناً بها في اليوم نفسه. لم يشر رئيس التحرير إلى رونسي ولم يهتم هو أيضاً؛ أربع سنوات من السجن، لا يملك من أمره شيئاً؛ حتى الذهاب إلى المرحاض، جعلته يتقبّل ما يحدث له، باعتباره قدراً. قال له رئيس التحرير أنه سيبدأ العمل في القسم السياسي الذي يترأسه. قام يوصله حتى باب الغرفة. شد على يده وقال له وهو يودعه: أنا متأكد أننا سنعمل جيداً مع بعض.

حضرت رونسي مرة أخر في مهمة خاصة بعملها. اتصلت به من الفندق الفخم حيث تقيم على نفقة الأمم المتحدة أو اللاجئين. لم يهتم أن يسألها، وإن خطر له السؤال وهو في المصعد الأنيق المتجه به إلى جناحها الصغير الفخم. مارسا الحب فوق الفراش الفندقي الخمسة نجوم. أغلق عينيه وهو يحاول جاهداً أن يسترجع فتاة العشة وفتاة الغرف الصغيرة المهملة سيئة التهوية والشقق المستعارة لساعات من الأصدقاء والشوارع الخلفية المظلمة وفتاة حفلة الساعة الثالثة في سينما مترو. فتح عينيه وهو يمسك بصور هاربة باهتة؛ ليراها أغمضت عينيها جادة الوجه مقطبة. قال لنفسه، في الحمام الأنيق يغتسل بالصابونة المعطرة، يحاول أن يتبين ماركتها: لعلها كانت تسترجع صوراً باهتة، هاربة، لي. أحس بنفس الأسى الذي يحسه وهو يرى بعض رفاق المعتقل، في شققهم الأنيقة الجديدة،

وسياراتهم، وثيابهم الغالية. أسى ليس له علاقة بالشفقة. متفرج. مجرد متفرج. يومها.. شرب كأساً من النبيذ في الشرفة الفندقية المطلة على النيل. حلم بهذه المتعة أكثر من مرة، وهو يزاحم الآخرين على محطة الأوتوبيس القريبة. ارتدى ثيابه وجلس يحتسي شرابه في الشرفة. ينظر إلى النهر تحت الفندق. انضمت إليه. قالت له إنها مهتمة بشخص آخر، وأن الشخص الآخر عرض عليها الزواج.

"الزواج"، سأل وهو يضحك بمرح للمرة الأولى منذ أن التقيا. نظرت إليه متسائلة، غاضبة. أدرك خطأه وفهم غضبها "مين اللي قال إن المرأة هدفها النهائي، الأمومة والزواج أو العكس.. موش عارف. أنا عملت زي العيال اللي بعد ما بيكبروا ويتزوجوا ويخلفوا، يرجعوا تاني لبيوتهم القديمة وينامو في أودهم القديمة، يتفرجوا على تذكاراتهم بتاع زمان. رونسي كانت تذكار من بتاع زمان. أنا بالتأكيد، تذكار ليها. ساعتها قالت لي إني موش بتاع زواج ولا تربية عيل.ليه ياستي. لأنك يا أستاذ أناني حتى النخاع. هذا هو رأيها النهائي فيّ. صحيح بعديها بأيام بعتت لي جواب ظريف، لكن شديد الأدب، تعتذر فيه، عن ما أسمته انفعالها وحكمها الجائر. أنهت الجواب، أنها أعلنت خطبتها للشخص إياه. يا ريت نبقى أصحاب حتى نهاية العمر.. أنا محتاجة لصاحب زيك.. إلى آخره.. إلى آخره. وماله ياستي وتاج راسي . صاحبك وكرسي اعترافك ومخدتك كمان. ما تفتكيرنيش إلا لما يجيلك مغص".

انتهى الوقت المسموح له بالتريض. عرف هو ذلك من حركة أقدام الحارس الذي اقترب منه بحذر ووقف على مسافة منه. مسافة كافية أن يدافع عن نفسه دون أن يؤخذ على غرة. قال لنفسه: على الأقل لسه فيه ناس بتاخدني جد. ضحك بصوت عال بعض الشيء دون أن يحس بالخجل. نظر إليه الحارس مرتاباً.

"رونسي، تصفق لنفسها، حينما كانت تقول لي بعد كل مرة تمارس الجنس: إيه رأيك؟ مثل صاحب مطعم، يهتم شخصياً، برأي الزبائن في المفاجأت التي يقدمها خارج المينيه.

المدهش في الأمر أن كل واحدة منهن تعتبر نفسها ما حصلتش.. رونسي

كانت تقول لي؛ يعـجبها في الرجل، أن يكون طويلاً، وأن تكون مؤخرتـه صغيرة ومتمـاسكة ومتناسقة مع بقية جـسده. أبديت دهشة حقيـقية في ذلك الزمن الذي كان مـسموحـاً فيه للبشـر أمثالي أن ينـدهشوا. أقول لها، لـست بالطويل. تقول: الاستـثناء الذي يؤكد. أستـفزها: أليس ما تقـوله عن المؤخرات الذكورية، وجـهة نظر لجنس مثلي. تقـول بصيغة المدرس النافـد الصبر من تلميذ بـليد: إنت أحادي التفكير. رونسيه يعجبها أيضاً، الرجل الطويل. وتضيف ضاحكة، والأنيق. تعترف بعد تفكير، ويكون كبير في العمر شوية. فأقول دون دهشة، لكني لست طويلاً ولا أنيقاً وأنا لست كـبيراً في العمر. فتنظر إليّ مـتضايقة وتقول، فيـه حاجات صعب شرحها. أنت تحب تحط الحاجات في الأدراج بالترتيب زي السوبر ماركت.

رونسيه، برغم حذلـقتها الطبقية، تجـهل السير حافية القـدمين في غابة الجسد. لكنها مثل فـتيات الكشافة؛ تزم شـفتيها، وتغـمض عينيها، وهي تتـسلق إلى القمة لاهثة مدمـية. شرحت لها القواعـد الأساسية بتأن، في جناح الطبـاخ، وأنا أحتسي كأس النبـيذ الفرنسي المعتق. لمحت بطـرف عيني التاريخ المكتوب على الزجـاجة. كنت أستمتع بالسـخرية من رياء طبقتها وتعاليـم مدارس الراهبات. تاريخ بأكمله يبهظني في عـدم تواجدي داخله: ملاعب التنس، والسيـارات الأمريكية بسائقـيها وملابسهم الرسمية، وحفلات السواريه والكوكتيل، وأسماء الأطعمة والمشروبات التي لا أعرف عنها شـيئاً، الملابس الداخلية الحريرية والدفـيليهات، وأدوات المائدة المستوردة من محـلات أغلقت أبوابها وأباجورات تيفاني، التي استـخدم بدلاً منها أباجورات إيديال. ليس هذا حسداً.. بل غضباً على المتع الصغيرة التي لم أمارسها من قبل وأعلم ضـعفي تجاهها. كانت أمي تقـول وهي تلاحظ تأففي من أطباقـها البلاستيكية، أو الألمونيم، وهي تضعهـا دون احتفال على المائدة الوحيدة في البيت والتي نستخدمهـا أيضاً للمذاكرة. تفرش عليها صحيـفة الأمس لتغرف لنا الطعام الأحادي. استخدم تعبيرها الصـعيدي، في موضوع "الغرف".. تقول دون أن ترفع نظرها عن الطعـام: لما تجيب من كـدّك، تتأفف على راحتك. رونسيه تفرش فوق سرير الطبـاخ قطعة قماش من الـتبت، منسوجة باليـد. تزيحها بكعـبها، لتسـقطها

على الأرض فوق السجادة الشيراز. طبعاً أنا أعرف كل هذه الأشياء الآن؛ من القراءة ومن المشاهدة في الأفلام ومن الرونسيهات الموجودة في هذا العالم. أهل ميشا صاحبتي في وارسو يحتفظون بطقم المائدة الفضي. مطبوع عليه شعار أسرتهم حينما كان هناك نبلاء وأمراء في بولندا. لم يفكروا في بيعه رغم إملاقهم. يخرجونه في المناسبات، يضعون الشمعدان الفضي الثقيل فوق المفرش الحريري المطرز بالفضة، الذي تحتفظ به الأم في دولاب خاص مع الفضية. يتعاملون مع الأدوات الفضية الموروثة باحترام يبلغ التقديس. لعلهم كانوا يجدون في الملاعق والشوك والسكاكين والشمعدان والمفرش، نوعاً من مصدر خفي للقوة، لاستمرار العيش، فوق الشوارع المليئة بالملصقات، تصور العمال بعضلاتهم النافرة والفلاحات بابتساماتهم الوردية، معلقة على المباني القبيحة الستالينية. يسير تحتها المواطنون بثيابهم المهلهلة، إلى مكاتبهم المقبضة السيئة الإضاءة والتهوية. أو إلى بيوتهم وشققهم الصغيرة الضيقة. يشاهدون البرامج السخيفة، والمملة، في التليفزيون، بينما قادة الطبقة العاملة يقضون سهراتهم الرائقة، في الأماكن الباذخة، لا يسمح للمواطنين العاديين بدخولها. لعل أهل ميشا وهم يحتفلون بعيد الموتى، وقد أخرجوا كنوز الأسرة يحيطون بها، يتذكرون أمواتهم، يستمدون ذلك الإصرار العنيد الغريب، على الاستمرار من مجرد الإحساس، بأنهم يشعرون عملياً، بالتميز عن قاهريهم الذين كانوا يأكلون في أوان خشبية. ولعل هذا أيضاً ما يجعل رونسيه تواصل حياتها التي تبدو لها بلا معنى، كما قالت لي بعد أن فقدت أسرتها الأرض والقصور. فالحرير الذي يحيط بأردافها والسجاد الشيرازي الذي تدهسه بكعب حذائها والنسيج التبتي الذي تلقي به باهمال على الأرض، ومعرفتها براسين ووالترسكوت وبيتهوفن وموزارت وأرماندي وإيف سان لوران، كل هذا يجعلها تحس بالتميز، يساعدها، بطريقة ما، على الاستمرار، بمواجهة كل ما أفرزه حكم الجيش من؛ إديني بنطة لحام أحسن كوز المحبة إتخرق. ميكروفونات الأفراح المبتذلة، الوعاظ الجهلة، أقواس النصر البلاستيكية، إعلانات التهنئة للرئيس، لفوز فريق كرة اليد على غينيا بيساو. لعله الحسد أيضاً، وأنا

أشاهد لحمهـا المتغذي منذ الصغر على الزبدة والمربة، ليس على الفـول والطعمية. هذا اللحم، الذي يختلف في لونه وطعـمه ورائحـته ومسامـه عن لحم بنات دير الملاك والعباسيـة وخدامـات الزمالك والعـجوزة. عن لحـمي، ومسامـي ورائحة جسدي، الذي عرف نومة البرش وطعم اليـمك الذي ما زالت مجرد تذكّر رائحته تصـيبني بـالغثـيـان بعد كل هذه السنـوات. وإن لم يكن البرش والـيمك، فـهناك السرير الحديدي انهارت مـلته، في الغرفة المشتركة مع إخـوتي. البطاطس بالدمعة "المغروفة" في الطبق البلاستيك فوق صحيفة الأمس".

"ثم أين ذهب ذلك الإحـساس الـذي كنت أعرفـه منذ ذلك الزمن البـعيـد.. إحـسـاس بالهناءة التي لـن تعـقبـهـا حـسـرة أو ازدياد في ثـقب الفـراغ الكظيم كصحراء في الخماسين. هناءة تنتمي إلى جـسد متناسق سلس وعيون بلا جيوب وصعود وهبوط بدون لهاث، وسهر لا يعقبه تعب، ومترادفات ليس بها لفظة سأم أو ملل أو ضـجر وحركـة جسـد لا يعرف الكلل. هذا الإحـساس يغـمرني الآن بالتـدريج، مذيبـاً داخله قرص هناءة، سـاحبـاً إياها من ذاكرة نسّـاية، لجسـد بين أصابعي، منفرداً على طوله، مسـتلق على ظهره الرائع، مرتكزاً على تكويرتين من العضل واللحم، مـقدماً رائحته الخـصوصية الخـفيفة النفاذة المخـتلطة بزيت جوز الهند، أسكبه على كفـيّ. أحركهما فوق مـسام الرقبة نازلاً بهما مـدبراً وصاعداً فوق عضل ولحم وشعر. تنبسط كلهـا أمامي وتحت كفيّ بكرم وعطاء ورجاءات هامسة وابتسامات حيية وارتعاشـات مفاجئة. أريد أن أقول لنفسي أن لا تفسد ما يحدث الآن. أدفن رأسي، أستنشق بخورالرائحة وطعم اللحم".

نادى الحارس عليـه، وهو في غرفتـه يتظاهر بالكتابة.قال له أن يجـمع أوراقه ويأتي معه.

سارا بسـرعة حتى الباب الخـارجي للفيللا. أدى الحـارس التحيـة العسكرية، ووقف منتظراً.

أمام باب الفيللا رجل في منتصف العـمر، أنيق الثياب، يدخن بهدوء. التفت الرجل للحارس وأومأ برأسه. انصرف الحارس.

ابتسم له الرجل. أشار إلى السيارة وهو يقـول: "اتفضل". في السيارة المنطلقة باتجاه الهرم، قال له الرجل: "تحب سيادتك تنزل فين؟"

حينما انزاحت الدهشة، قال له: "في أي حته"

قال الآخر: "عندي تعليمات إني أريحك. معلهش، فيه تجاوزات وأخطاء.."، ومتضاحكاً: "بتحصل في أحسن الدول".

تضاحك معه، قال له:

"نزلني في المنيل.. شارع المقياس".

الفصل السادس

من الأوراق الخاصة لسالي تومسون
الشيخ سيد العربي (بروفايل)

.. وتجده على "مقاهي المثقفين"، يتأبط مجموعة من الكتب والمجلات مدكوك الجسد، أسمر، نحل شعره مبكراً من مقدمة الرأس وحتى القفا، وبقي له حزّان من الشعر الخفيف على جانبي الرأس.. لعله في الخمسين، أو لعله في الستين، لا أحد يستطيع أن يحدد بـالدقة. وجهه ماسح، بدون تجـاعيد، ولامع كأنه مغسول لتوه. يخب حينما يسـير (قال أحد الذين راقبوه فتـرة طويلة: السبب هو أنه كان يرتدي الجلابية الـطويلة الواسعة الذيل، حينمـا كان يدرس في الكتّاب). يقول عـن نفسه أنه درس في الأزهر، لكن لا يستطيع أحـد أن يؤكد (هذه المقولة). وحـينما يأكل، فإنه ينظر – في كل مرة – يضع لقمة في فمه (إن كانت بالشوكة أو بالأصابع) إلى اللقـمة بعـينه اليمـين، مزرراً عـينه الشمـال. فالعين اليـمنى قـصيـرة النظر والعين اليـسرى طويلة النظـر. لا يذكر أحـد من الذين يعـرفونه مـتى شاهدوه أول مـرة. حينمـا كان هناك مقهـى ريش (هذا قبل أن آتي إلى هنا) تراه دائماً هناك. وحـينما

أغلق أبوابه، انتـقلت الإنتلجنسـيا إلى بار الأوديون، كـان هو أيضاً هناك، لينتـقل معهم إلى (أو ينتقلون معه؟) المقهى والبار الآخر .

وجد طريقه إلى التليفزيون في عصره الذهبي القصير في منتصف الستينيات، وعمل في برامج متنوعـة، ليختفي، في منتصف عهد السـادات، ليظهر في اليمن (الشيوعي)، ليظهـر مرة أخرى في بيروت في عصـرها (الفلسطيني)، ويعمل في بعض نشراتهم الدعائية.

مـتـزوج، لا تراه أبداً مع زوجـته (أو أولاده.. لا يعـرف أحـد عـددهم) لا في أسفـاره ولا في إقامـته في الدول المخـتلفة. دائماً يتـحرك في دوائر اليـسار (كـأمر مفروغ منه بـاعتباره من المثقـفين). لكن اليسار ينظر إليـه بريبة غير مـحددة وبحذر غـريزي. يجد دائمـاً صـيده من الـنساء اللاتي يتـحـركن أيضـاً في دوائر اليسـار؛ طالبات، دارسات للدكتوراه، كاتبات قصة، ممثلات غير مشهورات (أو على أبواب الشهـرة)، صحفيـات... إلخ. طلي الحديث، يمتلك قدراً مـهولاً من الحكايات عن الناس المشـهوريـن وغيـر المشـهورين من السـيـاسين والشعـراء، ومن لف لفـهم. يسحـبهن إلى فـراشه، ويستـدين منهن. يمكثن معـه بعض الوقت، مسـحورات به، مسلـوبات الإرادة. الزوجة بدأت تتـمرد رغم ذكـائها المحـدود. أصبح وضعـه في الشقة سيئـاً وحرجاً، فليس له دخل ثابت، وعلاقاته القديمة بالميديا لـم تعد مفيدة، فقد جرت ميـاه كثيرة تحت جسور الميديا. ومع أنه فقد الـكثير من علاقاته (وبعض أسنانه، فليست عنده نقود كـافية لطبيب الأسنان)، إلا أنه لـم يفقـد "سحره القديم" وحكاويه،وتعليقاته الذكية، ومخـزونه الهائل من الإشاعات. صحيح أن البنات لم يعدن بنات بل نسوة مطلقات. بعضهن ثريات، نتيجة لوضعهن الطبقي أو (لأسباب أخـرى)، لم يعـدن بتلك البـراءة القـديمة، وفـقـدن سـذاجـتـهن في رحلة الحـيـاة وإحبـاطاتها المتكـررة، لكنه دائماً يجـد من تشاركـه الفراش، أو حـتى سهرة بـريئة ومائدة حافلة بالشراب. نتيجة لضربة حظ مفاجئة حصل على بعض النقود (لا يعلم أحد مصدرها بالدقة). وكـرى لنفسه شقة في حي بعيد تماماً عـن أسرته. قسّم وقته بين النوم والشراب والسهـرات مع "أصدقائه"، وتعلم الحذر في الإنفاق (لـم يكن

كريماً في يوم من الأيام) وفي الثرثرة، واستطاع أن يفتح بعض الخطوط على الميديا العربية والخليجية والإيرانية. سمعته القديمة ما زالت كما هي (من حيث علاقته بالأجهزة)، لكن الناس أصبحوا أكثر تسامحاً، ولم يعد هناك نشاط سياسي مهم تحت الأرض، واهتمت الدولة بمطاردة الجماعات الإسلامية المتشددة، أكثر من اهتمامها باليسار. وقنع هو بما تسمح له به الظروف الجديدة في مصر والعالم العربي.

الحاج زويل

من الأوراق الخاصة
لسالي تومسون (بروفايل).

التقيت به من خلال الشيخ سيد العربي. نوبي متعلم ويحب أن يتعامل معه الناس باعتباره مثقفاً ينتمي إلى الأقلية الإثنية، التي يؤكد هو دائماً عليها، باعتبارها، هذه الأيام، بضاعة رائجة في الميديا الغربية وجماعات حقوق الإنسان... إلخ. يقول إنه أنهى الدراسة الثانوية، وقد أصدر كتاباً أو كتابين (مجموعة قصص). لكنه ليس له حضور في الساحة الأدبية، بعكس الكُتّاب النوبيين الآخرين. يعمل في إدارة أو هيئة من الهيئات، التي لها علاقة بما يطلقون عليه هنا اصطلاح الحكم المحلي. متزوج (ليست هناك معلومات عن وجود أولاد). يعمل ويعيش خارج القاهرة مما ساعد في خمول ذكره، بالإضافة إلى شخصيته الماسحة (المملة في رأيي). لعله في الأربعين. ليس له أصدقاء في الوسط الأدبي المصري أو النوبي. مكروه ومحتقر نتيجة لبخله، ولتأكد تعامله مع سلطات الأمن. في رأيي أنه "مخبر" بالغريزة. حاول أن يتقرب مني بحجة أن أساعده في النشر أو في الدفاع عن "الأقلية النوبية التي تواجه اضطهاداً عرقياً في

مصر". لكني تملصت منه لعلمي وثقتي بأنه سيبيعني " لمن يدفع" بعد أن يشوه ما أقوله أو أفعله، ومن هنا يأتي خطره.

الفصل السابع

مع أنه، ألفي موتاريو، أمريكي (أربعة أجيال، إلا أن الجذور تضرب بعمق في ضيعة مسيحية مارونية في الجبيل، لبنان) يحب أن يتجاهل لقب عائلته اللبنانية التي اتَّخذته من حرفة الأجداد، حينما كان الأتراك يحتلون المنطقة، و"خدمهم" الجد الأكبر، فحظي بلقب ووظيفة "المختار" الذي تحوّر عبر الأيام وطبقاً للاحتياجات البراجماتيه للأسرة، إلى "مختار" بعد الهجرة إلى أمريكا والحصول على الجنسية، ليصبح موتار.. حتى استقر في النهاية على "موتاريو". أعطت العائلات الموتارية لأبنائها وبناتها أسماء تتماشى مع متطلبات الحياة وقواعد النجاح في العالم الجديد، مثل: إدوارد، وإدي، وجون، وجانيت، وإيزاك وساره (رغم أنها أسماء عبرانية، لكنها متطلبات الاستقرار والنجاح)، ليجد صاحبنا نفسه باسم يكرهه منذ أن وعى، لسخرية الصبية منه في المدرسة؛ وهو ألفيس (ولعل الوالد تمنى أن ابنه يحظى بشهرة المغني الشهير). لكنه حولّه تدريجياً بنفسه وطبقاً للتقاليد العائلية، إلى ألفي، ورسمياً بعد ذلك عبر وثائق تغيير معقدة؛ بأن يصبح هو اسمه في أوراقه الرسمية.. وقد كان. تم تجنيده بعد تخرجه مباشرة من الجامعة التي التحق بها في منحة مجانية لتفوقه في لعب كرة السلة. التقطه "الكشآفة" الذين يتجولون في طول البلاد وعرضها، يبحثون عن "الخامات" الصالحة للعمل في السي - آي - إيه.

بعد فترة التدريب الضرورية، عمل بعض الوقت، في الأروقة الهادئة في لانجلي (مقر قيادة السي آي إيه) لتلتقطه إدارة "البيرسونال" أي شئون المستخدمين لتلقي به في لبنان إبان الحرب الأهلية آنذاك، لأن أبلهاً - حسب تعبيره هو - في

البيرسونال، نقّب في ملفه الخاص، واكتشف جذوره اللبنانية المارونية، وقرر طبقاً لذلك صلاحيته للخدمة في لبنان. تعليماته كانت بسيطة "إذهب إلى جذورك القديمة.. تساعدك في إقامة علاقات طبيعية، مع المارونيين وبقية أهل البلد"

غطاؤه في لبنان "باحث في الموسيقى الدينية الكنسية في عصر مار مارون". فقد اكتشف البيرسونال أيضاً، شغفه بالموسيقى. قادوه برفق لكن بحزم، إلى كورس مُكَثَّف في موسيقى الكنائس الشرقية. وفَرَّ له غطاؤه، الحركة السلسة بين الجانبين المتحاربين.. ونقوده أيضاً، التي أغدقتها عليه لانجلي، باعتبار أن لكل شيء ولكل شخص في الميديل إيست سعره.

بيروت أيامها - ولعلها لا تزال - جنة "العملاء" منذ أيام فيلبي البريطاني رئيس قسم المخابرات المضادة، عمل لحساب "ك. ج. ب" السوفيتية. هرب إليهم حينما كاد أن يقع في أيدي جماعته. البيارته يأخذونك في رحلة سياحية صغيرة، في مناطق الروشة، وساقية الجنزير والحمّام العسكري، ليشيروا ضاحكين، إلى الشقق التي عاش فيها فيلبي والبارات التي كان يشرب فيها، والمقاهي والمطاعم التي كان يرتادها. ثم إلى ذلك المكان في الروشة على البحر، حينما - كما يقولون والعهدة على الرواية اللبنانية - برزت غواصة روسية من البحر، وقفز فيلبي إلى قارب سريع كان إستاند باي وهوب!

ففي بيروت، تلك، وهذه.. وطد ألفي موتاريو سمعته التي اشتهر بها بعد ذلك في أروقة العمل السري الشاحبة الظلال: بارد الأعصاب، ذاكرة مدهشة لا تنسى الوجوه أو الأصوات. ذاكرة أرشيفية. وفوق كل ذلك نهم للتنظيم، وبراعة في "التخلص" من المناوئين و"الخونة" بدون ترك أثر.

قبل حرب الخليج وإبانها، كان ألفي موتاريو، واحد من القلة المختارة، التي استطاعت التسلل إلى ما وراء خطوط "العدو" وجمع معلومات مهمة أفادت قوات التحالف، في مهمتها التدميرية، للبنية التحتية والنفسية " للعدو" بما فيها التجهيز للتمرد الدموي الفاشل الذي قضى عليه الحرس الجمهوري لصدام حسين! التمرد الفاشل في كربلاء والنجف بواسطة الشيعة (أعداء الأمريكان في

إيران وحلفائهم في العراق).

وبالطبع ما يحدث الآن في مصر.

منطقة كانت حتى وقت قريب، تفاخر بالاستقرار. نهر النيل و"عبقرية المكان".. خلقاً لسكان الوادي وضعاً نفسياً وإنسانياً مستقراً..

كوّن الناتو "مؤسسته" الخاصة، والتابعة مباشرة له ولبروكسل، بعيداً عن الأجهزة المحلية، التي تم اختراقها من أكثر من جهة. تراقب الموقف عن كثب في (الميدان)، وتجمع المعلومات وتحللها لتساعد "مجموعات القرار" العسكرية - السياسية في اتخاذ مايلزم. في الوقت المناسب.. لها بالطبع!

من هنا جاءت الفكرة العبقرية لتكوين شبكة "البرج" وإن أردنا الدقة، فهو الذي جاء بها (نتيجة لخبرته الطويلة في منطقة الصراع الديني -السياسي) تبناها الناتو وموّلها، وأصبحت كما يقول التعبير الأمريكي "هيذ بيبي!" طفله الذي على الحجر!

الجزء "الأهلي" من أعضاء البرج، يقبضون في أيديهم على صنابير الاقتصاد، والميديا والنشر. بعضهم كان لسنوات قليلة، يتحكم في السوق السوداء لتحويل العملة، وغسيل أموال المخدرات، أو في تجارة المخدرات ذاتها. وحينما أصبحت السوق بيضاء، تحكموا في البورصة(الخفية) وحركة السوق "الرمادية" مزيج دقيق من العائلات "القديمة" الإقطاعية والمالية والسياسية. من المسلمين، والمسيحين، بل إن بينهم يهودي ممصّر من أسرة يهودية مالية "قديمة" (جاءت إلى مصر عندما قام الغرب بطرد اليهود) لها فروع في أوروبا وأمريكا والعالم العربي. أفرادها، ينتمون إلى مجموعة متباينة من الاتجاهات السياسية، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، في أرجاء العالمين؛ القديم والحديث!

هذه الأيام، ليست أسعد ايام ألفي (الذي يحب أن يناديه مرؤوسيه بلقب كونترول. اللقب النابع من مستواه الوظيفي القيادي في منطقة عمله) فالحكاية أصبحت هيصة، بدأت الأمور تفلت من القبضات القوية المتحكمة، أو التي كانت تتحكم..

خذ عندك القحبة سالي.. مثلاً، ما الذي تعكه هنا. تفتح أفخاذها للأهالي بل، تنام مع قحبات الليزبين مثلها. ويا ريتها تفتح عقلها بوسع ما تفتح فرجها على الأقل ما يدخل من تحت، تكون له فائدة فوق. لكن أبداً. هي تظن نفسها ماتا هاري، لكن ماتا، على الأقل كانت تؤمن بشيء، أما هذه القحبة فهي لا تؤمن إلا بنفسها.

خذ عندك كمان حكاية الإتاوات على النصارى في الصعيد. ليذهب الجميع إلى الجحيم، لكن أن تفلت الأمور إلى هذا الحد؟

لم يكن يريد أن يعترف بأن مشاعره المسيحية المارونية قد بدأت تطل برأسها بعد اغماءة استمرت سنوات طويلة. قال لنفسه "أقباط أرثوذوكس بتوع مشاكل منذ الأزل. فصلوا كنيستهم عن أوروبا. اخترعوا الرهبنة. متعصبين. يستمتعون بالاستشهاد. حد شاف شعب بأكمله يؤرخ النتيجة بتاعته، بداية تاريخه، بالموت والتعذيب. تاريخ إيه ده؟".

لأول مرة في حياته "السرية" الطويلة، التي تتقاسمها الانتصارات والهزائم، يحس بالقلق.

الفصل الثامن

يبدو أن المسائل دخلت في الغويط، ومن الأحسن إن الواحد ياخد باله من نفسه، خاصة بعد حكاية اليومين اللي فاتوا. أسافر؟ أروح فين؟ وأنا أصلي زهقت من حكاية السفر إللي أصبح بمثابة هروب. بس برضه حكاية البطولة والاستشهاد والحاجات دي أصبحت ما لهاش طعم.الواحد داخل على الستين وموش حمل خضة تاني زي اللي فاتت. جنون مطلق.البلد عيارها فلت. بصراحة أنا موش قدهم خاصة في أيامهم الأخيرة. المشكلة إنهم عاملين حسابهم على قعدة طويلة. يا فيها يا أفسيها. إللي كان بيحصل زمان من سجن

وخلافه حا يصبح بالمقارنة باللي هايعملوه فينا زي لعب العيال. إذن الحلين أنيل من بعض. طيب ما فيش حل تالت؟. حاجة تقصّر العمر. ما عدش كتير باقي. .

لازم ألاقيها البنت سالي. هي الوحيده إللي تقدر تطلعني من الخندق ده.. خندق أحمد صالح الزفت. طبعاً عارف، كله بتمنه. عندي إللي هي عاوزاه.

سار متمهلاً. وقف أمام مكتبة مدبولي، وتجاذب الحديث مع البائع الذي يقف على الرصيف، يراقب المجلات والصحف والكتب المنثورة على الأرض، أمام أعين المارة الذين يتوقفون لإلقاء نظرة عليها. قلَّب في الصحف والمجلات المتناثرة أمام المكتبة. البائع يراقبه بعين الصقر، ويراقب المشترين - والمتسكعين الآخرين - في الوقت نفسه.

فكَّر: سأدخلهم معي في الروتين بتاعي. أشتري الجرايد وأروح على زهرة البستان. ساعة الضهرية ما فيش زباين. أي غريب، حايبان.. سار ببطء، يعبر ميدان طلعت حرب. انتظر حتى صفَّر جندي المرور وأوقف أمواج السيارات على ناصية جروبي. وقف ينتظر الإشارة الثانية، ليعبر للرصيف المقابل. غير رأيه فجأة - كعادته في الأيام الأخيرة - ولم يقطع الشارع، حينما صفَّر العسكري، لكنه انعطف يميناً واتجه إلى بار أستوريل. دفع الباب الزجاجي الثقيل، دلف إلى العتمة الخفيفة داخل البار. اتجه إلى الموائد الصغيرة على اليسار. حيا البارمان بهزة من رأسه، واختار الركن القريب من باب المراحيض.

وضع الجرائد والمجلات على المائدة التي أمامه. جاء إليه الجارسون النوبي العجوز بخطوه البطيء وحياه بصوته المرتعش. طلب زجاجة بيرة. اكتشف أن ليس في جيبه سجائر. اتَّجه إلى البار، وطلب من البارمان علبة سجائر مالبورو أبيض. ألقى نظرة سريعة حذرة على البار شبه الخالي، إلا من بعض السواح الذين يتناولون غذاءهم في الجانب الآخر. لم ير وجوهاً غريبة. انتابه شعور محبب من الراحة والدهشة.

اكتملت الخطة الآن في دماغه أثناء تظاهره بالقراءة. قام إلى التليفون

الموضوع بجوار البار، أدار رقمه في شقته. تظاهر بأن هناك من يرد عليه. قال بصوت عال، ليسمع البارمان:

– أزيكْ يا حلوة، نهارنا أبيض.. هأ.. هأ لا والله.. أبداً بس كنت مشغول اليومين اللي فاتوا.. بالإضافة كنت داخل على إنفلونزا.. أشوفك إزاي؟.. على طول. ماشي ياجميل. حاخد تاكسي من أستوريل وأجيلك فوراً. هزني الشوق.. أصله هزني الشوق بصراحة (يضحك) وعاوز أتدحرج من تحت إلى فوق (لاحظ أن البارمان يستمع ويبتسم وإن كان يتظاهر بمراجعة الخزانة).. أول ما أخلص حاجيلك فوراً... خليكي جاهزة.. (يضحك) سلام يا جميل (يضع سماعة التليفون، وينظر إلى البارمان نظرة متواطئة).. أعمل إيه .. مسئوليات.. ومن كتبت عليه نساء ركبها.. (يتضاحكان). يرجع إلى مكانه مرة أخرى. يتظاهر بأنه يلاحظ تاريخ الجريدة للمرة الأولى.. (بصوت عال حاول أن يطعّمه بالانزعاج): "ياه! الواد بتاع مدبولي، باع لي الجورنال بتاع إمبارح. عمّال. أقول يا ربي، أنا الحاجات دي قريتها فين؟" يرد البارمان مبتسماً "كله زي بعضه يا دكتور(ينادونه في البار بهذا اللقب الذي خلعوه عليه لسبب غير مفهوم).. أخبار إمبارح زي النهارده، زي بكره، ما عدا الوفيات طبعاً" (يتضاحكان).. "حاخطف رجلي لحد مدبولي أغير الجورنال، خصوصاً علشان موضوع الوفيات ده (يتضاحك) نَزِّل لي بيرة وسلطة.. مسافة السكة". يسحب الأهرام.. ويترك بقية الصحف والمجلات، وعلبة السجائر والولاعة (الرخيصة) متعمداً على المائدة. يهرول من الباب الجانبي الآخر باتجاه مدبولي. يلمح سيارة تاكسي، يهبط منها بعض السواح. يقطع الشارع اتجاهها مسرعاً دون انتظار الإشارة. يقفز إلى بابها الذي لا يزال منفتحاً، غير مبال بالنظرة العدوانية للسائق قائلاً له وهو يغطس في المقعد: "موقف أحمد حلمي يا هندزة.. وبقشيشك الجميل عندي يا زوق" (متظاهراً أنه ابن بلد ويعرف يلاغي السواقين والمعلمين). يبتسم السائق مكشراً عن أسنانه التي سودّها المعسل وهو يدوس على البنزين قائلاً بصوته المخربش "أوكيه ياجنتل!".

الفصل التاسع

بدلاً من أن تسافر سالي إلى بروكسل (حسب التعليمات السابقة التي تمَّ إلغائها فجأة)، أتى رئيسها من بروكسل إلى القاهرة في زيارة غير معلنة ومفاجئة. حينما أرسلت سالي تقريرها "الصدمة" بعد اللقاء في فلفلة، مباشرة. جاءتها التعليمات "ستاند باي" لتحضير اجتماع عاجل مع مجموعة البرج، يحضره "الرئيس" - هذا لقبه بالنسبة لسالي وللبرج - عقب وصوله مباشرة، في طائرته الجيت الخاصة ومعه مساعده المسؤول عن منطقة شرق المتوسط.

وصلت أيضاً التعليمات المفاجئة لـ "كنترول" بالتوجه إلى المطار الصغير، السري بصحراء النقب الإسرائيلية، التابع للفرقة العسكرية الخاصة "بالتدخل السريع" التي ولدتها عاصفة الصحراء، عقب حرب الخليج، والتي تتمتع بامتيازات خاصة، منها مجموعة من المطارات المموهة جيداً، التي انتشرت في المنطقة، لا يعلم بها سوى القيادات العسكرية والسياسية العليا في المنطقة.

لم تكن سالي تعلم بموعد وصول "الرئيس" أو بمكان هبوط طائرته، لأنها بالرغم من "تصعيدها"، فإن شبكة الاتصالات بالسلطات والقيادات الموازية، لا تزال تحت سيطرة " كونترول" باعتباره المسؤول الأعلى في المنطقة.

السيارة التي يقودها كونترول بنفسه، تحمل أرقام "هيئة دبلوماسية" تنتظر الطائرة الجيت الخاصة، في المطار الصحراوي المنعزل. تحيط بالمطار، حراسة بشرية وألكترونية مشددة. ثمة سيارة حراسة من "المارينز" تحمل ذات اللوحة.

قام "الرئيس" بتلخيص الموقف لـ " كنترول"، والاستماع إليه باعتباره خبرة قديمة ومحترمة في دوائر "التدخل السريع". عبرت السيارتان الحدود بين البلدين بسلاسة، نتيجة للوحات الدبلوماسية.

الجميع في حالة خاصة من التوتر، يعرّفها "كونترول" بحالة أورجازم ما قبل المعركة. من هاتف السيارة، تم الاتصال بسالي لتحديد موعد اجتماع البرج،

أعضاؤه، ينتظرون بجوار هواتفهم كلمة السر.

قال "الرئيس" بنفاد صبر:

-"أعرف ما تريد قوله عن الجني الذي نخرجه بأيدينا من القمقم. تجربتنا ناجحة حتى الآن في أفغانستان، وبعض دول أفريقيا من قبلها. الآن نحتكر العلاقة مع طالبان دون غيرنا من الغرب أو الشرق، وبالتالي نستطيع أن .."

لكن "كونترول" واصل في عناد: "الوضع هنا مختلف. المسيحيون والمسلمون، يتعايشون منذ زمن طويل وما يحدث.. " قاطعه "الرئيس":

"يتعايشون بالقصور الذاتي.. المسيحيون يعتبرون أن المسلمين غزاة. إلق نظرة على أدبياتهم غير المنشورة بشكل واسع. لنا اتصالات بهم في الولايات المتحدة، وكندا وأستراليا. ينشرون مشاعرهم، وجراحهم القديمة التي لم يداوها الزمن. لهم في المهجر لوبي كبير ومؤثر. ماليون وصناعيون، ومليونيرات، مصالح متشابكة. لهم تأثير فَعّال في صنع القرار. لا تنس أيضاً الهوسة الدينية الجديدة عندنا في الغرب، وشرق أوروبا أيضاً، بعد انهيار الشيوعية. ضحك مستمتعاً بنفسه. تأمل الصحراء الواسعة الجرداء اللامتناهية وفكّر: هؤلاء العرب.. هؤلاء البدو، الذين منحتهم الطبيعة ثروة خرافية، لم يحلموا بها حتى في ألف ليلة وليلة، ما يريدونه، أن يضعوا ثرواتهم في بنوكنا، في أحضان نسائنا، في نوادي قمارنا، وفي فنادقنا، وخيول سباقنا. لا يطمئن بعضهم لبعض، لهذا اخترعنا لهم في الماضي لورنس وجلوب. وبعد السويس، حينما هرولوا، بعباءاتهم وكوفياتهم، إلى عياداتنا وأطبائنا، ومصانع سياراتنا الخاصة المضادة للرصاص. أخرجنا لهم من القمقم الميليشيات الدينية، لكي لا ينسوا، أننا نحن من نحمي أمانهم الهش.

فكر كونترول بتقزز: "الرئيس يحب دائماً إلقاء المواعظ. لا ينسى أبداً، أنه كان من النشيطين في جمعيات الشبان المسيحية، وهيئات منع الخمور". لكن الآخر، عارف بمشاعر كونترول، لا مبال بها، واصل موعظته: "وبجانب قوة التدخل السريع التي يريدون استمرارها، يريدون قوة أخرى مستعارة. قوة الانتعاظ. مواصلة خداع الطبيعة، الحياة في شرنقة اصطناعية. مثلما نجحوا في

خداع الصحراء، بأجهزة تكييفنا، وسياراتنا" التفت إلى كنترول وسأله: " قلت لي مرة إن والدة واحد من أبناء هارون الرشيد اكتشفت أن الخليفة ابنها يحب الغلمان، فقامت بحيلة ما.. نسيتها.. ماهي؟". أجاب الآخر: "استوردت له الروميات والأجنبيات، وقصّت لهن شعورهن، ليصبحن مثل الغلمان، وهكذا ظهر في الأدب الجنسي العربي اصطلاح الغلاميات".

ضحك ثلاثتهم، لكن عقل كونترول الشكّاك، لم يرتح لهذا السؤال المفاجيء، لهذا التفت إليه بحذر وسأله: "لكن ما الذي جعلك تتذكر هذه الحكاية؟". ابتسم الرئيس بغموض وهو يقول: "انظر إلى الفكرة البسيطة البالغة الروعة.. فكرة البدائل الزائفة.. الولد يحب مؤخرات الأولاد.. ماذا تفعل الأم الرحيمة التي تريد أن تمسك بالعصا من المنتصف، وأن تحافظ على سمعته باعتباره أميراً للمؤمنين؟ تجلب له البنات، لكنها تجعله يتوهم أنهم أولاد.. هذا ما نريد أن نفعله هنا في هذه الحالة". استغرق ثلاثتهم في صمت عميق.

يفكّر كونترول داخل نفسه: لقد سربنا التقرير إلى دوائر الأمن هنا . اهتموا به، وسجّلنا نقطة عليهم ، السماء أرسلت لنا هذا الموقف، وسوف نستغله إلى أقصى حد.

تعرف سالي أن الوقت ضيق. تعرف أيضاً القوانين غير المكتوبة التي تتعامل بها "المنظمة" مع من يخرج عن طاعتها. لقد سمعت حكايات عن رجال ونساء اختفوا في ظروف غامضة. حرائق مفاجئة.سياراتهم تتوقف كوابحها عن العمل فجأة وهي تهبط مسرعة إلى منحدر. رسائل معايدة بريدية ملغومة.. إلخ ، لكنها تعرف أيضاً أن المنظمة لاتستطيع أن تعرف كل شيء.. أن ثمة حقائق وأحداث نظل خافية .. حتى على المنظمة. مثل ماحدث بالأمس في فلفلة المعادي . صحيح أنها أرسلت تقريرها مباشرة بعد اللقاء، لكن كل ما دار في اللقاء لم يكن كل ما تضمنه التقرير.. مثلاً قال لها: "دي رواية موش تقرير.. الشيخ سيد نصب عليكي".

حينما قال لها أيضاً: "عاوز باسبورت للبنت دي " (ست الملك)

حينما قال لها: "وعاوزك تجيبي لي الرواية من الشيخ سيد أو من الكلب، حاج زول. بالمقابل مستعد أديكي حاجات تساوي مليون جنيه". سألت: "زي إيه". أجاب بجدية: "معلومات دقيقة. موش رواية؛ عن الاتجاهات السائدة الآن وسط المسيحيين والتي تميل أن يأخذوا القانون في أيديهم. من يقود؟ ومن سيمول.. إلى آخره". أضاف مبتسماً (وقلبه يخفق خوفاً من انكشاف إدعاءاته) لكن موش قبل ما تنفذي الجزء المطلوب منك.

ما بعثت به في التقرير كان لقاؤها "الذي رتبته من خلال مصادري بكاتب التقرير المختفي .." أيضاً " ثمة معلومات شبه مؤكدة عن تمويل وسلاح للجماعات المسيحية لّمح لي بها لكنه طلب في مقابلها .. جواز سفر مفتوح". لم تقل أن جواز السفر طلبه لست الملك ، تركت " الرئيس " يفهم دون أن تأكد هي أن جواز السفر لكاتب التقرير.

ولكي تحتفظ لنفسها بخط الرجعة..."يجب التعامل بحذر بالغ مع تقارير من هذا النوع، تختلط فيها الرغبات الدفينة بالحقائق بالأساطير، فتنتج صورة، قد تكون لها علاقة ما بالواقع، لكنها أيضاً أدبية أكثر منها علمية". هذا ما بعثت به ، وجعل الرئيس يسارع بطائرته إلى مصر.

الفقرة الأخيرة، فتحت شهيته: "..ظهور جماعات ضغط جديدة من الجانبين، تميل إلى التصفية الجسدية، بعيداً عن تدخل مجموعات أخرى تطالب بالحوار. ظهر على السطح، من يريدون استباق الأحداث أو التعجيل بها".

فكرت في احتمالين وهي تقود سيارتها بعد انتهاء اجتماع البرج متجهة إلى شقتها في باب اللوق.

الاحتمال الأول: "أن يلعب لعبتنا. لكن بالتحديد لماذا يريد أن يلعب معنا هذه اللعبة الخطرة"؟

الاحتمال الثاني: "وهو الأرجح، أن يرفض الفكرة من أصلها ويغوص تحت الأرض، وقد أثبت أنه يستطيع ذلك بسهولة. يختفي من الجميع . منّا ومنهم".

لقي الاحتمال الثاني، قبولاً في عقلها المنطقي الذي يحتل جزءاً كبيراً منه،

حدسها الأنثوي الذي لم يخذلها من قبل.

في شقتـها الصغيرة البسـيطة، أعدت لنفسها فنجالاً من القـهوة المرة بالهيل. استـمعت للرسائل المسـجلة في الآنصر ماشين . ليس بهـا شيء لا يمكن تأجيله. بقي على مـوعدها مع ست المـلك نصف ساعـة في بار مارسـيلينو. نضت عنهـا ثيابها ودلفت إلى الدش البارد تبـغي انتعاشاً حاداً. إرتدت الجينز الممزق للهـيبيز، والبلوزة الهندية والـصندل المفتـوح (عـدة الشغـل في مارسـيلينو والتـجـمعـات الأدبية) هبطت الدرج، وقد قررت أن تتمشى من باب اللوق حتى جاردن سيتي.

اتفقوا بالأمس على أن تكون ست الملك هي وسيلة الاتصال بينهما باعتبار أن البنت الغرباوية معـروفة للأمن، ولن تبدو نابية في مـارسيلينو الذي ترتاده بانتظام والذي يأتي إليـه الطلاب الأجانب فـي القاهرة، وطلاب المخـدرات والمتعـة، من بقايا الهيبيز.. والأمن بالطبع. لم تكن قد وصلت إلى قرار نهائي بعد.

في الطريق بدأت "خطتها الخاصة" تتبلور بسرعة. تحذرّه، لكن بدون كلمات دامغة (حتى تؤمّن نفسها إذا مـا وقع المحظور).. أن تساعده على الاختفاء بحيث تبقى هي الوحـيدة على اتصـال به (لتستطيع أن تخـرجه مثل أرنب الحـاوي إذ ما دعت الضرورة... الضرورة هنا هي تأمينها هي وتلميعها في المنظمة).

جـاءها الإلهام وهي تقـتـرب من باعة الأدويـة الشعـبيـة والمسـاويك وجلود الحيـوانات الأفريقيـة التي يتاجر فـيها السـودانيون الذين يفتـرشون ناصيـة شارع الشيخ ريحان ومـيدان التحرير. تحب أن تتـأمل بضاعتهم المثيـرة . تمهلت بالقرب من "فـرشـة" واحد منهم . كـان يضع لافتات مكتـوبة بخط اليد على ورق أبيض مقوى يعلـن فيـهـا عن أسمـاء بضـاعتـه: شـحم الكروان، ذنب الثـعلب، بيض السـرطان، مرارة النسـر، إحليل التمـساح. خـفق قلبـها . إحليل التـمسـاح (أين سمعت به للمرة الأولى)؟

توقفت لحظة وسط ضجيج الشارع. انتبـه إليها البائع الجنوبي الذي نظر إليها بعينيه الصفراوين الواسعتين وخاطبـها بصيغة المذكر "داير شي يشد ليك الموضوع ياخواجا؟ " حينئذ تذكرّت تلك الليلة التي بدت لها الآن منذ سنوات بعيدة.

حينما جاءته للمرة الأولى في شقته. حينما سكب النبيذ الأحمر الدافيء على قدميها وأخذ يرتشفه بلسانه. حينما استلقت بجواره على الأرض وقد خلعا ثيابهما بعد أن أقنعها أنه لا يريد أن يضاجعها، بل يلعب فقط. حينما واصلا استلقاءهما بجوار بعضهما يتحدثان ويشربان، دون أن ينط عليها كما كانت تتوقع (وإن كانت لن تمانع)، ساعتها، حكى لها عن فكرة "الجنس إللي موش زي الجنس ": إزاي.. قالت له "فيه جنس ميكانيكي. زي الكباس بتاع المكنة. شغل العامة والدهماء.. ليه؟ لأنه عاوز يخلّص ويروح في ستين داهية يتخمد. وفيه جنس مالوش دعوة بالأورجازم وبالخمدان. أنا أسميه الجنس إللي موش زي الجنس . ليه؟ لأنه مالوش بداية وبالتالي مالوش نهاية".

.. يومها قال لها عن روايته "إحليل التمساح".

أسرعت الخطى بإتجاه مارسيلينو، وقد استعاد قلبها خفقانه الطبيعي.

الفصل العاشر

الصوت الأجش المبحوح، يزعق وسط عجيج وضجيج موقف السيارات.. تتبع الصوت، متلهفاً، إلى سيارة بيجو سبعة راكب.اكتشف أن الركاب خمسة، أحس بالغضب والغيظ، تلفت حوله مذعوراً يبحث عن سيارة ينقصها راكب واحد، لكن المنادي، دفعه برفق داخل السيارة صائحاً"واحد إسكندرية.. واحد إسكندرية "ملتفتاً إليه، قائلاً " لو مستعجل، ادفع حق الكرسي اللي فاضل وإحنا نطلع على طول". أدار الفكرة في ذهنه بسرعة. وجدها معقولة بل ممتازة لأنه ساعتها يستطيع أن يتاكد من عدم جلوس " شخص غريب " معه في السيارة، وأن تنطلق به السيارة فوراً مبتعدة عن القاهرة.

احتل المقعدين بجوار السائق، والذي يحتفظ به السواق عادة للنساء.. يتحسسون افخاذهن وسيقانهن(بشكل يبدو غير مقصود) وهم ينقلون سرعات

الفتيس. رمق السائق بنظرة حذرة، بينما " قلّبه " السائق بسرعة، وهو يلم أطراف جلبابه ويحتل مقعده، يبسمل وهو يلوك بقايا فص الأفيون، في فمه الأهتم. المقعد الذي اشتراه يفصل بينهما. فكّر يكاد يبتسم: "أهو كده الشغل وللا بلاش. أمال الروايات البوليسية فايدتها إيه. "سمع السائق يعلن للركاب، وهو يخرج بهم من الموقف المزدحم "الصحراوي إنشاءالله. يا مسهل" ادار الكاسيت على القرآن وهو يتمتم بآية الكرسي.

لماذا الإسكندرية، وليس له أحد فيها الآن . مات الأخوال الذين سكنوا هناك. لم يذهب منذ وفاة آخرهم، مرة أخرى، إلى الشقة العالية الرطبة المغلقة النوافذ بالمسامير.

لم تعد الإسكندرية تشده إليها مثل زمان. فكّر : لابد من وجود سبب وضع الإسكندرية على سطح مخي. الحكاية موش بالصدفة. مافيش حاجة بالصدفة.

تظاهر بالنعاس حتى يتفادى أسئلة السائق، أو أي حوار معه. يريد أن يركّز عقله. أن يرجع الأدرينالين، الذي يحس به متدفقاً بقوة داخله، إلى مستواه الطبيعي بعد أن أدى مهمته.

في استراحة الطريق الصحراوي، برق الدير في ذهنه الذي ارتاح الآن وبدأ يعمل بهدوء.

اللافتة المكتوبة بخط رديء على بداية الطريق المتفرع المجاور للاستراحة، والسهم المشير إلى اتجاه الدير، أرجعا إلى ذاكرته إبيشاي بسطوريس.

التقاه بالصدفة بعد أن ترهّب. في البداية، لم يتعرف عليه بلحيته ورداء الرهبان، والقلنسوة التي تغطي الرأس. تبادلا الأخبار والعناوين والمعلومات عن الأصدقاء المشتركين. زاره بعد ذلك بسنوات في الدير. قضيا نصف يوم يتحدثان في حديقة الدير الواسعة في قلب الصحراء. قال له إبيشاي: "عندنا بيت ضيافة مريح ومنعزل عن القلايات، لما تحب ترتاح من الدنيا كام يوم، اخطف رجلك وتعال. ماحدش له دعوة بيك. تاكل وتشرب وتنام وأنت في حالك على راحتك". أضاف ضاحكاً: "موش مطلوب منك إنك تصلي".

قال للسائق، أنه سوف ينتظر هنا، في الريست، صديقاً له قادم بالسيارة من القاهرة وسيكملان الرحلة سوياً.سارع بدفع النقود له.

توجه إلى اسفل حيث المراحيض. نفح الولد المتلكأ بجوارها جنيهاً ليفتح له مرحاضاً نظيفاً.

حينما اطمأن لمغادرة السيارة البيجو بركابها، تسلل من المرحاض، وغادر الريست وتوجه مباشرة إلى الطريق الجانبي، ووقف بجوار اللافتة ينتظر سيارة تقله إلى الدير. لم ينتظر طويلاً. فقط زمن تدخين سيجارة واحدة.

ليس أمامه، سوى أن يقول الحقيقة لإبيشاي. حضوره بدون حقيبة سوف يثير، بالتأكيد التساؤلات، حتى من الرهبان الذين انصرفوا عن الدنيا ، وعن انشغالهم بأمور الناس.

إبيشاي سيحميني. أستجير به بضعة أيام حتى أدبر أموري. النقود ليست مشكلة الآن. أعيش يوم بيوم. يوم الله يعين الله.

صديق الطفولة والصبا والمراهقة، المهندس الذي ترك العالم وترهّب.لم يقل له لماذا. اكتفى بالجملة التقليدية وبابتسامة تكاد تكون معتذرة. الرب دعاني، فلبيت النداء. لم يتذكر اسمه الجديد.

أحس ببعض الضيق، تخيل نفسه يدق باب الدير ويطلب مقابلة إبيشاي. إبيشاي مين يا ابني؟ إبيشاي بسطوريس يا أبونا. ماعندناش حد بالاسم ده .

على مشارف سور الدير تذكّر الاسم الجديد : بنيامين. تم كل شيء بسلاسة أدهشته. اكتشف أن الأب بنيامين ترقّى وأصبح وكيل رئيس الدير. استقبله مرحباً في غرفة مكتبه. سأله إن كان يريد أن يأكل لقمة، أن يشرب شاي أو قهوة أو حاجة ساقعة. يعرف أنه لن يبدأه بالسؤال.عليه هو أن يجيب على الأسئلة التي لم تسأل.

أزاح الأب بنيامين بيده، وبابتسامة، مخاوفه وقلقه: مالناش دعوة باللي بيحصل بره. إنت في ضيافة الدير، وضيافتي أنا شخصياً، وبإذن الرب كل حاجة حاتتصلح.

قاده بنفسه إلى الغرفة الضيافة المخصصة له. ذكر له ببطء التعليمات البسيطة الواجب اتباعها. مواعيد الوجبات. أشار له إلى المكتبة الكبيرة وحقه في استخدامها. وبطريقة عارضة إلى كنيسة الدير، وقال إنه سيترك تعليماته للإخوة الرهبان بأن يتركوه في حاله.

في غرفته وجد ما كان يحتاجه موضوعاً على الفراش؛ الثياب الداخلية البسيطة الخشنة الجديدة. فرشاة الأسنان. معجون الأسنان. ماكينة الحلاقة وبجوارها الشفرات والفرشة. جلابية. جوارب نظيفة وخف منزلي. تركه الأب بنيامين بعد أن باركه هامساً. وأغلق الباب وراءه بهدوء.

* * *

أسبوع من الهدوء. نام ساعات طويلة في الأيام الأولى. بدأ ينتظم مع إيقاع الدير. يستيقظ حوالي الخامسة صباحاً على جرس الكنيسة، يستمع وهو مستلق إلى التراتيل والقداديس التي تصله واضحة رغم خفوتها. ينتظر مهموماً في فراشه حتى تنتهي الصلاة. يغتسل بالماء البارد. يرتدي ثيابه ويذهب لتناول الإفطار في صالة الطعام الكبيرة. يجلس على مائدة الأب بنيامين. يأكل خبزاً طازجاً مخبوزاً لتوه في فرن الدير (يذكرّه بالعيش الشمسي الصعيدي الذي كانت أمه تخبزه في فرنها في السودان)، وجبناً مصنوعاً في الدير وزيتوناً من حديقة الدير. شاي وقهوة. يتمشى بعد الإفطار في الحديقة الواسعة الهادئة، يختلي بنفسه بعيداً عن الأنظار. يدخن سيجارة من علبة السجائر التي يجدها كل يوم فوق فراشه (بشكل غامض). الرهبان يواصلون أعمالهم اليومية، من ترميم الكتب القديمة المكتوبة بخط اليد ، والعناية بالحديقة وبالحقل المجاور. غسيل الثياب ولقاء الزوار القلائل الذين يحضرون للتبرك أو طلب المشورة. يذهب بعد ذلك إلى المكتبة، يمكث هناك معظم نهاره (لا توجد وجبة غذاء ، فوجبة العشاء بعد صلاة الغروب) وحينما يحس بالملل أو الإجهاد يسحب كتاباً ويذهب إلى غرفته (يخجل من أن يكتشف أحد أنه يذهب إلى الغرفة

لينام بينما يعمل الكل). يستلقي ويهوم ناعساً حالماً.

ما ينغّص عليه هدوءه، أنه لم يكمل الرواية.ندم على شيئين: استهانته بالوقت (كأني أملك كل الوقت الذي في العالم)، وعلى عدم احتفاظه بنسخة أخرى من المخطوط. حنق على نفسه.أعطاه الأب بنيامين أوراقاً بيضاء كثيرة وقلم حبر (حقيقي)، لكنه لم يكتب حرفاً. عافت نفسه الكتابة، بل وأحس بسخف فكرة أن يقضي الواحد وقته "منكباً" على أوراق يسودها بأفكاره وتخيلاته. أعجبته فكرة تلعب في مخه: أن لايكتب حرفاً. لايقرأ كتاباً أو صحيفة، لا يستمع إلى إذاعة أو نشرة أخبار على وجه التحديد. أحس براحة غريبة وصفاء فكر نادر (بالنسبة له) وهو يتأمل ما انقضى (طويلاً) من حياته وما تبقى (قليلاً) منها. لأول مرة وهو الآن في الستين، أحس أنه بدأ يمسك بمصيره. لأول مرة أيضاً أخذ يتأمل الماضي بدون أسى أو حنق، بل كمن يجلس على مقهى ويراقب حركة الحياة التي لا تخصه بحياد المسطول.

يفكّر أحياناً في روايته التي لم تكتمل. ويكتشف عيوب شخصياتها وعدم اكتمالها. يعيد كتابتها (سراً) في مخه. ومستمتعاً بحيرة من يقرأه باحثاً، عن الحقيقة والكذب فيه، بينما يتمشى هو تحت أشجار البرتقال والليمون واليوسفي مدخناً سجائره السرية.

* * *

سري جداً

السيد العقيد رئيس شعبة البحث والتحرى

مرفق لسيادتكم التقرير الذي تفضلتم بطلبه والخاص بالمذكور ونحن نأسف أن هناك فجوات زمنية في التقرير ولكن هذا راجع للأوقات التي كان المذكور يغادر فيها البلد، ونتيجة أيضاً للعملية التي ضاعت فيها بعض الدوسيهات من أعوام ستين وحتى واحد وثمانين وجزء من اتنين وثمانين ومع ذلك فإننا نحاول

ملء هذه الفـراغـات من مـصـادرنا وخاصـة الذين لهـم علاقـة قـديمة بالمذكـور وتفضلوا سيادتكم بقبـول الاحترام الواجب. تقرير سري واحد: التـعليم : أنهـى المذكور دراستـه الابتدائية نظام قديم فـي السودان وجاء إلى مصر وأنـهى دراسته الثانوية في الكلية الأمـريكية سابقاً في أسيـوط في القسم الداخلي وبعد ذلك في مـدرسة راغب مـرجـان بالفجـالة القـاهرة، والتحق بـجامـعة القـاهرة عـام ستـة وخمسين في كلية الأداب بقـسم الصحافة وأنهى دراسته عـام ستين ثم سافر إلى بولندا عام سبـعين ليدرس هناك. ملحوظة : ليست عندنا معلومـات مؤكدة حتى الآن كيف حـصل المذكور على تأشيـرة خروج من المباحث العـامة قسم مكافـحة الشيوعية لسبب ضياع الدوسيه. اثنين: مرات الإعتقال والسجن : مرة واحدة لمدة ثلاثة أيام في شهر مايو ستة وخمسين حيث تـم القبض عليه في منطقة الفجالة مع آخرين يقـومون بتوزيع منشورات شـيوعيـة وقد تم الإفراج عنه وعن بقيـة الخلية نتيجـة لتحالف الشيوعـيين ايامها مع الحكومة وذلك قبل العـدوان الثلاثي الغادر على وطننا المحبوب.

وتم اعتـقال المذكور مرة أخـرى في ستة وعشـرين ديسمبـر عام ستين نتيـجة لقـرار الحكومة بالقـبض على كلٍ التنظيـمات الشيـوعيـة وتم تقديم المذكـور مع آخرين للمحكمة العسكرية المشكّلة بقرار من السيـد رئيس الجمهورية جمال عبد النـاصـر وصدر الحكم على المذكـور بأربع سنين وغرامـة مائة جنيـه مصـري فقط لاغير ثم تـم الإفراج عن المذكور وبقية التنظيمات الشيوعية بقرار من السيد رئيس الجمهـورية جمال عبد النـاصـر وخرج المذكور من السجن في عـشرين أبريل عام أربعة وستين وذهب مباشرة إلى الإسكندرية حيث انتقلت عائلته إلى هناك وسلّم نفسـه لقسم باب شرقي للعـمل مصاريف في القـسم حيث أنه لـم يسدد الغـرامة وقد عـمل مع آخرين من التنظيم الشـيوعي في الأسكندرية في قـسم باب شرقي في تنظيف مراحيض القسم كمصاريف وكان المذكور أيضاً تحت المراقبة.

ثالثاً : العمل : عمل المذكور بعدة صحف ومجلات مرفق أسماؤها في نهاية التقرير للعلم.

رابعاً الحالة المدنية : ليست عندنا في المصلحة وثائق عن زواج المذكور أو عن طلاقه لكن مصادرنا أفادت بأنه تزوج مرتين. بعض المصادر تقول إنه تزوج ثلاث مرات . وأنه طلق مرتين ايضاً وتفيد مصادرنا بأنه كان يتزوج مدنياً خارج الكنيسة في الشهر العقاري حتى يسهل طلاقه ومن غير المعروف لمصادرنا ما إذا كان له أولاد أم من عدمه.

الحالة الأمنية: إن اختفاءات المذكور لفترات طويلة في أوروبا الشيوعية في ذلك الوقت ثم عمله في العراق في الفترة التي كان الشيوعيين فيها في الجبهة مع البعثيين ثم ظهوره في بيروت الغربية وعمله في جريدتين يساريتين ثم ظهوره في عدن زمن الحكم الشيوعي وفي الحبشة زمن الحكم الشيوعي أيضاً وسفره إلى كوبا الشيوعية لحضور مهرجان الشباب عام سبع وسبعين يثير الشك حول علاقاته بالتنظيم الشيوعي الدولي ورغم أن المذكور حسب ما أفادت مصادرنا أعلن انسحابه من التنظيمات الشيوعية المصرية ولا يشترك بنشاط في أحزاب المعارضة العلنية سوى بالكتابة أحياناً في بعض مجلاتها وصحفها مما يثير الشكوك حول دوره السري في هذه النشاطات وللأسف ليست عندنا معلومات أكيدة عن هذا الموضوع خاصة وأنه دائم الاتصال بالسفارات الغربية، وله أصدقاء فيها.

أن المعلومات الواردة في المخطوط من شأنها تكدير الأمن العام وبها الكثير من السخرية والتطاول على القيادات والشحصيات الدينية. وكذلك الجزء الخاص بنشاط الحزب الملكي والذي ظهر له بعض النشاط في الفترة الأخيرة من إقامة حفلات ورفع العلم الراية الملكية السابقة وصور ولي العهد السابق ونفيد سيادتك بأن نتابع النشاطات المذكورة وسنوافي سيادتكم أول بأول بالتطورات وتفضلوا بقبول الاحترام الواجب والتحية اللازمة ونحن في انتظار التعليمات.

* * *

أرسلت إليه الآلهة الحل في تاكسي وصل ذات عصرية . كان قد استيقظ من قيلولته. جلس على مقعد في الحديقة يدخن. سمع صوت دواليب السيارة على

الحصى قبل أن يراها، لم يلتفت، خمّن أنها واحدة من السيارات التي تقل بعض السواح أو طالبي البركة. لكن الأصوات النسائية المنبعثة من السيارة جعلته يلتفت منتبهاً. اللهجة السودانية تصاحبها لكنة خفيفة. رآهن بأتوابهن الملونة السابغة التقليدية يتلفتن وجلات بعد أن دفعت واحدة منهن حساب التاكسي. راهب أقبل مسرعاً تجاههن يخب في جبته. أصاغ السمع. يطلبن الإذن بالزيارة ـــ البركة وفاء لنذر. فاتته بعض العبارات. قادهن الراهب إلى الداخل، إلى مكتب الإدارة.

الملل والفضول دفعاه إلى التحرك في اتجاه المكتب. سوف يدعّي بأنه لم يكن يعرف بوجودهن. سيفتح الباب ويحيي الأخ الراهب ثم يتصنع الدهشة .. وبعدين ربنا يحلها!

قال له الأب بنيامين: "اتفضل .. اتفضل .. ما فيش حد غريب" أضاف ضاحكاً "بلدياتك".. بعد ذلك أصبح كل شيء كالحلم. واتته الفكرة وهو يجلس مرتاحاً في المكتب يحتسي الكركديه، يستمع إلى لغطهن ، ويراقب نظراتهن المتسائلة الصامتة عن " كينونته" المدنية في الدير. لم يتطوع هو بالإجابة، كذلك الأب بنيامين.

سيمكثن ثلاثة أيام في الجناح المخصص للنساء وسيأكلن بمفردهن وسيقضين معظم الوقت في التعبد. خمسة نساء تجاوزن الشباب ويقتربن حثيثاً من الكهولة (هل يمكن إطلاق هذا الاصطلاح على اللاتي في عمرهن). عرف اين سيقضين لياليهن . تحاشى متعمداً أي إتصال مباشر معهن، انسحب معتذراً وغادر المكتب مرتعشاً مباشرة إلى غرفته الصغيرة يقلّب الخطة في دماغه.

هل يخبر بنيامين؟ قرر أن لايخبره.الشيء الذي لاتعرفه لايضرك . لن يقول له على شيء. سيفهم من تلقاء نفسه ولن يكون هو مضطراً أمامه لشرح أو تبرير.

بقيت وسيلة الانتقال من الدير .

في المساء بعد العشاء اختلى مع الأب بنيامين. قال له إنه يريد الذهاب، إلى الإسكندرية، لقضاء مصلحة عاجلة، لمدة كام يوم.

هل من الممكن، أن يستعير السيارة الفيات الصغيرة؟ نظر إليه الآخر مشتت البال بعض الشيء، وقال له: " طبعاً". قام إلى الحائط المقابل ونزع مفاتيح السيارة، من المسمار وأعطاها له. سأله إن كان يريد أن "يستعير" بعض النقود. قال له: "ياريت" وأضاف: "لحين ميسرة" فتح الأب درج المكتب وقال له "كام؟" تلجلج : "خمسمية؟" نظر إليه مندهشاً ، خائفاً بعض الشيء. هل قرأ أفكاره الخفية؟.

" من فلوس الدير . أنا ما عنديش. "

فهم وقال: "عارف..عارف، حايرجعوا بالتمام والكمال". ابتسم الأب وقام ينهي اللقاء قائلاً: "لحين ميسرة".

تم كل شيء بسهولة غير متوقعة. النساء في صلاة الفجر. الرهبان أيضاً. تسلل حافياً، إلى مكان ضيافتهن. الأبواب غير مغلقة (من يغلق بابه في الدير؟). وعلى الضوء الغبش وجد "الأتواب" اختار واحداً. تردد لحظة "شنطة يد؟"، وقرر أن لا. قد لاينكشف أمر "التوب" بسرعة. إذا ما كشفت صاحبته ضياعه؛ فلن تجزع، سوف تظن أنها نسيته، قبل أن تحضر إلى الدير "لكن الشنطة؟" حتى لو كانت خالية من النقود. حتى لو أفرغ محتوياتها في غرفة صاحبتها فسوف يثير اختفاؤها الشكوك والتساؤلات التي هو في غنى عنها.

حوالي التاسعة كانت السيارة الفيات الصغيرة تنطلق بسرعة معقولة، في الطريق الصحراوي باتجاه القاهرة، تقودها امرأة سودانية (كما يبدو من ثيابها) تضع على وجهها نظارة شمس سوداء وتغطي شعرها، ورأسها، بفضلة من التوب السوداني، تبتسم بين وقت لآخر، وهي تنظر إلى وجهها في المرآة الصغيرة المعلّقة فوق رأسها.

تذكّر أنه رأى، منذ مدة، في المعادي، العديد من اللافتات تعلن عن شقق مفروشة. سيتجول في المعادي بالسيارة يتصيد شقة.

الأحسن أن يستأجر بنفسه دون الاستعانة بسمسار شقق. تجول في الجزء الذي مازالت به الفيللات والعمارات الواطئة من دورين أو ثلاثة. هنا أكثر أماناً

من الحي الشعبي القديم أو من الأحياء الجديدة، الحركة قليلة في الشوارع الهادئة التي ما زالت أشجار الأكاسيا ودقن الباشا تنتشر فيها. ابتعد عن منطقة سكن الدبلوماسيين حيث تزداد كثافة الأمن العلني والسري. وجد ضالته في فيللا قديمة منعزلة من طابقين ، ولافتة قديمة "للإيجار".. أمامها خرابة مسورة. ركن السيارة. دق جرس الباب.

بسهولة مفاجئة تم الاتفاق على كل شيء. سيقيم في الطابق العلوي ، في الجناح الصغير (كما أسماه صاحب الفيللا) من غرفتين وأمامه السطح الخالي إلا من تكعيبة مهملة من اللبلاب. رجل طاعن في السن تبدو عليه علامات عز زائل، قدّم نفسه: "أمين بك البكري .. وكيل وزارة سابق". كان ينهج، مكروش النفس، وعويناته السميكة تعكس شمس الظهيرة المتسللة من النافذة الكبيرة الوحيدة المفتوحة في الطابق الأرضي في غرفة الاستقبال التي تتكدس فيها المقاعد والآرائك والموائد من مختلف الأحجام والطرز. قدَّم هو نفسه "سارة الشايقي". تحاشى الكلام الكثير، واكتفى بأصوات حلقية وابتسامات وهزات من الرأس الذي يغطيه التوب وينسدل على جزء كبير من الوجه.أمين بك يبدو في السبعين أو ما بعدها، يتحرك متصلباً بسبب روماتيزم المفاصل. لم يقل له أية وزارة كان وكيلها السابق. لم يسأل هو. دار بعينيه في الغرفة الواسعة المكدسة. أحس أن الرجل يعيش بمفرده. أكد أمين بك ما خمنه. هاجر الأولاد إلى أمريكا (لم يشر إلى الزوجة). ثمة جنايني يمر مرة في الأسبوع في الحديقة "المهملة ". السوق قريب والرجل نباتي. سأله بحذر وبقليل من الخجل: "لوحدك". خاطبه بصيغة المؤنث. أجاب بأن الزوج يعمل بالتجارة بين السودان ومصر وبأن الأولاد يعيشون في السودان. جاءت الإجابة بدون تفكير وحمد ربه الذي ألهمه: "يعني بيجي مرتين تلاته في السنة.. يقعد أسبوع أو اتنين . معايش".

دفع لأمين بك إيجار شهر مقدماً. أعطاه الرجل مفتاح الجناح، واعتذر عن مصاحبته إلى أعلى ، بالروماتيزم. تجول في السطح مستمتعاً بالهدوء والهواء الطيب. فتح نوافذ الغرفتين ولاحظ طبقات التراب الدقيق الذي لم تلمسه يد منذ

فترة طويلة. عقله يعمل بسرعة يجمع التفاصيل المطلوبة والضرورية للهوية الجديدة؛ الملابس، المكياج ، الأحذية والباروكة. النقود شغله الشاغل بعد أن أعطى أمين بك ثلاثمئة جنيه (دون فصال) ما زالت بضع مئات - لا يعرف بالضبط - متبقية في حسابه بالبنك . سوف يستخدم الكارت المغنطيسي، فيوفر على نفسه مقابلة موظف البنك الذي يعرف وجهه. قد تكفيه شهر أو أكثر. طيب وبعدين؟ أزاح المشكلة. لما ييجي وقتها، قال متضايقاً بصوت مسموع. فاجأه صوته (الرجالي)، تلفت حوله بسرعة. لايوجد أحد ابتسم، وأخذ يتمرن هامساً بصوت سارة الشايقي.. أسعده وجود تليفون في الجناح. اكتشف أنه ما زال يعمل. فكَّر نفسه أن يطلب الرقم من أمين بك.

قضى النهار - ما تبقى منه - نازلا صاعداً بين الطابقين يحضر من أسفل الأشياء الضرورية للحياة في الجناح؛ ملاءات الفراش، الأغطية، أدوات المطبخ. كنس ومسح. أصبحت لديه غرفة نوم لطيفة وكافية. وغرفة أخرى قرر أن تكون "مكتب" وأنتريه. رش السطح ووضع هناك مقعدين وترابيزة من البامبو وجدهم في الحديقة.

أدار وجهه تجاه الشمس الغاربة، يحتسي فنجالاً من القهوة صنعه بنفسه (أمين بك أكرمه بتلقيمة بن وسكر). واكتشف هناءة جديدة يغلفها إحساس بالوحدة مستحب. خدع مطارديه ووجد ملاذاً، يستجم ويلتقط أنفاسه. أسعده أن خطته قد نجحت حتى الآن ويمكن أن تنجح في المستقبل طالما يتوخى الحذر، وأن يتجنب الخروج في النهار، ويبتعد عن الأماكن التي كان يتردد عليها بحكم العادة. سيخترع لنفسه عادات جديدة مدروسة. أماكن جديدة لن يتعرف عليه أحد من حياته الماضية. تصور وهو يغفي مبتسماً يستمع إلى زقزقة العصافير المروحة.. مسترخ على المقعد، يستقبل أيامه، تسبح فيها سارة الشايقي، على شواطىء الخطر والإثارة التي افتقدها في السنوات الأخيرة.

بالليل اتصل بتليفون الدير. رد عليه الأب بنيامين. قال له إنه في القاهرة "بس أرجوك ما تجيبش سيرة لحد. بعدين إن شاء الله، أحكيلك كل حاجة". واعتذر

عن وجود السيارة معه في القاهرة، وسأل الأب بنيامين، ماذا يفعل بها. أجابه الآخر بهدوء: "الشكر للرب إنك بخير. ممكن تترك السيارة في جراج العتبة". قال له إن الدير به مفتاح احتياطي للسيارة. اعتذر مرة أخرى للأب بنيامين ، الذي أجابه: "كل إللي يعمله ربنا كويس" ووعده أن يذكره في صلواته .

* * *

أحس مصطفى القلاش بالمرأة السودانية تجلس بجواره في الميكروباس، المتجه من الكربة في مصر الجديدة إلى ميدان التحرير. يختار القلاش الميكروباس لسببين: أن يترك السيارة لزوجته أثناء النهار ليذهب إلى عمله، بالماكروباس ،الذي لايبعد عن المحطة النهائية في ميدان التحرير، وأهي فرصة لكي يمشّي رجليه بضع دقائق قبل أن ينحط على مقعده، عدة ساعات. والسبب الثاني الإمكانية المتاحة- أحياناً- في الميكروباس للالتصاق بأجساد النسوة، واقتناص لحظات من اللذة المختلسة، خاصة بعد أن حَرَّمَتْ عليه زوجته جسدها الخمسيني، منذ بضعة أشهر عقب شجارهما الأخير (لسبب لا يتذكره الآن). يمني نفسه بأنه قد يحصل مرة على صيدة، لكنه يعلم استحالة هذا - تقريباً -لأسباب كثيرة أهمها عدم وجود "مكان" يأخذ صيده إليه. يحلم أحياناً بأنثى تأخذه "عندها"، فتحل المشكلة من أساسها. القلاش يقضي أيامه الآن يحلم .

(يعلم خط سير القلاش ، ويعرف أحلامه التي حكى له عنها). غيبة صاحبه عن موعدهما الأسبوعي المقدس. أقلقت القلاش.

اتصل بالصحيفة، فقالوا له إنه لم يحضر منذ بضعة أيام. أدهشه أن أحداً، من زملائه لم يبد القلق عليه. قرر الذهاب إلى الشقة، وفي الطريق تذكّر ما اكتشفاه من وجود من يراقب جلساتهما في البار. توجس وانتابه إحساس بالغيظ - من نفسه ومن صاحبه أيضاً - أن يجد نفسه في هذا الموْقف. أحس بالخوف، وهو يقترب من المبنى بحذر متصنعاً اللامبالاة ليجد المخبرين، الذين لا تخطئهم الأعين المدربة والتي قضى أصحابها فترة في العمل السري. قال

لنفسه مادام يوجد مخبرين فإذن لم يقبضوا عليه بعد. هذا معناه أنه هرب منهم. معناه أيضاً أني تحت المراقبة، باعتباري صاحبه ولي علاقة به. امتزج خوفه بالدهشة. لكن لماذا، ولا أحد منّا يعمل الآن بالسياسة أو بأي شيء.تذكر مخاوف صاحبه خاصة بعد أن أخبره عن اختفاء الرواية بشكل غامض من شقته. قلبا الأمر طويلاً فيما بينهما وهو يسترجع جزع صاحبه وقنوطه لعدم وجود نسخة أخرى. حاول القلاّش ، دون فائدة أن يهدئ من جزعه وأن يهوّن الأمر، خاصة حينما شكا كلاهما في الشيخ سيد، وحاج الزول، اللذين كانا في الشقة ليلة اختفاء المخطوط.

قال له:

– ماحناش صحاب يعني. مانت عارف الشيخ سيد ما لوش صاحب وموش فوق الشبهات.

– طيب والتاني؟

– نوبي نصف موهوب يدعي الأدب. تعرفت عليه بالصدفة ولزق فيّ. ما عرفوش كويس برضه. جم هما الاتنين ومعاهم شرب. بدون معاد. الحقيقة ماكنتش مرحب بيهم. المهم قعدوا شوية ومشيوا. أنا كنت، يمكن في المطبخ أو في التواليت. المخطوط كان في الأودة التانية على السرير.

حينما استدعوه (خطفوه من الطريق) لسؤاله؛ تأكدت شكوكه، وأخبر القلاّش. توقع القلاّش أن يستدعوه ويسألونه عن اختفاء الآخر. لم يحدث. "تكتيك معروف يسيبوني بين الشك واليقين. وتوقع الاستدعاء في أي وقت. ولّما أستوي ياخدوني على حجرهم "لكن عندما حكي للقلاش بالتفصيل عن "الرجل المهم" الذي أقله في السيارة حتى بيته في شارع المقياس، تنبه كلاهما للموقف "المتناقض" لبتوع الأمن.. لكنهما لم يفسراه، بأكثر من "صراع الأجهزة". حالة من اللامبالاة تملكت القلاش بعد ذلك. . "ضربوا الأعور على عينه .. خسرانة خسرانة". وواصل حياته كالمعتاد .

أحس بها تلصق فخذها بفخذه. ساقها بساقه.أحس أنها "تحك" ساقها بساقه.

بدلاً من الفـرحة المتـوقعة لـلصيد الـذي طال انتظاره، نظر إليهـا من تحت نظارته خائفاً. ثوبها مفروش على فخذيهما الملتصقين ورائحة عطر نفاذ تنهمر منها .

هل هذه أصابعها من تحت التوب تملّس على فخذه؟ ماذا يفعل الآن؟

هل سـتقبـض على انتصـابه الذي فاجـأه - رغم شهـور طويلة من السكون- وهل يزيح يدها أم يتشبث بها؟ يدها الآن في جيبه. نشالة؟

لكنها قـرصته مـعابثة في فخـذه. قالت بصوت هامس: "مـبروك!" قــامت وهبطت في المحطة بشكل مـفاجيء. بقي هو في مطرحه مـذهولاً. ما زال يحس بالقرصة. وضع يده في جـيبه، أحس بورقة تلمس أصابعـه. نظر حوله بحذر. لا أحد يوليه اهتمـاماً. أخرجها بهدوء كـأنه يخاف أن تنفجر فيه "قابـلني بعد ساعة في كافتيريا شبرد"

- يا ابن المجنونة!

جحظت عينا القلاّش بالدهشة الممتزجة بالاستنكار في كافيتريا شبرد بعد أن تبين هوية المرأة السودانية.

استمع صامـتاً، مدخناً، للتفاصيل (العريضـة) منذ الهروب من بار أستوريل ، وحتى العثور - بالأمس - على شقة المعادي .

- حاتيجي معايا نشتري الحاجات الضرورية

- بصفتي إيه ؟ سأل القلاّش منزعجاً:

- بصفتك راجل

شرح له بتأن خطته (التي وصفهـا القلاّش بالجنون) وكيف سيذهبان إلى هانو أو صيدناوي مثلاً وليس إلى البوتيكات الصغيرة الغالية.. في المحلات الكبيرة لن يلحظهما - بالتـحديد - لن يلحظه أحد في الزحام واللامـبالاة، التي تسيطر على الباعـة. يدلفان إلى قسم الملابس النسـائية، وينتقيـان بسرعة مـا يحتاجه. خـاصة الملابس الداخلية النسائية، التي من المؤكد، سوف تقع عليها الأعين الكليلة لوكيل الوزارة السابق عند " نشرها " على السطح لتجف. بعض المكياج أيضاً. باروكة أو اثنين. ثم حقـيبة يـد. بعد ذلك يصطحب القلاش إلى المـعادي ، يُعَرِّفـه بوكيل

الوزارة باعتباره الشريك المصري للزوج السوداني "لأني محتاج لك. مش حاطلع من البيت كتير زي زمان. تيجي تزورني وناخد كاس مع بعض". رد القلاّش ساخراً "والعب عشره طاولة مع البيه صاحب الفيللا."

قال له إن الدخول في شخصية امرأة، هو الحل الأمثل لمن في وضعه. استفزه الأخر: "طيب ما تعمل عملية وتريحني وتريح نفسك "ابتسم هو مجيباً: "العملية معناها اللاعودة. أنا أحب ألعب بين البينين. على الحركرك وعلى حافة الخطر. أضاف: "وعلى فكره.. شعور غريب جداً. الشعور بأن الواحد لابس هدوم نسوان وبيتحرك بيها وفيها"..

- أوصفه

- " صعب لكن عامل زي شعور الواحد وهو صغير .. زمان لما كان بيركب مرجيحة من بتوع الملاهي ، إللي بتلف بيك في الهوا دايره كامله".

لم يكن القلاّش مقتنعاً ولا متحمساً. يُحذّره: "يمكن أكون متراقب" اجاب الآخر: "يعني موش عارفهم؟ بعد شوية حايفقدوا الأمل فيّ. حانوصل لهم خبر من خلال الشيخ سيد، أو الكلب النوبي، بأني سافرت . غادرت البلد نهائياً، يقوموا يقفلوا الدوسيه بتاعي. أما بالنسبة لك فإيه المشكلة، واحد مرافق واحدة ست سودانية، من ورا جوزها. ده إذا كنت متراقب".

القلاّش أحس بالغضب: "بتورطني في حاجات أنا ما بحبهاش".. زي إيه، سأله: "الرفق؟ وللا الست السودانية الأمورة؟".

* * *

تقرير سري

وبمراقبة الصحفي مصطفى القلاّش عرفنا أنه يصاحب امرأة من جمهورية السودان، تستأجر شقة مفروشة في حي المعادي يتردد عليها في بيتها مرتين في الأسبوع يوم الأحد بعد الظهر ويمكث حتى الساعة السابعة أو السابعة والنص

بعد الغروب من نفس اليوم. وكذلك يوم الأربع حيث يأتي حوالي السابعة أو السابعة والنص مساء ليغادر حوالي منتصف الليل. وهو يأتي في كل مرة بسيارته الملاكي وقد قمنا بتحرياتنا مع السيد أمين صاحب الفيللا المذكورة وأفادنا بأن السيدة السودانية متزوجة من رجل من الرعية السودانية وأنه تاجر جمال وأنها منتظمة في دفع الإيجار ولا يزورها أحد سوى المذكور وأنه شريك لزوجها وأنها تقضي عدة أيام في الأسبوع لا تخرج من المنزل ولاحظ هو ولاحظنا أيضاً من خلال متابعة المراقبة للفيلا أن بعض البنات من جمهورية السودان يأتون للزيارة أو أنها تذهب لزيارتهم في بيوتهم وإنها تقضي الليل أحياناً مع البنات المذكورات وكما تعرف سيادتكم أن هناك مجموعة من بنات السودان وخاصة من الجنوب يعيشون الآن في جمهورية مصر العربية ويذهبون إلى الديسكوتات في شارع الهرم وفي الزمالك والدقي وجاردن سيتي ويصاحبون الرجال نظير أجر.

وكما تعلمون سيادتكم أن هذا النشاط خارج عن نشاط دائرتنا ويتبع شرطة الآداب وشرطة الأجانب والسياحة، ومرفق طيه أيضاً التقرير الذي تسلمناه من مصادرنا الموثوق بها والذي تفيد بسفر الشخص المطلوب تحت المراقبة خارج البلاد عن طريق البر من جهة ليبيا حيث تعلمون سيادتكم أن السفر من هذه الجهة سهل للذين يريدون مغادرة البلد دون إخطار أو معرفة الجهات المختصة. لذا نطلب التصريح من سيادتكم بغلق ملف المذكور مؤقتاً بالطبع وقد أبلغنا منافذ الخروج والدخول في الجمهورية باسمه وصورته لعمل اللازم حين ظهوره وعودته. وتفضلوا سيادتكم بقبول الاحترام ونحن في انتظار التعليمات.

* * *

يبدأ اليوم يتخذ شكله وإيقاعه ببطء. يستيقظ على زقزقة العصافير الجائعة التي تحط على السطح تنتظر الوجبة الموعودة التي كانت في المرات الأولى بالصدفة، حينما ألقى على السطح بفتافيت من الخبز الناشف . يبدو أن مجتمع العصافير لا يعرف الأسرار، فسرعان ما وفدت عصافير جديدة، ويبدو أن

العصافير ايضاً لا تعترف بالصدفة، لهذا وضع جانباً من ميزانيته الضئيلة تحت بند العصافير. لاحظ أنها عصافير مصرية عادية من فصيلة الدوري. تذكّر عصافير الجنة الملونة التي كان يصيدها في السودان، كان يلبد لها بالقرب من فخاخه البسيطة البدائية المصنوعة من شعر ذيول الخيل. لعل هذا هو السبب الذي جعله يوفر لها وجبة طعام ويراقب حذرها الغريزي وهي تدور حوله، ولا تقترب منه مسافة كافية لكي يمسكها ولم يكن يريد أن يمسكها، فقط أن يستمتع بحركتها حوله، وبمواعيدها المنتظمة التي تشكّل بداية يومه.

استقرت أيضاً العلاقة القلقة بينه وبين أمين بك الذي يذكّره كثيراً بخاله. يناديه؛ يا خال. والآخر؛ يا بنتي. يتناولان سوياً شاي العصرية في الحديقة المهملة، بعده للخال، يحتسيان كميات كبيرة منه في صمت مع البسكوت والقراقيش التي يستخرجها أمين بك بانتظام من مخابئها السرية في غرفة نومه. يخترعان الأخبار لبعضهما. في البداية اندهش كيف يحرّف أمين بك الأخبار البايته في الجريدة. لم يحاول مطلقاً أن يصححها له. ما الفائدة وما الفرق؟ يعيد أمين بك "صياغة" الأخبار كما يحلو له. يهتمان بحوادث القتل ويعيدان "صياغتها" سوياً مضيفان إليها الكثير من الألوان الدموية، ويقارناها بحوادث أيام زمان. اكتشف أن أمين بك قاريء نهم – بطريقته الخاصة – وجد في الصناديق التي سمح له أمين بك بإلقاء نظرة عليها مجلدات مجلات المقتطف والرسالة والمختار من ريدرز دايجست – طبعة لبنان – والمجلدات الكاملة لألف ليلة طبعة بولاق، ورجوع الشيخ إلى صباه طبعة المغرب، والروض العاطر بالإنجليزية، و"قصة أو" بالفرنسية، وأعداد لا حصر لها من روايات الجيب ترجمة عمر عبد العزيز أمين، ومغامرات اللص الظريف أرسين لوبين. هذا هو عالم بأكمله في طريقه للزوال والاختفاء مثل أشياء كثيرة خبرها ولم يعد يجدها مرة أخرى. لكن نفسه تعوف القراءة كما تعوف الكتابة.. "هويتي الجديدة لاعلاقة لها بالماضي".

أدهشه جسده الجديد. كان القلاّش هو أول من لاحظ التحولات الخفية .

– "مالك ماشي بتتعولق كده؟"

سأله متهماً، وهما في طريقهما إلى السينما الصيفي القريبة التي أصر هو على أن يصطحبه إليها: "ما تتعدل في مشيتك". همس منزعجاً يحاول أن يخلّص ذراعه من القبضة القوية التي تشده إلى "الصدر" الناهد.

تمرّن سراً، على المشي بحذاء بكعب عال (خمسة سنتيمترات). ذهب مع صديقته الجديدة "ست الملك" ليتسوقا من السوق الشعبي في المعادي. اهتم البائع الشاب بهما (ست الملك في ريعان الشباب، نحيلة وطويلة ذات نظرات "جريئة") كلاهما في التوب السوداني السابغ. تضحك ست الملك والبائع يتحسس كاحلها وكعبها وهو راكع أمامها وقد وضع قدم المرأة فوق فخذه. تنزلق القدم بين الفخذين لترجع مرة أخرى في لحظة خاطفة ضاحكة، ومعتذرة إلى مكانها. حاول البائع أن يهمس بموعد لكن ست الملك غمزت له، وقالت إن زوجها ينتظر في الخارج .

همست: "إديلي نمرة تليفونك الخصوصي". خرجا من المحل يضحكان. ست الملك اكتشافه الأول، في هويته الجديدة. ترتدي في الليل ملابس الرجال (الإفرنجية) ودائماً في اللون الأبيض، في الصيف والشتا. ظنها في البداية رجلاً.

كانت تقف متكئة بأردافها الصغيرة الأفريقية على طرف البار في "مارسيلينو" تدخن سيجاراً صغيراً. يعرف البار من أيام الصياعة زمان. قادته قدماه (بالتاكسي) إليه، يريد أن يسترجع الجو القديم ويحتسي زجاجة بيرة (بقية المشروبات الروحية مغشوشة وتؤدي إلى التسمم الكحولي). والتقت عيناهما؛ حين أحس بعينين ترقبانه.

حاول أن يتجاهل الأعين الذئبية الصفراء، واختار ركناً مظلماً وانحط فيه مرتجفاً. هذه هي المرة الأولى التي يواجه فيها العالم بهويته الجديدة.

تردد كثيراً وأجّل أكثر من مرة. يعلم أنه لا يستطيع العيش وحيداً في جناحه بالسطح والزيارات المتباعدة من القلاّش. تمرّن طويلاً أمام المرآة الكبيرة في غرفة النوم على المشية (أو ما يتخيله) النسائية. لا يزال بحذاء (واطى) نسائي اشتراه من عمر أفندي في رحلة تسوقه الأولى والأخيرة مع القلاّش.

قال لنفسه لابد من التعميد بالنار. ليكن هذا في مارسيلينو.

جاءت بكأسين من الويسكي وجلست مقابله. عزمت عليه بكأس دون أن تبتسم ودون أن تتكلم. حينما تردد، قالت بصوت واضح: "ما مغشوش. ده من عندي أنا" أشارت إلى بروز في حقيبتها الكبيرة من جلد التمساح المعلقة على ذراعها الطويل القوي، تبرز عضلاته من خلف النسيج الرقيق للسترة التيل. أحس بها تعريه. قال لنفسه جالك الموت يا تارك الصلاة. قدمّت نفسها. لم تسأله عن اسمه. حمته من الأعين المتطفلة. وحينما حاول ولد جنوبي أن يسحبه إلى الرقص، همست بشيء لم يتبينه جيداً، فانسحب الولد متقهقراً متمتماً بشيء يبدو كأنه اعتذار. بعد ذلك تركوه لوحده معها. شعر أنها "مهمة" في البار. تأتي إليها البنات، ويسلمّن عليها. يهمسن لها. تهز رأسها موافقة أو رافضة. قليلة الكلام. عرف حتى قبل أن تخبره باسمها، وبالرغم من الصوت الحلقي الأجش، أنها امرأة، مع أن السترة الواسعة تغطي الصدر الصغير، بالنسبة لواحدة طويلة مثلها. شيء آسر في وجهها الدقيق الملامح الأسمر الرائق الذي يشي باختلاط الدم الزنجي بالدم العربي. لعلها النبالة القديمة التاريخية التي لم تفسدها قشور التحديث والتعصير؛ تَرفُّعها وصمتها البليغ. تقوم أحياناً لتختفي بعض الوقت، لترجع مرة أخرى إلى مقعدها مقابله الذي لم يشغله أحد رغم ازدحام المكان. يأتي الجارسون بين وقت وآخر بكأسين نظيفين وثلج، ويضعهما أمامها ويحمل الكأسين الفارغين بصمت.

حينما نظر في ساعته يفكر في حجة للقيام والمرواح؛ ابتسمت لأول مرة، كاشفة عن أسنان قوية بيضاء منتظمة: "نص ساعة ونروح سوا". قامت وتركته مدهوشاً. لاحظ أنها طوال الوقت لم تخاطبه لا بضمير المؤنث ولا بضمير المذكر. "الملعونة". لكنه لم يكن حتى يحس بالخوف. رغم كؤوس الويسكي (الأربعة) أحس بصفاء في تفكيره لم يختبره منذ زمن. إحساس داخلي أخبره أن البنت كشفته. ذات الإحساس طمأنه أيضاً أن يسلّم نفسه ليد ست الملك الطويلة الأصابع والمتحننة.

قادت السيارة بدربة وبسرعة. سيارة مازدا ياباني من طراز حديث. لم تسأله إلى أين، لكنه لاحظ أنها تأخذ شارع النيل متجهة إلى المعادي.

حينما وصلا إلى شقتها في المعادي الجديدة، راعته أناقة الشقة وأثاثها. قادته إلى الشرفة التي يضيئها مصباح من الطراز الإسلامي، معلق وسط النباتات المتسلقة، يلقي ضوؤه الخافت المريح على أريكة وثيرة. تركته ودلفت إلى الداخل، سمع صوتها يلقي ببعض الأوامر لم يتبينها بوضوح. جاءت بعد قليل وقد وضعت فركة على جسدها بدلاً من ثيابها الرجالية. حافية. جلست بجواره متنهدة وأشعلت سيجارتين محشوتين أحضرتهما من الداخل.

قالت دون أن تنظر إليه "إنت حكايتك شنو يازول؟". حكى لها كل شيء. حكى لها عن كل شيء.

الفصل الحادي عشر

- "لماذا عليّ، أن أدفع ثمن شيء لم أحصل عليه، بينما لا يدفع البعض ثمن ما يحصلون عليه؟".

تجيب ست الملك بكلمات مختلفة ولكن بذات المعنى: كل منّا يريد تحقيق حلمه الخصوصي (ولم تقل الشخصي) ويدفع الناس أمثالنا مقدماً، ثمن، ما نعلم جيداً أنها السمكة في الماء. عليك أن ترضى، لأنه ليس في وسعك سوى الرضا (ولم تقل القبول) أو تضرب راسك في الحيط. كانا يجلسان على السطح، في المساحة الخالية أمام جناحه في بيت أمين بك.

قال لها: ها أنا أدخل على الستين، وما زلت أدفع بالفائدة المركبة ثمن أحلامي التي لم..

لكنها قاطعته بحركة باترة، من يدها القوية، قائلة ما معناه: على الأقل، لم تتخل عن أحلامك، لهذا تدفع حتى الآن. هل الذين تخلوا عن أحلامهم

وقنعوا.. أحسن حالاً لأنهم توقفوا عن الدفع. ما الأحسن من وجهة نظرك؟ لم يكن سؤالاً بقدر ما كان تأملاً. أغلقت عينيها. اعتبرت الموضوع منتهى. تأملها بتلك الدهشة، التي لم تفارقه منذ الليلة الأولى حينما تبادلا المعلومات (وليست الاعترافات حسب تعبيرها) رغبتها القديمة، منذ الصبا المبكر، أن تتحول من وإلى كائنات أخرى.

بالطبع لم يقل لها عن "اكتشافاته" لم يقل لها أن الإنسان، هو في الحقيقة، مثل صوره، في مرايات "السيرك والملاهي" يتخذ أشكاله المختلفة من خلال "تحولاته"، بل ركّز في اكتشافاته المتجددة لها.

قَدَّمها إلى أمين بك بالتدريج.

* * *

أمين بيه، جوزي بعت إنه حايجي آخر الشهر. لم يفسر لأمين بك كيف "بعت" الزوج بالأخبار. استقرت العلاقة بينه وبين أمين بك على العبارات الملغزة. أمين بك، يقدم له بعض الأخبار: بيقولوا، خلاص، يوم القيامة على الأبواب. لا يسأله من هم الذين "بيقولوا"، بل يبدآن نقاشاً جاداً حول التفاصيل المتعلقة بيوم القيامة. أمين بك يستعد ليوم القيامة بطريقته الخاصة؛ يخرج ألبوماته القديمة، ويضع عويناته. يعيد تسمية الوجوه والأشخاص في الصور التي مضى عليها أكثر من نصف قرن ليكون مستعداً – حسب تعبيره – بأن يتعرف عليهم في اليوم العظيم. سيقدم ست الملك لأمين بك باعتبارها ـ باعتباره ـ الزوج.

--أمين بيه، جوزي!

اتفقا على التفاصيل. هو وست الملك. هو وأمين بيك. قال أمين بك بأنه سيطبخ "لهما" طبخة معتبرة. مسقعة باللحمة الضاني. تناقشا في الحلو. قررا في النهاية؛ شمام وعسل نحل.

مع ست الملك اتفق، على ما بعد المغرب، حينما "تعشى" عينا أمين بك، ولا يستطيع تبين الملامح بوضوح. زجاجة كورفوازييه من السوق الحرة (من المصادر

السرية لست الملك التي أصرت أن تدفع ثمنها) وأن ترتدي ست الملك الجلابية السوداني الفضفاضة البيضاء، والعمة البيضاء الكبيرة ومعها علبة السجائر الإنجليزي الروثمان.

أمين بيه، جوزي!

أهلاً .. أهلاً، حمد لله على السلامة!

مر كل شيء بسلاسة غير متوقعة. العشاء على ضوء الشمعدان الفضي القديم، وبدلاً من الشاي التقليدي، ظهر الكورفوازييه (نسي أمين بك الشمام والعسل) وحديث طلي. جسد ست الملك الطويل، النحيل على راحته فوق الأريكة الإسلامبولي القديمة، المركوب السوداني (جلد النمر) معلق على أطراف أصابع القدمين. يقوم هو بالخدمة على "الرجلين"؛ الزوج، وصاحب البيت، حسب الأصول.

انسحب إلى الجناح معتذراً، وجلس مع كأس الكورفوازييه على المقعد، تحت شجرة الياسمين، دون أن يضيء النور. تصعد إليه ضحكاتهما، قهقهة خشنة.. تعقبها كحة؛ أمين بك. قهقهة طويلة حلقية من ست الملك. تصبح على خير يا عريس. تصبح على خير أمين باشا.

واجف القلب، ينتظر في السطح. يتنصت لخطوات ست الملك الخفيفة على السلم. ست الملك ثملة قليلاً، في ذلك المزاج، الذي يعرفه عنها، حينما تنبسط وتفك، وتكون سيدة القعدة. تقف أمامه، منحنية فوقه بعض الشيء، كأنها تتأمله. فوجيء بها تشده من فوق المقعد، ببعض الغلظة (غير المتوقعة). تلتصق به وتمرر يدها القوية على جسده. من الخلف ومن الأمام. حاول أن يتملص مندهشاً، مأخوذاً (لم يحدث بينهما من قبل أي تلامس جسدي) لكنها عصرته بين ذراعيها القويتين، تفوح من جسدها شهوة ومسك. همس لها: ".. حيلك.. حيلك.. حكايتك شنو". همست، تلمع أسنانها البيضاء وأنفاسها تحرقه: "زوج وزوجة.. راجل ومرته إنت إللي حكايتك شنو؟".

لم يفاجأ حينما أتاه صوتها، مكتوماً "بحبك". ولم يفاجأ هو حينما قال لها

وهو يلهث: "أحبك". لم يفاجأ كلاهما. تتحبب إليه كما يتحبب ذكر الحمام إلى أنثاه وهو يناغيها وتناغيه.. مستجيباً ومستجيبة.

"وليه لأ" لم يكن أيضاً سؤالاً.

أهو جسد ست الملك؟ أو.. البحث عن ست الملك في أجساد أخرى؛ بتحولاته؟

تعرف اسمه. قال لها اسمه في الليلة الأولى.

قالت، وهما عاريان في الفراش المفتوح على سماء السطح: "يا زول.. هسه إنت عرفت سري، البنات تتعامل معايا كأني راجل، والرجال يشتهونني.

الفصل الثاني عشر

دخلت ست الملك مصر - لأول مرة - منذ خمس سنوات ونصف، عن طريق حلفا -أدندان، بصحبة عصابة من المهربين المحترفين، الذين اخترقوا المدق الصحراوي من حلفا الجديدة (الاسم الجديد لوادي حلفا "القديمة") باتجاه القرية النوبية، المصرية "أدندان" التي لم يبق منها، سوى اسمها القديم ومجرد كشك لحرس الحدود (من الطين والخشب) يقيم فيه، رقيب من أهالي النوبة المصرية، وجنديان، وثلاثة رشاشات ماركة بورسعيد، وراديو لاسلكي أقصى مدى له هو مكتب مخابرات الحدود الصغير في قرية أبو سمبل (الجديدة أيضاً والتي تحتفظ بالاسم القديم والمعبد الشهير، الذي تم رفعه إلى أعلى الهضبة). دار المهربون، على مبعدة بضعة كيلومترات من كشك الحدود، في المدق الصحراوي، لتدخل ست الملك الوادي والذي كلّفها دخوله، خمسمئة دولار أمريكي، اشترتهم من السوق السوداء في الفاشر، حينما هربت من آسريها، سادتها الجدد. تناولت وهي تخطو خطواتها الأولى على طريق الحرية التي فقدتها، منذ حوالي سنة (حينما أسرها جنود الجيش السوداني، من قريتها

في جبل مـرة وباعوها - سراً بالطبع - لأحـد التجار في الفاشـر). تناولت، ما تيسر من الحلي الذهبيـة، الخاصة بزوجة التاجر والنقود المتاحـة الخاصة بالتاجر. عرفت مخابئها في درسها الأول في العبودية.

وعلى عنوان في المعادي بالقاهرة، وصلت البنت الغـرباوية، ليس معها سوى بضعـة جنيهـات مصرية، بعـد أسبـوع في أسوان، قضـته بين أحـضان ولدين من القاهرة، اصطادها عندمـا التقيـا بها، تحدق جائعـة إلى عربة يد تفوح منهـا رائحة الشواء الرخيص. أطعماها وسحباها إلى منـطقة السيل، في الشقة الصغيرة، التي يقيمان فيها، في مسكن الشركة، التي يعملان بها.

أوصلاهـا إلى محطة السكة الحـديد. قطعا لهـا بطاقة في الدرجـة الثالثـة إلى القاهرة. دسا فـي يدها بضعة جنيهـات، مصروف السكة. دهشت من"كرمـهما". فلم تكن قد عرفت قبل تلك الليلة، أن لجسدها ثمناً.

فـفي الجـبل، مـارست الجنـس مع من يطلبـه قلبـهـا. في البـدايـة مع البنات الأخـريات، فـي الكوخ المخـصص للـعـذارى، اللاتي على وش البـلوغ، ثم، مع الخـالة "ماليـا" التي كانت تشـرف - مع مجـموعـة من النسـاء - على البنات في الكوخ. اعـتبرت ست المـلك، اختـيـار الخـالة ماليـا لهـا شـرفـاً باهت به البنات الأخريات؛ فـالخالة ماليـا، مشهورة فـي الحلة كلها، وفي الحلل المجاورة، بعلمـها الواسع في شئـون الجسد، وتكتسب "تلمـيذاتها و صاحـباتها" شـهـرة بالتـالي، وبالتـبـعيـة. ثم مع شـبــاب الحلة والحلل المجـاورة. تسيـر في الدروب بصـدرها العاري. تميل إلى الطول والنحافة، يتقدمها نهداها سهمين صغيرين، من الأبنوس والعقيق. سمعتـها عالية بين الشباب، باعتبارها تمتلك شيئاً خـاصاً، يثير فضولهم وشهوتهم في الوقت نفسه.

مالكها التاجر عافـها (بسبب هذا الشيء الخاص) بعد المرة الأولى، فلم يحب جسدها الطويل النحيل، وقال لأصحـابه مازحاً مستنكراً: "يازول.. بنات الغرب، مـا تعرف، نسـوان وللا رجـاله. البنت دي، حكايتـهـا حكاية. نص راجل ونص مره".. لم يتأسَ طويلاً على النقـود التي دفعها ثمناً لها، إذ سلمهـا لزوجته، التي

شغلتها في البيت، كنس ومسح وطبخ وغسيل وطحن وخبز.. . لهذا حينما مازحها الولدان بلهجة أهل القاهرة التي لم تفهم منها شيئاً، اكتفت بالابتسام الذي استقبلت به أيضاً دعوتهما على السندوتش، وصحبتهما إلى الشقة بدون تردد، حيث تحممت للمرة الأولى منذ أيام طويلة. لمع جسدها الفتي الذي كسته الصحراء بغبارها، غسلت ثوبها الوحيد لتخرج من تحت الدش، عارية تبتسم، تضيء حبات المياه على سمار جسدها الداكن، متعلقة بالنهدين الفتيين، لفتاة لم تتجاوز الثامنة عشر من عمرها بعد.

قادتهما بابتسامتها، وبخبرتها التي كسبتها من الخالة "ماليا" إلى عالم جديد لم يكن الولدان يظنان بوجوده ولا حتى في فنتازيتهما البسيطة المحدودة. لم تخجل أو حتى تتصنع الخجل وهي تقدم جسدها الأفريقي، لولدين أكبر منها في العمر، وأقل منها كثيراً في الخبرة. أو لم تعبر الصحراء ماشية؟ أو لم تهرب من أسرها وتأخذ "حقها" الذي عملت به أكثر من خمس عشرة ساعة في اليوم؟ والولدان؟ ألم يطعماها، ويضحكان معها، ويعطيانها مأوى وملاذاً، في مصر التي يسرقون فيها الكحل من العين كما سمعت من المهربين؟ والمدهش أنهما يعطيانها نقوداً، أيضاً، وهي التي استمتعت بهما، خاصة حينما أحست منذ البداية أنهما غشيمان غريران؟

لم تدهش هذه المرة، عند وصولها إلى المعادي على العنوان الذي كتباه لها في ورقة دستها في صدرها (بالتاكسي الذي حددا لها أجرته مقدماً) حينما فتح لها الشقة ولد آخر (يشبه الولدين أو هكذا تخيلت) مبتسماً، مرحباً بها باسمها الذي قال لها وهو يحروس حولها، يتحدث بسرعة. فهمت منه أن صاحبيه أخبراه بالتليفون، عن اسمها وعن حالها وأهلاً بها وسهلاً، نورتي وآنستي. بدأت تدهش، حينما قام بنفسه وعمل لها الشاي، وصبه لها في فنجال من الصيني الأبيض.

قادها بعد ذلك إلى الحمّام، وأجرى المياه الدافئة في البانيو الذي خافت منه.

لكنها وهي بنت الجبل، لم تظهر خوفها أو دهشتها. فمنذ وصولها مصر، وهي تندهش يومياً من أشياء كثيرة، تبتسم فقط ابتسامتها الخاصة المتحفظة الخجلى. لم تحس أنها على راحتها مع الولد الذي يكبرها في العمر كثيراً، كما لاحظت بعد ذلك (في الأربعين تقريباً حسب تعبيره). كان رقيقاً بعكس الولدين اللذين "استعملاها" طوال الوقت المتاح، وقد تعبت في النهاية وبدأت تسأمهما قليلاً.

عاوزة حاجة؟ أنا في خدمتك.

كان يقف على فتحة باب الحمام، الذي لم تغلقه لسبب بسيط أنها لم تعتد من قبل على الأبواب. عارية بالقرب من البانيو، مترددة، تتساءل سراً ما إذا كانت ستغرق فيه. أحس بترددها، ابتسم لها وقادها من يدها برفق إلى البانيو الذي غطست داخله متنهدة. خلع هو ثيابه وجلس عارياً على مقعد صغير بالقرب منها، صبّن لها جسدها، مبتدءاً بقدميها الكبيرتين المشققتين من السير طويلاً في الصحراء بالحذاء العسكري البالي الذي أعطاه لها أحد المهربين.

تمعنته طويلاً، وهي تحاول أن تتذكر ما قالته لها الخالة ماليا ذات مرة عن نوع خاص من الرجال.

قالت له، وهما يحتسيان شاي الصباح (المتأخر) تحت الياسمينة.. يتناهى إلى سمعهما حركة أمين بك في الحديقة وهمهمته: تخيل معي بنت الجبل التي لم تر الفاشر سوى مرة واحدة في حياتها، تعبر الصحراء ماشية، وتأكل كباب في ليلتها الأولى في مصر، لتجد أن لجسدها قيمة أخرى، وهي التي كانت خادمة وعبدة. ولكن الرجل الوجيه الغني الذي وقف بباب الحمام، يحمل البشكير في يده ويقول لي أنا في خدمتك، أصابني بالدهشة. أنا أخت الرجال؛ أصارع الأسد والنمر، لكن الرجل على باب الحمام الموارب، فتح لي العالم الآخر.

صبّن لها قدميها، غاطسة في البانيو، تحس بشفتيه تزحفان ببطء، تصعدان متلهفتان، تحاولان أن تقتنصا سرها الذي حكى له عنه الولدان. ورغم حرارة الماء. تحس بأنفاسه الحارة وهو يتمسّح بوجهه، بين فخذيها.

أيام الجبل. في ذلك الزمن الغابر حين تحركت ببعض الحرج وبكثير من

الدهشة بين عالمين. بالتحديد، في عالمها الخاص، الذي كشفته لها الخالة ماليا في "كوخ البلوغ"، حينما أخبرتها بخصوصيتها، التي كانت خافية عليها. طمأنتها، ووجهها الحكيم يبتسم تلك الابتسامة العاقلة التي رأت من الدنيا وعجائبها، ما لم يعد يدهشها .

يستمع إلى حكاياتها، ويسترجع في خياله (أو فلنقل ذاكرته التي ما زالت قوية) دهشته الأولى، حينما نضت ست الملك جلابيتها التي على اللحم، في ليلة.."زوجي.. يا أمين بك". ودهشته الثانية، ويدها الخشنة تقود يده، إلى سرها الخصوصي، لتضحك منه وهو يسحب يده منتزعاً إياها، خائفاً؛ من أن أكثر أحلامه السرية، خصوصية، تتحقق بهذه البساطة. تتشبث به وبيده، التي لا تزال معلّقة في الهواء لتضعها على ثديها الناهد الصلب، ثدي الأنثى العارم القوة الذي ينبض تحت يده هذه، كما نبض "الآخر" تحت يده الأخرى. تهمس شفتاها الحسيتان الغليظتان الدسمتان في صدره، تحفران حفراً صغيرة وتفتحان المغاليق الصدئة التي طال نسيانها وإهمالها.

حكت له عن تجربتها الأولى، مع الخالة ماليا. طقوس التدشين، وكيف قدَّمتها ماليا، بعد ذلك إلى القبيلة، في الاحتفال الخاص الذي أقيم لمجموعة الفتيات البالغات.

قادتها عارية، مكسوفة في البداية. شامخة، فخورة، بعد ذلك، إلى وسط الدائرة هازجة، مترنمة، بتعاويذها، لتعلق على صدرها ورقبتها أحجبتها وتزغرد النسوة، ويتقافز الرجال، يهزون سيوفهم وخناجرهم، وتلمع أذرعتهم، المفتولة العضلة، بالعرق تحت وهج النار. لتحتل مكانها الخاص في القبيلة. المكان الذي حدده جسدها لها، وضعها على حافة العالمين وفي قلب عالمها الخاص.

لكن أول مرة في حياتي ييجي راجل حلو وكبير ويقوللي، أنا خدامك يا ست. اختصر اسمها إلى "ست" ثم إلى "ستى الملكة"، وأخذها إلى عالم لم تكن حتى تعرف بوجوده. حفلات وشراب ونساء جميلات ساحرات، ورجال تنحني لهم الهامات. خواجات وأولاد عرب.

ترقد عارية بجواره، وطفاية السجائر فوق بطنها (عادة رونسي) وكأسها تحاول أن تسنده فوق صدرها.

دهشته الثالثة أنها أقامت علاقة معه، رغم الاختلاف الكبير بينهما في كل شيء. هو يعرف لماذا يريدها وما يريده. طيب وهيّ؟ هناك من هو أصغر منه وأغنى منه.

* * *

مكان الاجتماع المألوف هو الفيللا الموجودة في واحد من الشوارع الصغيرة، المتفرعة من شارع أحمد مظهر في الزمالك. في نهاية الشارع الصغير، الذي تغلقه أبواب الفيللا بشكل مستمر. تفتح حديقتها الواسعة على النهر في زاويته التي يدور بها حول الزمالك معطياً ظهره لحي بولاق ومستقبلاً إمبابه.

موعد الاجتماع يُحَدد قبله بساعة واحدة وبواسطة التليفون الخليوي، حتى تتعذر مراقبة الاتصال من عدة "أجهزة" معنية محلية ودولية.

الذين حضروا الاجتماع هذه المرة: ممثل مكتب متابعة الإرهاب الديني، التابع للقسم الخاص بالعلاقات الدينية في السي آي إيه، ومندوب رعاية الأقليات الدينية في القسم السياسي لمنظمة شرق المتوسط، التابعة للجناح العسكري، لـ"قوة التدخل الخاصة" لدول شمال المتوسط، مندوب الديزيم بيرو الفرنسي، ومندوبة الموساد الإسرائيلية (يهودية، عربية المولد، وتعمل بسفارة أوروبية) وأخيراً ضابط الاتصال في السفارة السويسرية.

كل منهم يحمل مفتاحه الخاص، بالإضافة إلى الرقم الشفري الذي بواسطته يمكن فتح الباب الداخلي المصفح. هذا الرقم الذي يتم تغييره، كل مرة، ويُعَطي للحاضرين في كل مرة - أيضاً- قبل وصولهم بلحظات إلى الفيللا، بواسطة التليفون الخليوي، في السيارة عند وصولها إلى باب الفيللا. وحينما يدخلون إلى الداخل يجلسون على الفوتيلات الوثيرة، في الغرفة الداخلية، التي ليس بها نوافذ أو فتحات للتهوية، وإنما جهاز تكييف صامت ألكتروني. يجلس كل منهم على

مقعده المخصص له. يقوم "الداعي" الذي يصل قبلهم ويراقب وصولهم ودخولهم، من خلال شبكة تليفزيونية مغلقة، بتحضير المرطبات (بدون كحول). يتخذ موقعه معهم. يقدم تقريره من الذاكرة. ممنوع استخدام المذكرات أو أجهزة التسجيل في الاجتماعات. إنها اجتماعات من المتفق أنها لم تحدث أصلاً.

شخصية واحدة نعرفها من الحاضرين، سالي تومسون، ممثلة لمكتب "متابعة الأنشطة الدينية غير القانونية" في الناتو. مكتب حديث نسبياً، ليست له ميزانية كبيرة. يعمل مع سالي موظفان "يقومان بالمساعدة في أعمال الترجمة وتصوير الوثائق". استطاعت سالي أن تكسب ثقة رؤسائها بسرعة، حينما تحركت بسهولة في أوساط المثقفين، باعتبارها طالبة للدكتوراه "في العلاقات الأمريكية المصرية في الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى انذار إيزنهاور في حرب الستة والخمسين". تقبلها المثقفون – معظمهم إن أردنا الدقة.

برحابة صدر، وثقة ساذجة، تعلن في كل مناسبة اعتراضها على السياسة الأمريكية في المنطقة، وخاصة حرب الخليج، وما بعدها وبالتالي على السياسة الأمريكية الإسرائيلية. تقدم إشارات واضحة بأنها تنتمي لليسار الأمريكي، وتتعاطف مع كاسترو وترتدي ثياباً بسيطة، وتسكن في شقة من غرفة وصالة على سطح عمارة قديمة في باب اللوق. تأكل فول وفلافل ولحمة راس، وتشرب شاي في الأتيليه وزهرة البستان، وبيرة في الجريون وبيارة إستللا، وتسهر في الحسين والسيدة زينب. يمنعها رجال الأمن، من الدخول إلى الفنادق الخمسة نجوم؛ لأنها ترفض التفتيش؛ تقول لهم بصوت عال "مقصود": فك يو سن أوف آبيتش. هكذا حصلت على سمعتها بجدارة، باعتبارها مناضلة تتبرع، من ميزانيتها المحدودة، للمجلات الماستر، وتشتري "الأهالي" كل أربعاء و"اليسار" أول كل شهر. ترفض بحسم الاشتراك مع بعض أصدقائها، المصريين، في حفلات تدخين البانجو، في بولاق الدكرور. بل وكسبت سمعة جيدة أيضاً؛ بأنها فتاة عفيفة شريفة، تضع في أصبع يدها اليمنى، خاتماً ذهبياً بسيطاً، وتقول إنها مخطوبة لواحد من مقاتلي التوبا مارو، في بيرو، يقضي

عقوبة السجن في زنازين ليما. ضربتها الكبرى: التقرير الذي باعه لها "البغل".

يتعامل معها الذين يحضرون هذا الاجتماع، بمزيج من التقدير.

كلهم من المخضرمين في تخصصهم، معظمهم في الأربعينيات أو أواخرها.

بالطبع حسب الأصول أيضاً، فإنها تحافظ على سرية مصادرها، وتقوم بحمايتها، ضد محاولات "حلفائها" بكشفها، وبالتالي، تجنيدها لحسابها.

السبب المعلن للاجتماع هو "العثور" على أوراق كانت ضائعة من التقرير الأصلي، أو هكذا أخبرتهم سالي.

السويسري تنبهت قرون استشعاره؛ يريد أن يحصل فوراً، على نسخة من "الأوراق". لكن سالي، قالت إنها ستقدم ملخصاً من الذاكرة، وسترسلها لهم بعد ذلك، بالطريق الدبلوماسي (علماً بأنها ليست لها حيثية دبلوماسية وليس لها مكتب بالسفارة أو القنصلية لكن مكتبها في شركة مقاولات أمريكية تقوم ببناء شبكة جديدة للمجاري في القاهرة وتعمل كمترجمة). قالت إن خبراء الخط لم يستطيعوا الجزم، من صحة الخط في المخطوط، وانتمائه للمؤلف الأصلي.

دارت مناقشة سريعة وعملية: هل يمكن للمؤلف أن يكتب الجزء الجديد. "هكذا أطلقوا على الأوراق" من التقرير بطريقة مختلفة عن الجزء السابق؟ ولماذا؟ وهل الجو العام والشخصيات في "الجديد" لها علاقة بالقديم... إلخ؟

قالت: "كل ما أستطيع قوله الآن، ملخص سريع.. عدا ذلك فلننتظر رأي الخبراء في المكتب الرئيسي. هناك مزيد من المعلومات، يتحدث فيها، عن رأيه في الشخصيات الأدبية والسياسية المعاصرة بالأسماء الصريحة" أضافت:

"هذا ما يجعلني أتردد في الجزم بأصالة التقرير".

من تليفونها الخليوي في سيارتها، اتصلت برقم من ذاكرتها. دق جرس التليفون، في الهرم، في الشقة الصغيرة، التي يستأجرها الشيخ سيد، مفروشة، في منطقة العمرانية.

استيقظ لتوه، من نومة قيلولة، طويلة. يجلس بثيابه الداخلية، في الردهة، التي تضيئها مصابيح الشارع. يحتسي فنجالاً من البن، يستحلب معه فص الأفيون،

اشتراه بالأمس من "السوداني" الذي يتحرك بين إمبابة وبولاق الدكرور والجيزة، يبيع البانجو والحشيش والأفيون "للمسأفين" حسب تعبيره. يتعامل معهم بالنسيئة، ويقدم أسماءهم وملامحهم بانتظام إلى "رئيسه" في رئاسة الشرطة السرية "الأجانب والجنسية"، والتي توزعها بمعرفتها - حسب ما يتراءى لها - على "المكاتب" المختصة، وقد يكون منها قسم مكافحة المخدرات.

قالت له سالي ضاحكة: "صحيتك يا عرب؟". فغمغم ببضع كلمات غير مفهومة. دردشت معه بخفة. تضاحكت لنكتة سخيفه قالها.

بلهجة محايدة: "فيه ضيوف حايطبوا عليه بعد شوية" طلبت منه أن يتعامل معهم "بالذوق". قالت له إن هؤلاء الضيوف، سيطلبون منه أن يتعاون معهم ويسلمهم الرواية.

صمتت لحظة، حتى تأكدت من أن خلايا مخ الشيخ التقطت الرسالة. يريد أن يكسب الوقت، ويستعبط. قال بصوته المبحوح: "رواية إيه؟". فردت هي بهدوء بارد: "الرواية إللي لهفتها من صاحبك إنت والنوبي إللي إسمه زول"..

ابتسمت سعيدة بتخيله مرتبكاً، وأضافت: "الرواية إللي بعت أجزاء منها ليَّا، باعتبارها تقرير". قطعت الاتصال. اتصلت بهاتف سيارة جيب، لا تلفت النظر، راكنة بالقرب من بناية الشيخ سيد.

تخيلت "الضيوف" يدقون على جرس باب الشيخ سيد، بإلحاح متعمد. خوفه، والعرق على صلعته. يحاول أن ينكر ويتظاهر بالشجاعة (أو الوقاحة). يصفعه أحدهم، بينما يشده الآخر من ثيابه ويتظاهر بأنه سيخنقه. محترفون! لن يعرف - أبداً - كيف يتعامل معهم. ينهار ويخرج الرواية من مخبئها.. سوف تسألهم أين كان يخبئها.. فوق السيفون؟ تحت السرير؟

سوف تفي بوعدها له، ترجع له الرواية . تذكرت المرة الأولى التي التقته فيها، بعد أن فاجأها في حفلة السفارة (لم تعد تذكر أية سفارة أو أية مناسبة)، حينما وضع يده على إليتها، وقال لها "مغفورة لك خطاياك" فاجأتها جرأته ولم تغضبها، لهذا تركت يده تتحرك براحتها. قبلت دعوته وذهبت إليه في شقته. لم

تكن تريد تجنيده. فقط أن تلعب معه بعض الشيء.. كانت قد قرأت التقرير الصغير الخاص به الذي حصلت عليه من الجانب المصرى نتيجة لاتفاقية قديمة لتبادل المعلومات وسريانها على الأقل، من الجانب "الآخر".

قرّرت أن تقول له (عن بعض نشاطها) لم تقل له كل شيء. فقط قالت إنه تجمع معلومات عن النشاطات المسلحة التي تتخذ طابعاً دينياً.

قالت له إنها لا تحلل ولا تتخذ قرارات (استراب فيها.. هل تعرف إني بكتب رواية عن الموضوع ده؟ بنت الأبالسه!). وسألته إذا كان يحس، الآن، بالانزعاج من طبيعة عملها، فقال لها إنه على الأقل يحترم صدقها وإن كل الأشياء محصلة بعضيها. فقط حذّرها جاداً بأنه لن يقدم لها معلومات عن أي شيء في الدنيا أو حتى الآخرة كمان. أصبحا أصدقاء، واحترم كل منهما "خصوصية" وضع الآخر. فوجئت باختفائه.

قال لها قبل أن يختفي بأيام: على فكرة أنا بستخدمك، أصلي بكتب روايه، عن العنه الجنسية والسياسية. ضحكت، ظانة أنها واحدة من مزحاته الكثيرة، حينما يخلط الجد بالهزل. لم تفهم ساعتها.

عرفت ما الذي كان يقصده، حينما سلمّها "البغل" ما أطلق عليه اسم "التقرير". هي عرفت بخبرتها، أنها أوراق، مقتطعة من رواية، أو قصة، أو مذكرات. وجدت اسمها في الأوراق. لكنها قررت استخدام، ما أسمته هي "معلومات" لترفع من قيمتها عند رؤسائها، خاصة أن كونترول، يُضيِّق عليها الخناق، ويريد تحجيمها. قررت أن "تلعب" في المساحة الحرجة بين الأمن والخطر (أعادت كتابة بعض مقتطفات من الأوراق).. كانت تريد - هكذا أقنعت نفسها - أن تكشف الموضوع بعد وقت حينما يبرد. أن تقول مثلاً "لم تثبت صحة هذه المعلومات، رغم عدم تأكدي منها من مصادر أخرى".. أو شيئاً من هذا القبيل.

لم تتوقع ردود الفعل السريعة من رؤسائها، أو من "الجانب الآخر"، بعد أن تمكنت من تسريب بعض "المعلومات" لهم. أصبح التقرير مثل "كرة الثلج"

تستمد قوتها من عنف انحدارها لأسفل التل، أصبح له إيقاعه الخاص.

وهكذا وجدت سالي تومسون نفسها، مضطرة أن تماشي "الموقف الجديد" الذي أصبحت له أسماء كودية، ومذكرات شفرية، واجتماعات، وتحليلات، وبالطبع قرارات.

التقت به في أسبوعها الثاني بعد وصولها. ذهبت إلى "الجريون" طبقاً لنصيحة رئيسها، الذي أعطاها ملفاً دسماً بكافة المعلومات، التي تهمها عن رواد ما أطلق عليه، اصطلاح "مقاهي المثقفين، وتجمعاتهم":

لفت انتباهها دقة التقرير. أرفق مجموعة من الصور الفوتوغرافية الحديثة (مؤرخة) ومعها بروفايل عن الأشخاص والشخصيات، وأعجبها أيضاً، تمييز التقرير لغوياً، بين الشخص والشخصية. أثار فضولها البروفايل الخاص بواحد أسماه التقرير "الشيخ سيد العربي". أثار فضولها أيضاً اللقب الديني، لكنها عندما قرأت البروفايل وعرفت بالنشأة الدينية التقليدية له، في المدارس الأزهرية الريفية. التقرير يتعامل بحذر أيضاً مع هذه المعلومة؛ بحيث يعلن كاتبه أو كاتبوه.. "بأنه لم يمكن التوثق من صحة هذه المعلومة التي يرددها أصدقاؤه وعارفوه وأعداؤه وصاحب البروفايل نفسه". وثمة سرد سريع لارتباطه بالحركة اليسارية "لكنه لم يتم اعتقاله أو محاكمته أو سجنه بتهمة يسارية في الفترة التي تم فيها اعتقال ومحاكمة وسجن وتعذيب وقتل بعض اليساريين والشيوعيين في المرحلة الناصرية أو بعدها"، ثم جولة سريعة مع الشيخ سيد في بعض البلاد العربية: ليبيا ولبنان والعراق واليمن الجنوبي وسوريا.

تحرك أحياناً بصفته الشخصية، أو باعتباره ممثلاً لبعض التنظيمات التحت أرضية في فترة حكم السادات. "زلق اللسان حاضر البديهة. محب للخمر والنساء. بدأ في تعاطي المخدرات الهارد درجز، ويحب السهر، وليس له عمل محدد. هناك تضارب حول صلاته بأجهزة الأمن المحلية أو العربية. ثرثار ونمّام، ومن الأفضل عدم أخذ أقواله على محمل الجد. كما لا يجب الاستهانة بها، بل التعامل معه بحذر". ينهي البروفايل وصفه للشيخ سيد بأنه "مادة مؤقتة للتعامل".

عرفته مباشر حينما رآته (بعد أن تمعنّت في صورته في التقرير). إرتأت التعامل معه باعتباره "محروق".. قررت أنه قد يكون مفيداً لها بشكل ما. لم توكل لها - بعد - مهمة تجنيد.. أحد.

"المطلوب أن تفتحي أذنيك. ليس المطلوب هو أن تحللي ما تسمعيه. هذه مهمتنا. إنك جامعة للزبالة. نحن نقوم بالفرز والتصنيف والتقييم".

ذهب إليها برجليه (متطوحاً بعض الشيء، فقد كان يشرب على جوع) وهي تجلس على مائدة صغيرة تحتسي زجاجة بيرة استيللا (قالت للجارسون بلهجتها البلدية "موش مستورد". لسانه ثقيل بعض الشيء، بدأ الشرب مبكراً هذه الليلة (كان يحتفل بانتصار خاص). واستحلب فص الأفيون، بعد نومة القيلولة الطويلة التي تعقب سهرة الليلة المنصرمة عادة.

"إنتي بتاعة التاريخ، مش إنتي برضه". جلس دون أن تدعوه للجلوس. لحقه الجارسون، يحاول أن يكبحه، لكنها هزت رأسها مبتسمة وسألته: "تشرب إيه"، عابثته؛ بأنها بتاعة جغرافيا. قال لها وهو يحتسي زجاجة البيرة الثانية (على حسابها) "لو عزتي حاجة في التاريخ بتاع اليومين دوله، إللي لسه ما تكتبش.. إتصلي بي". فسألته: حاجة زي إيه مثلاً. فقال له: "أي حاجة لو عاوزة لبن العصفورة... عارفه لبن العصفورة؟". أجابته صادقة إنها لا تعرفه. فقال لها: "إذن إنتي ما تعرفيش حاجة في حاجة. محتاجالك درس خصوصي". كان ينظر - أو يحاول أن يركِّز نظره - على صدرها الذي يتكور، تحت تقويرة الفستان الخفيف. فكرت: لو مد يده سأصفعه. لكنه قام متطوحاً، وقلب بكمه، دون قصد، بقايا البيرة في كوبها، ولم يهتم حتى بالاعتذار.

ثم فاجأها، بعد أسبوعين ، تقريباً (لم يكن مسطولاً أو ثملاً لدهشتها) بأن قال لها إن عنده شيء يهمها. عاملته في البداية باستهانة. سألته؛ وكيف يعرف ما يهمها من عدمه.

فاجأها للمرة الثانية عندما قال لها عن "اهتمامها" كما عبر هو؛ باللي بيحصل اليومين دول بين المسيحيين والمسلمين والقلق إللي في البلد.

اتفقا على موعد. طلب منها أن تحضر إلى بيته. وجدته ينتظرها وهو يتصبب عرقاً.

لم تكن تعلم أنه "استعار" أوراق الرواية، حينما كان يتجول في الشقة، وصاحبها في بيت الراحة. قرأ بضعة سطور على عجل. دسها بين قميصه ولحمه. خرج مع النوبي (كانا لا يطيقان بعضهما، قال له - حينما كشفه الآخر وخاف أن يفضحه - بأنه استعار الرواية ليعرف (صاحبنا ده بيعك إيه اليومين دوله). وحينما قرأها في البداية بملل، ثم باهتمام متزايد، اكتشف، من الممكن أن يبيعها لسالي، باعتبارها "تقريراً" وقع في يده.. أو من مصادر خاصة. المهم الفلوس. أرضى شريكه، بوعود غامضة، معتمداً على غبائه، وطمعه.

الفصل الثالث عشر

السيارة الجيب الروسي تنطلق بسرعة معقولة فوق الإسفلت الجديد شرق النيل، الذي سرعان ما سيسلمها إلى المدقات المعروفة من عدد قليل من السائقين الذين يريدون تفادي نقاط التفتيش، على الطريق الرئيسي، غرب النيل، ينحدر جنوباً باتجاه أسوان.

في السيارة صاحبة الموتور يجلس على مقعد القيادة.. الضابط السابق يونس مراد وبجواره "صديقه" الجديد.

تحت المقعد مسدس بريتا محشو. لم يكن الأمر بالصعوبة التي كان يتوقعها يونس؛ فمن خلال شبكة العلاقات المرهفة القديمة، التي لا تزال تعمل بحذر وبطء، مثل، الجيب الروسي، أمكن العثور على الخيط الأساسي الذي قادهم إليه. لم يمانع هو، بل رحب - لدهشة متعقبيه - بالذهاب معهم، إلى ما أطلقوا عليه "المكان الآمن المؤقت". لم يسأل عن التفاصيل.

يريد أن يغادر القاهرة التي أحس فيها بالاختناق.

بالقـرب من "استـراحة" صغـيرة، أوقف يونس السيـارة، فتح غطاء الموتور، تصاعـد منه البخار الحار. هبـط الاثنان، تصلبت سيقـانهما، يسيـران ببطء، باتجاه المقاعـد الخشبية تحت شـجرة الجميـز ليشربا الشاي، ويـأكلان، طبقاً صغـيراً، من الفول المدمس الحار.

لم يتبادلا حديثاً. لم يكونا بحاجة إلى ذلك. كل منهما، يتأمل أفكاره. ببعض الأسى، ببعض الفخر.

يفكر يونس مـراد، في أحـداث الأسبـوع الماضي. الأسى؛ حـينما تأكـدت له نظريتـه بأن ما يحـدث الآن،لابد من حدوثـه، لنظام شارك في تشـييـده بحمـاس وإخلاص.

الفخر؛ بابن أخته، والقلائل الآخرين الذين غامـر بعضهم بمستقبلهم، البعض الآخر بحريتهم، لكي يوقـفوا، مؤقتاً، كارثة، لا يستطيع أحد أن يتنبـأ بنتائجها. لا يعرفـهم، ولا يعرفـونه. لعلهم سمـعوا عنه وعن "أساطـيره". احتـفظ بينه وبينهم بمسافة آمنة. حتى لايفقدوا "أمانهم" الهش.

الآخر، الذي كـان يمضغ الطعام، ويشرب الشـاي ببطء.. يتأمل مرافـقه "لعله يقـاربني في العمـر، حركـات جسـده المتصلـبة، الشـعر الأبيض وانحناءة الظهـر البسيطة، التجاعـيد العميقة في الوجه، والصلعة المستـترة في تاج الرأس، يكشفها الشعـر الخفيف الأكـرت"، ثم "أهذه هي الانحناءة الأخيـرة في قوس الدائرة؟ أم لعلها بداية قوس في دائرة حديدية متداخلة؟".

ترك وراءه الابنة، وداد. ترك أيضاً، الحبيبة الأولى رونسي. وها هو يترك ست الملك، ستوره الأول والأخير.

ابتـسم بأسى.. دنيـا.. كل ما تكـاد تضع إيدك على الشيء الذي تبـحث عنه، تخطفه الحداية.. عيني عينك.

ساعتـها قال له يونس مراد ومـن معه: انت في خطر. الخطر أكـبـر منك ومن إمكانيـاتك. قالوا له؛ نسـتطيع بخبـرتنا وعلاقـتنا أن نؤجل الكارثة. قد نسـتطيع إيقـافهـا. قـالوا له: هناك من يريدون اسـتخـدامك، من أجل أن يواصلوا هم مـا

يفعلونه. قالوا له: لا تعرفنا ولا نعرفك.. لكننا نستطيع مساعدتك، وتستطيع مساعدتنا. هذا هو الفرق بيننا وبينهم. نحن نأخذ ونعطي، لكنهم اعتادوا على الأخذ دون عطاء. قتلة، يأخذون حياة الآخرين، لكي يواصلوا هم حياتهم التي انتهت منذ زمن.

قال لهم: ماشي. كله ماشي. أنا بتاعكم.

لم يقل لهم: مؤقتاً. أنا بتاعكم مؤقتاً حتى يقضي الله أمراً.

لم يقل لهم: أنا إللي جبته لنفسي، ودخلت عش الزنابير برجلي. كنت بالعب.

وفي شقة رونسي ، في الوقت نفسه – تقريباً– تفكر وداد بين الحلم واليقظة: مكتوب؟ في شرع مين؟ أن أفقد أحبائي واحداً بعد الآخر. الرشيدي. ثم بابا. ما صدقّت أني لقيته. يمكن هو عاوز كده.. نضيعه. نفقده. الرشيدي كمان، عاوز يضيع.. أكيد. ما الذي يجعل واحد مثل الرشيدي، ذكي ونبيه وابن سوق، يروح برجليه لقدره؟ يمكن زهق؟ زهق مني ومن الدنيا؟ كان يقول دائماً، الحياة مملة. عدمي؟.. وجودي؟ وهو إللي ما رحش مدارس وما يعرفش فلسفة!

وداد بين الحلم واليقظة متكئة على وسادتها:

إليوشا بيقول إن الحياة لازم تمشي بقوة الدفع الذاتي.

تركت إليوشا في الشرفة، يغازل رونسي التي فاجأتها غلاظته وإن لم تزعجها.

قالت له: تُذَكّرني بواحد جنايني كنت أعرفه من ألف سنة.

قال لها: تُذَكّريني بنموذج، أشتهيه من ألف سنة.

تركتهما في الشرفة، وانسحبت إلى فراشها وغرفتها وأفكارها.

لا يزالا في الشرفة. تسمع أحياناً ضحكاتهما. تكتشف غنجاً جديداً – عليها – في ضحكة رونسي.. في مشيتها.. في هزة أردافها، وارتعاشة صدرها الذي لا يزال..

قالت له رونسي جادة: لكني لا أريد رجالاً في هذه المرحلة في حياتي .

ضحك إليوشا وقال لها: "وإيش عرفّك أني راجل؟ موش لازم تشوفي الأول" ضحك ثلاثتهم.

أصبح القلاش الشهير بـ أليوشا الضلع الثالث، في المثلث.

لم تهتم وداد بالتفاصيل. لم تسأل ولم تتطوع رونسي. لكنها في أعماقها تعرف، ما يعرفه الآخران.

في البداية - حينما هبطت وداد على رونسي كالقدر الذي لا فكاك منه لكليهما (لم تكن تريد أن تبقى بمفردها بعد اختفاء الرشيدي). لم تكن رونسي ضنينة بحكايتها.

وداد مليئة بالفضول الذي لا تشبعه سوى التفاصيل. تعابثها رونسي "روحي اسألي أمك".

لكنها لم تكن تريد أن تشاركها أمها - أو أن تشارك هي أمها - في أبيها، الذي اكتشفته مؤخراً. تقول "لقيته" "أول مرة كانت في بيتنا. يمكن كان عمره سبعتاشر

تمنتاشر.. وأنا يمكن عشرين. دي كانت أول مره بالنسبة له. وماكانتش بالنسبه لي".

"شكله؟ حاجة زي الفار المذعور". تزغدها "إخص عليكي".. تضحكان: "أنا إللي عرفته بأمك".. كنت عاوزاه، يعرف نسوان تانيه. بنات يعني.. وبعدين إنتي عارفه حكاية الجنس الطبقي. كل ما واحد من الاتنين، تكون طبقته أعلى من التاني، يحلو أكتر في السرير". تضيف بعد لحظات: "البنت أمك دي حدوته. كانت هي القرين.. الكا، بتاعي، كل إللي عاوزاه أو بحلم بيه، أمك كانت بتعمله ببساطه، زي ما تكون بتشرب كوباية ميه". تسألها وداد: كانت؟. لكن رونسي، لا تعلق. تواصل: "ما سبناش بعض عشان أمك. هي فاكره كده. عبيطة ومغرورة. إحنا ما لناش غير بعضينا (تضحك) حاجة زي الأفلام.

تعرف وداد أيضاً لماذا دعت إليوشا. قالت لها رونسي: "بتعملي زي أبوكي! كان بيحب يركّب الناس على بعضيها ويتفرج عليهم" . " مانتي كمان، ركبتيه

على رونسيه" (لم تكن تحب أن تناديها ماما).. "بهدف مختلف، كنت عاوزاه يتفطم.يطلع من اللفه".

من خلال حكايات رونسي - والأسئلة اللحوحة من وداد -استطاعت البنت أن تُشَكِّل صورة أبيها. أحبته، وأحبت الصورة التي ساهمت رونسي في تلوينها.

هو الذى أمدّه بفكرة تسليم نفسه؛ كان رفيق نوبي قديم من أيام معتقل الواحات.. رآه بالصدفة في المعادي يسير في حي "العرب"، فتتبعه عن بعد آمن (لا يزال في التوبِ السوداني) حتى رآه يدخل عمارة بالقرب من السوق العربي. ثمة كافتيريا، تدّعي الأهمية، في مقابل العمارة. جلس على مائدة تفتح على الشارع.. وطلب أيس كريم.

حاول أن يُطَوِّر من فكرة طرأت له حينما رآه. فكرة كانت تلعب في مخه، لكنه كان يزيحها جانباً لصعوبة تنفيذها. والآن يظهر الرفيق النوبي، فجأة!

تمشى ببطء إلى باب العمارة المتوسطة الفخامة. صعيدية ترضع طفلاً على مدخلها. خمّن أنها البوابة، أو على الأقل لها صلة ما بالعمارة.

سألها عن الأستاذ نور. قالت له إنها لا تعرف، إذا ما كان فوق أم لا. سألها عن رقم الشقة والطابق. أجابته. تحجج بشراء الخضار من السوق، وأنه راجع بعد شوية. غطس في زحمة السوق. التقط تاكسي، وذهب مباشرة إلى شقته عند أمين بك. تسلل إلى الداخل بحذر. ساعة القيلولة. صعد إلى غرفته واجف القلب، وغيّر ثيابه. ارتدى لأول مرة منذ حوالي شهر ثياب رجل. أحس ببعض "الغربة" في الثياب التي هجرها. تسلل مرة أخرى إلى الخارج، وتاكسي آخر إلى العمارة..

بعد الدهشة، والأحضان لم يقل له الكثير. قال الأشياء الأساسية. أحس أنه يغامر مغامرته الأخيرة يا تصيب يا تخيب. كان يريد الآن أن لا يورط أحداً.. القلاش أو ست الملك. أحس أنه لا يستطيع أن يطلب منهما أكثر مما يقدمانه. أمّن لست الملك جواز السفر الأمريكي. يكفي هذا. طلب من نور أن يوصله بشخص مأمون في المخابرات.

كان يعرف أن نور له قريب نوبي، في المخابرات. قال لنفسه.. سأنتظر

أسبوعاً، وإن لم يحدث شيء بالسلب أو بالإيجاب، سأذهب مرة أخرى إلى سالي. سالي أرحم من أحمد صالح. لم ينتظر طويلاً.

الفصل الرابع عشر

عقيد المخابرات المتقاعد، يونس مراد (المعروف لأصدقائه وزملاءه باسم؛ الحوت) يعيش في بيت نوبي صغير في "الجزيرة" على الشاطيء الغربي في أسوان، مع زوجته، بنت خاله. إنه بيت الأسرة، التي نزحت من زمن بعيد من موطنها الأصلي، من قرية الجنينة والشبآك التي كانت معلّقة بين التلال النوبية، في المنطقة بين أسوان ووادي حلفا. غمرتها مياه السد بعد ذلك.

عمله في المخابرات، آنذاك، أتاح له علاقة وثيقة بالقيادات السياسية العليا، التي رأت أنه من الأحسن، أن يستقر يونس مراد في "الجزيرة" مع العائلات النوبية، التي استوطنت "الجزيرة" منذ قرون. يندمج من جديد في مجتمعه القديم (بعد أن عاش فترة طويلة في القاهرة) يواصل عمله، في فرع المخابرات، الذي تم تكوينه خصيصاً لحماية السد العالي، من أعمال التخريب التي كانت متوقعة، نتيجة لأهميته السياسية والاستراتيجية للبلد كلها.

أيامها لم يكن يونس مراد برتبة عقيد. كان قد تخرج لتوه من الكلية الحربية، وتم تجنيده، ليلتحق بالمخابرات الحربية. لكن اكتشاف صلة القربى، بعائلة زكي مراد، من قادة الحركة الشيوعية المصرية، التي حاول عبد الناصر سحقها في نهاية الخمسينيات، أدى به – هذا الاكتشاف – إلى وضعه على الرف، فترة طويلة، إسناد بعض الأعمال المكتبية (غير الهامة) حتى تم الإفراج عن الشيوعيين، ومن بينهم زكي مراد، وتغيرت سياسة الدولة بالنسبة لهم، من التصادم إلى التحجيم، خلال التعاون المحدود.

حينما تم تشكيل المخابرات الخاصة بمراقبة السد العالي وجدت القيادة، من

الأحسن، أن يكون أفراد هذه القوة أو بعضهم على الأقل، من النوبيين، الذين يعرفون المنطقة جيداً ولغة أهلها، وهكذا نفضوا الغبار عن يونس مراد.

بعد استيلاء السادات على الحكم، وتخلصه من العناصر الناصرية أو التي يعتقد أنها مازالت تدين بالولاء لعبد الناصر ونظامه، تم إحالة يونس مراد، مع غيره إلى التقاعد. كان قد وصل إلى رتبة عقيد وحصل على خبرة عالية في مجاله، وتزوج وأنجب وبعثوه في دورات خاصة عدة مرات إلى الاتحاد السوفيتي، حاز ثقة رؤسائه واحترام مرؤسيه.

وعي يونس مراد الدرس، الذي دفع ثمنه النوبيون الذين عملوا بالسياسة في تلك الفترة القلقة. احتفظ بأفكاره لنفسه . يعتقد أيضاً أنه من الممكن، بل ومن الضروري، أن تتطهر أجهزة الدولة الحساسة، مثل المخابرات والأمن الداخلي، من أية ولاءات، سوى الولاء للوطن، والمهنة. المهنة، التي رغم تجاوزاتها - أحياناً - تقوم باصلاح نفسها، أو هكذا اعتقد.

صدمة الإحالة المفاجئة إلى الاستيداع، ضربة قاسية عليه. كان في أوج تألقه كضابط في المخابرات. لم يبلغ بعد الخمسين من عمره ويقوم بدور هام وحيوي في مجاله.

اعتكف في البيت لا يبرحه، يجلس في الحديقة يراقب ضريح أغا خان أو ابو الهوا، يدخن بشراهة، لا يتحدث إلا في النادر مع أفراد أسرته. لا يلتق بزملاءه القدامى، أو يرد على خطاباتهم. لكن وجود أحفاده الصغار معه في البيت، بعد أن هاجر أولاده إلى الخارج، بحثاً عن الرزق، وترحيب زوجته برعاية الأحفاد، أخرجه شيئاً فشيئاً من عزلته واكتئابه. رجع تدريجياً يمارس حياته الطبيعية. يعبر إلى الضفة الأخرى، ليجلس في فندق كتراكت القديم، حينما يتصل به واحد من الحلقة القديمة (كلهم الآن على الاستيداع أو المعاش المبكر) يحتسون الشاي ويتذكرون "تلك الأيام".

عرض عليه واحد من أقربائه، أن يشاركه في محل للعاديات والمنتجات النوبية، في القسم السياحي من أسوان، قريب من فندق كتراكت. شجعته

زوجته، التي سعدت بخروجه من عزلته، وباعت مصوغاتها التي ورثتها من والدتها وجدتها، قدمت ثمنها له، ليدخل كشريك في المتجر الذي سرعان ما زدهر، لتلتحق به شركة صغيرة للسياحة والسفريات أطلق هو عليها، اسم قريته القديم "الجنينة والشبآك". رغم اعتراض شريكه الضاحك، بأن الاسم غير سياحي، لكن يونس أصر وقال أنه يريد أن يجعل النوبيين - الجيل الجديد على الأقل - يحسون بانتمائهم إلى وطنهم القديم، وأنه يفضّل أن يكون زبائنه منهم وقد عرفوا الآن طريق السفر والهجرة.. وقد كان.

لكن أحداً من أقاربه أو حتى زوجته، التي لم يكن يخفي عنها شيئاً.. لم يعرف أنه بدأ في "بناء" تشكيل صغير وسري من بعض زملائه القدامى. يجتمعون بانتظام، وقد استفادوا من وجود "الجنينة والشبآك" لتغطية حركتهم. واحد منهم يعيش ويعمل في فندق صغير في شرم الشيخ في سيناء، مسؤولاً عن الأمن في الفندق، والثاني يعيش في الإسماعيلية، في مزرعة شمام صغيرة، ورثها من أسرته، والثالث في مصر الجديدة، يدير سوبر ماركت، يمتلكه ابنه الذي يعمل مهندساً في السعودية.

برقت الفكرة، في ذهنه اليقظ، ذات صباح وهو يراقب الحجاج الإسماعيليين وقد وفدوا، من كل بلاد العالم، لزيارة ضريح أغا خان. أعجبته فكرة التنظيم الدقيق، لهذه الطائفة الصغيرة، شبه المنبوذة من التيارات الرئيسية في الإسلام. كيف أنهم يتمسكون بعقيدتهم، بالرغم مما يلقونه من عنت، من بقية الطوائف والمذاهب الإسلامية الأخرى.. وعلى الأخص بولائهم لقادتهم الروحيين والمدنيين.

بدأ اتصالاته بحذر. أدهشه الترحيب والحماس منهم. كانت المقابلات في البداية "جس نبض" وحينما اطمأن عرض عليهم فكرته البسيطة: مهمتنا أن نراقب. وحينما نحس بوجود خطر حقيقي، علينا أن نبلّغ، زملائنا القدامى، من الذين نثق بهم. من نعرفهم بشكل شخصي، ونكون قد تعاملنا معهم من قبل. علينا أن نستعيد وننشيء بعض العلاقات الآمنه، مع هؤلاء الناس في الجهاز. لن

نقوم بشيء عملي؛ فنحن لا نمتلك الوسائل الضرورية للقيام بعملية ناجحة. لكننا نمتلك خبرة سنوات طويلة وسمعة ناصعة، وليس عندنا ما نخاف عليه. لم يبق في العمر الكثير".

بالتدريج، تحولت الاجتماعات التي لم تكن في البداية منتظمة المواعيد، أو بجدول أعمال؛ إلى روتين محبب، وخاصة حينما بدأت قنوات الاتصال "الداخلي" تقوم بعملها (ببطء وبشحة في البداية) وتمدهم بالمعلومات، التي يقومون بتحليلها وتقويمها.

اعتمادهم الأساسي "في الداخل" على بعض الأفراد الذين يثقون فيهم ثقة كاملة. عملوا معهم –سابقاً- عمليات مختلفة، ونفذوا بجلدهم من عمليات الإطاحة السادانية. كسبوا الثقة والاحترام المتبادل.

الآن، بعد خبرة عمر في العمل السري تتحرك مجموعة الجنينة والشباك، على أرضها التي تعرفها جيداً، لكنها تتحرك بحذر وتكتم شديد، منتهجة قوانين البقاء الصارمة في العمل المخابراتي.

تعتمد مجموعة الجنينة والشباك في اتصالها "بالداخل" على ولاءات من نوع خاص: الولاء للوطن، الولاء لفكرة سياسية محددة، الولاء لرفاق السلاح، ولزملاء الدفعة الواحدة. تستخدم المجموعة قوس قزح الولاءات هذه، للحصول على المعلومات التي تريدها، إرجاعها مرة إخرى إلى"الداخل" بعد أن يتم تحليلها. وضعها أمام
"من يهمه الأمر".

هكذا عرفت الجنينة والشباك بوصول "الرئيس" من بروكسل، وبالخطة المرتبطة "بالتقرير" وكاتبه.

نتيجة للإطار السياسي للمجموعة، فإن التحليل الذي قام به يونس كانت نتيجته مفزعة.

يعرفون أيضاً أنهم يواجهون، عملية معقدة، لاعبوها الأساسيون يتمتعون بالحصانة الدبلوماسية، أو بالحماية، التي توفرها لهم مراكزهم الرفيعة في

أجهزة أمنية داخلية، مخيفة السمعة، تحيط بها هالات غامضة من التقديس والرهبة.

عرفوا أيضاً أن "الكاتب" الذي تعتمد عليه العملية، غطس، تحت الأرض،خوفاً من ملاحقة الأجهزة له.

استطاع يونس الحصول على نسخة من "التقرير" حينما قرأه بعينه الخبيرة الناقدة، اكتشف هزاله، وحسب تعبيره، في اجتماعه مع المجموعة "مالوهش رجلين" فالصفحات الموصوفة "بالتقرير" تبدو مبتسرة من شيء آخر، غير موجود تحت يده، لكنه، بالتأكيد، الجسم الحاو لهذا "التقرير".

وسيلة اتصالهم بالداخل، الذي يعرف بعض المعلومات الغامضة، عن "البرج" حذرهم "بنسمع عنه زي أمنا الغولة، بس ما حدش شافه".

بخبرتهم، يعرفون خطورة تنظيم كهذا، لا يتورع عن التصفية الجسدية، بسرعة وبسهولة، عن طريق محترفين من أجل استمراره، وبقائه في الخفاء.

تم تكليف يونس، بعملية العثور على الكاتب و"تأمينه" وجاء اختياره لسبب منطقي: ابن أخته، يعمل في الشعبة الجديدة، لمتابعة رصد وتحليل، مواقف المثقفين، الذين رفضوا إقامة علاقات ثقافية مع إسرائيل؛ مما سبب الحرج "لشركاء السلام" خاصة هناك بعض الدول العربية، تشعر بالحرج، من أن مثقفيها يتضامنون مع المثقفين هنا.

في طريقه إلى المطار، لاستقبال خاله في زيارة من زياراته المفاجئة، كان، مراد خليل، يفكّر بكثير من الإعجاب كيف استطاع خاله – مرة اخرى – أن يقف على قدميه، بعد أن (طردوه) من الجهاز، ومع أنه خارجه، لكنه، بعلاقاته القديمة، استطاع أن يدفع باتجاه، اتخاذ قرار تعيينه هو مراد خليل، في الجهاز الأسطورة.

بعد أن أقنعه، بأن وجوده كنوبي، ومن عائلة زكي مراد، الكبيرة، في جهاز المخابرات الوطني، بالغ الأهمية، للبلد، التي ضحى من أجلها زكي مراد حتى موته الغامض، بعد الإفراج عنه.

تنهد وهو ينتظر إشارة المرور، أمام "شيراتون المطار" وهو يلمح ضابط شرطة، برتبة كبيرة، يعمل في تنظيم المرور، وتمرق تحت عينيه سيارات فخمة، لا يعرف ماركاتها، دون أن تعبأ بالنجوم والنسر فوق كتف الضابط الكبير.

ابن الأخت، كان الشخص الأول الذي اتصل به "نور فضل" يخبره بحكاية، ولا حكايات ألف ليلة.

قال نور فضل، لمراد "فيه شخص هربان. أنا عارفه كويس. مخه تعبان شوية، لكن يمكن إللي بيقوله مهم".

أعطاه نبذة سريعة عن "تاريخ حياة" هذا الشخص.

"يعتقد أن الأمن بيدور عليه. موش مطمئن للحكاية دي.عاوز يسلم نفسه للمخابرات. عاوز يحكيلهم على حاجات.. بس عاوز ضمانات"

الأسئلة الدقيقة التي سألها مراد، أقنعته، بضرورة التحرك بسرعة. لكن في أي اتجاه؟

ثم اتصل به السويسري، يطلب لقاءاً عاجلاً.

العلاقة بينه، وبين السويسري "علاقة رسمية" فهو مسؤول الاتصال معه يقدم له السويسري بعض الأخبار، تطبيقاً للاتفاق السابق، بينه وبين النشاط المضاد. أحياناً يكتشف، أن السويسري، يخترع بعض الأخبار غير الضارة، لمجرد إيهامه، بأنه يقوم بتنفيذ دوره في الاتفاق.

المعلومات الأخيرة التي أدلى بها السويسري، تؤكد "حكاية" نور فضل.

قرر أن يستشير خاله.

في سيارة مراد، المتجهة إلى صحراء السويس، لم يكن يعلم كل من الخال، أو ابن الأخت، إنهما؛ سيقدمان لبعضهما، مفاجأة العمر..

قال مراد للخال عن اللقاء مع نور فضل.

قال الخال لمراد عن تنظيم الجنينة.

اتفقا على خطة. ناقشاها بالتفصيل.

الفصل الخامس عشر

عزيزتي رونسي

أرسل لك هذا الفاكس الطويل

التقيت في باريس منذ بضعة أيام، صديق قديم لعائلتنا من أيام العز وقد فاجئني بمعلومات غريبة عن "صاحبنا" ولا أعلم إذا كانت عندك هذه المعلومات أم لا، لكني عرفت منه أنها توب سيكريت. في الحقيقة ازعجتني كثيراً المعلومات التي قالها لي خاصة وأني أصدقها لأنه أراني بعض "الوثائق" المتعلقة بها، فلم يعد عندي شك. الحكاية باختصار "صاحبنا" كتب مذكرات أو يوميات "شخصية جداً" عن نفسه وبالتالي عن مجموعة من الناس لهم علاقة بحياته. وطبخ منها رواية لها علاقة بموضوعات حساسة.. بالإضافة لأشخاص ما زالوا أحياء يعني، أنا وإنتي وإبنتي وناس آخرين أعرف بعضهم ولا أعرف معظمهم. المشكلة هنا أنه كتب بالأسماء الحقيقية. تصوري!.. الحقيقة أنا شعرت أنها تصفية حسابات، وليست مجرد مذكرات. ده كله موش مهم. لكن إذا وقعت هذه الحواديت في يد من لا يرحم، ستكون فضيحة بجلاجل.. صدقيني. أنا لا أريد أن أدخل هنا في تحليل نفسي لمعرفة الأسباب والدوافع التي جعلته يفتح صناديقه القديمة وبعضها رائحته ليست طيبة. لكن هذا قد حدث. المشكلة أيضاً أن صديق عائلتنا هذا نافد على الجماعة إياهم. يقول إن صاحبنا تبحث عنه أكثر من جهة محلية وأجنبية. عنده معلومات تمس الأمن القومي حسب تعبير هذا الصديق.. ولعلك فهمتي من تعبير يبحثون، أنه فص ملح وداب وهذه مشكلة جديدة. على الأقل مسئولية جديدة لنا أنا وأنتي، أنك تعلمين كما أعلم أنه يعاني من عدة أمراض وليست عنده القوة التي كانت عنده زمان لكي يختفي تحت الأرض مثل ما كان يفعل أيام الشباب.

إذن ما هو المطلوب؟ أحس بأنه من الضروري العثور عليه، قبل أن تعثر عليه

الجماعـة بالي بالك. وحينما نعثر عليـه، أقصد تعثرين أنتي عليـه، يجب إخراجه بأسرع ما يمكن من البلد وهنا يأتي دوري وأنتي تعرفين أني لن أتأخر عن فعل أي شيء لحـمايـته، خـاصـة أنه مريـض. ثانياً يجـب العثـور على هذه المذكـرات أو اليوميات وتدميـرها أو ما هو موجود منها ولم أقرأه بعد لأنها بـصراحة كما قلت لك هي كارثة سوف تؤثر على ثلاثتنا.

اعتقد أن هناك شخص واحد على الأقل يعرف مكانه وهو ذلك الرجل الذي رأيناه معه أكثـر من مرة التخين المكلبظ الذي يساويه في العمر وكتبـوا كتاباً سوياً زمان، للأسف موش فاكرة عن أيه ولا حتى فـاكرة اسمه الأصلي لكنه كان يناديه باسم إليـوشا.. فـاكراه؟ أرجو أن تتفـهمي ظروفي الخاصة وأن تنسـي خلافاتنا القديمة فقد كبرنا كلانا وارتكبنا أخطاء مختلفة، لكن تذكري أننا نشترك في أشياء كثيرة. للأسف لن استطع مغادرة نيو يورك في الفترة الحالية بسبب الشغل.

تحياتي لـلجميع وفي انتظار رد سريع منك ولا أوصـيكي أن تكوني حذرة مع حبي.. رونسيه.

تأملت رونسي الفاكس الذي أيقظها رنينه في منتصف الليل، فقامت مفزوعة تجري حافية، إلى غرفة "المكتب" تقرأ الفاكس سطراً سطراً وهو ينزلق بنعومة من خارج الآلة.

أشعـلت سيـجارتهـا الثانيـة، قامت مـتثـاقلة، إلى زجاجـة الوسكي وسكبت لنفسها كأساً، تجرعته ببـطء وعلى فترات متساوية وهي تقف بجوار النافذة، تنظر من خلال زجاجها المغبر إلى الحديقـة الصغيرة.. وجدت نفسها تفكر: لم يمـسح أحد الزجاج منذ فترة طويلة. اقشعر جسدها وهي تضبط خذلان عقلها لها.

كانت تعـرف باختـفائه منذ بضـعة أيام. في البداية ظنت أنـه قد غطس في واحدة من دوامات احـباطاته، التي تكررت في الفتـرة الأخيرة. قالت لنفـسها؛ لعله دافن رأسه، بين ساقي امرأة، من الهايفات اللاتي يتعرّف عليهن في الآونة الأخيـرة. لكنها لم تقتنع بواحـد من التفسـيرين. لذلك ذهبت إلى شقـته، التي

"أعارتها" له رونسيه. أحست قبل أن تقترب من العمارة، بالتوتر. بنظرات حذرة صائدة تحيط بها. تنبهت بسرعة للخطر. لم تدخل العمارة، بل واصلت سيرها للفكهاني الذي يفرش بضاعته على الرصيف، بجوار العمارة الثانية، واشترت عنباً لا تريده. تسكعت لحظات، ترمق من طرف عينيها المخبر، الذي يتظاهر بقراءة الجريدة على المقهى المقابل. عربة فان فولكس فاجن راكنة، في الناحية الأخرى، مكتوب عليها بخط جريء "المغسلة الأتوماتيكية استلام وتوصيل الطلبات من الباب للباب"

تاكسي يمر بالصدفة، بالقرب منها، أنقذها.

انشغل بالها عليه. تعرف "إليوشا" حاولت أن تتذكر اسمه الحقيقي. لم تفلح. اسم الصحيفة التي يعمل بها. النتيجة ذاتها. وداد هي التي أتت بالحل.

بعد اختفاء الرشيدي، النهائي، التصقا ببعضهما أكثر. عرضت رونسي على وداد أن تقيم معها. وافقت هذه بسرعة وامتنان. اقتناعها الغريزي باختفاء زوجها (الإجباري؟) كشف لها خواء حياتها ووحدتها. كشف لها أيضاً مدى الأهمية، التي كان الرشيدي يشغلها في حياتها. ولأنها "قدرية" فلم تشعر بالغضب مما حدث، بل بالحيرة المؤلمة التي يحس بها الأطفال، حينما تفاجئهم الحياة بأشياء قاسية تستعصي على الفهم.

أحست أيضاً بارتياح. في البداية رفضت الاعتراف به. خجلت من نفسها وغضبت. رونسي حدست مشاعرها. فاتحتها. في البداية، أنكرت وداد. انهارت خلال دموعها وحنقها واقرّت. هونّت رونسي عليها وطبطبت عليه بحكمتها. احتفظتا بالسر فيما بينهما. اعتبرت وداد أن اختفاء الرشيدي من حياتها، بما صاحبه من ألم وحيرة.. أحسن!

أحست وداد التي لا تنام بعمق، بالحركة القلقة الخافتة لرونسي فخرجت من غرفتها، لتجدها أمام النافذة. أعطتها رونسي الفاكس. كانت قد أخبرت وداد من قبل، بشكوكها ومخاوفها، وتجربتها المبتسرة عند العمارة.

الآن توجد معطيات جديدة.

أعدت وداد قهوة نيس كافيه، أحضرتها إلى غرفة المعيشة. أشعلت سيجارتين وأعطت رونسي واحدة. خائفة من ما جاء في الفاكس، حانقة على أمها و ما اعتبرته "أسلوب تفكيرها الأناني" قالت ما تحس به في كلمات سريعة غاضبة. وافقتها رونسي بهزات بطيئة من رأسها.

جاءت وداد بالحل.

البواب والجيران، يعرفونها، باعتبارها ابنة "صاحبة الشقة" تأتي بانتظام، لدفع شهرية البواب، فواتير الغاز والكهرباء والمياه، والتليفون، التي يحتفظ بها البواب لها منذ أن كانت الشقة خالية، وورنسيه في الخارج. أقامت هي بعض الوقت أيضاً في الشقة قبل أن "تلتحق" أخيراً برونسي.

- "والمباحث إللي برا؟".

- "عادي.. إذا حد منهم سألني، فأنا بنت صاحبة الشقة.. البواب والفكهاني والجيران.. عارفيني في الحته".

- "بحجة إيه حاتروحي هناك؟".

- "شوفي.. كمان يومين بالضبط ويجي أول الشهر. مواعيد الفواتير. أشوف البواب. أطمنّه أن الساكن بعت جواب بيقول فيه أنه مسافر وطلب مني أن آخد بالي من الشقه. أفتحها وأهويها. حاخد معايا الولية الشغالة بحجة التنضيف. هما كمان عارفينها في الحته من أيام زمان. تونسني.. وتحميني"

- "وحاتعرفي مكان الحاجات إزاي"

تبتسم وداد

- "بابا مره كان في حالة من حالاته إللي إنتي عارفاها (تومىء رونسي برأسها مبتسمة) وراني المكان إللي بيخبي فيه حاجاته. أظن في الفترة الأخيرة، كان مقتنع، بحكاية أنه متراقب. أنه فيه حد عاوز يأذيه .." تصمت فجأة، تغص بالدموع.

-"شوفي ياحبيبتي، طظ في المذكرات والكلام الفاضي بتاع الست والدتك. طول عمرها حمارة. معلهش دا مش موضوعنا. الورق مهم. بس مش بالأهمية إللي مديها له رونسيه. المهم عندي.. عندنا نعرف أيه إللي حاصلله بالضبط.

ونحاول نحميه. إذا كان كتب حاجات تضره لازم نخبيها. موش من حقنا ندمر أي حاجة تخصه بدون إذنه تمام؟.. وعلى فكره تعرفي مين إليوشا ده. أنا فاكراه بشكل ضبابي.. واحد أسمر ومكلبظ. بيشتغل في جورنال من الجرانين إللي طلعت اليومين دولا. أكتر من كده موش عارفه"

- - "أظن يمكن أعرفه"

نظرت إليها رونسي بفرح "أنا كنت متأكده إنك بنت أبوكي.. موش بنت أمك!".

الفصل السادس عشر

حبيبتي وداد

لعلك تندهشين من هذا الخطاب (أو فلنقل الوصية؟) إليك أنت من دون الآخريات، بالتحديد أمك وورنسي، ولكن القلب، كما يقولون ملك! فقد اخترتك أنت، ليس أنك ابنتي فحسب، ولكن لتشابهنا في الكثير من الأشياء، التي ستساعدك على الفهم، والتفهم، والتسامح، والتقبل (آسف لهذه الحذلقة التي أعتبرها ضرورية).

لماذا الآن؟

الإجابة واضحة بالنسبة لي على الأقل، فقد وصلت إلى آخر المطاف. ها هي الدائرة تكتمل. أتذكرين حديثنا مرة عن "اكتمال الدائرة"؟.. إيماني ويقيني بأن حيوات بعض الناس، الذين يحبوهم القدر بمعرفة خاصة لاكتشاف مسار حياتهم ومغزاها، تتحرك حياتهم في دوائر، تتداخل أحياناً، وتتقاطع في بعض الأحيان، لكن لابد من اكتمالها. أزعم أن حياتي وحياتك تتحركان في هذا "المجال المغناطيسي" .. أنا نتيجة لتقدمي في العمر.. قد سبقتك، وأنت ستلحقين بي في وقتك .

وصلت آخر المطاف.. نعم، ولكن أي مطاف؟! مطافي أنا، الذي حفرت دروبه ومسالكه بنفسي - بالإضافة للقدر المحتوم، أو لعله نتيجة لذلك - وهكذا أجدني ألملم شعثي وأرتب أشيائي استعداداً للرحلة المؤكدة والأخيرة. لست بنادم على شيء. ليس في الأمر ما يحزن أو يخيف. لعلي مثل أسلافي، الذين يواصلون حياتهم منذ البداية تمهيداً للخواتيم.

أشياء محددة أريدك أن تفهميها:

لقد كتبت بعض الأوراق، لتساعدني على تفهم ما حدث ويحدث لي وللآخرين. جاءت في شكل رواية مختلطة بمذكرات ويوميات وخواطر.

ما علينا. وكتبت مجموعة أخرى من الأوراق التي سرقها من بيتي كل من الشيخ سيد والكلب الآخر. مع أني قدمت المساعدة للاثنين أثناء ظروفهما الصعبة. لا أعلم السبب في ذلك. وقد وصلت هذه الأوراق "لمن يهمهم الأمر" لاستخدامها ضدي، من بعض الجهات التي يهمها استمرار الأوضاع التي أشرت إليها في الورق.. طظ في ذلك كله أيضاً. لكني واثق من أن "البعض"سوف يحاول استغلال ما كتبته، بعد تشويهه، للاساءة إلى من أحب من الناس (خاصة رونسي ورونسيه وأنتي بالطبع..إلخ) هذا هو السبب الأساسي في كتابة هذه "الوصية" الآن؛ فقد كتبت ما كتبته بدافع من الحب المختلط بالحماقة البريئة إن جاز التعبير، ولم يكن هدفي تصفية حسابات أو تبرئة نفسي أو إدانة أحد. كنت أريد سلامي الداخلي و أن أتمعن في حياتي وحيوات الآخرين، وأنا في المرحلة الأخيرة من اكتمال الدائرة.

ما حدث قد حدث. لست بنادم على شيء من ما كتبت أو قلت، ولو سمحت لي الظروف - والعمر - مرة أخرى لأعدت كتابة ما كتبت.

لا تجزعي عليّ، فعمر الشقي بقي، وبعد ما واجهت ما واجهت في بيروت من قناصة كتائبيين و "وطنيين" ورصاص وقنابل إسرائيلين وخيانات من المقربين، ونفدت منها كما الشعرة من العجين (ده شعر ده؟!) وسوف أواصل ما يجب أن أقوم به، حتى تكتمل الدائرة للمرة النهائية.

لهذا إذا وقعت الأوراق المسروقة، أو جزء منها في يدك، الرجاء الاحتفاظ بها.

أكتب لك هذا الكلام، وأنا واثق من حسن تصرفك وقيامك بالمطلوب.. استشيري رونسي، وقللي من البوح لأمك (إحنا الثلاثة عارفين مدى حساسيتها من حاجات زي كده) وعلى فكرة.. قلتلك أد إيه أنا بحبك لأنه من يوم ما لقيتك

* * *

ذهبت وداد إلى الشقة، في الظهيرة. ذهبت بمفردها مع الشغالة، حسب الخطة. لمحت بطرف عينها السيارة الفان المغلقة، راكنة، على الناصية القريبة. لم تستطع أن تحدد المخبر من وسط الزبائن، في المقهى المزدحم. واصلت سيرها حتى الفكهاني تثرثر مع الشغالة، وقلبها يدق بسرعة وعنف. رحب بها الفكهاني الذي يعرفها. اشترت منه كيلو برتقال، أدارت الحديث بالاتجاه الذي خططت له. قال الفكهاني أنه لاحظ "ناس غريبة" تدخل العمارة بالليل. لكنه حسب قوله لم يرد أن يتدخل لأنه تعود أن يترك الملك للمالك. فتحت الشقة بمفتاحها. قالت للشغالة أن تفتح البلكونة، وتبدأ في تنظيفها. جلست على كرسي فوتيل، في الصالة تلتقط أنفاسها، وتتسمع بأذن مرهفة الخطوات، التي سمعتها تصعد الدرج متسللة ومسرعة.

صدق حدسها، إذ رأت شبحاً خلف شراعة الباب الزجاجية. انتظرت حتى سمعت جرس الباب. نادت على الشغالة أن تفتح. أحست أن جسدها يخونها، لم ترد أن تواجه القادمين أو القادم بمعرفتها لهويتهم. احتمت بجهل الشغالة بما يجري، وبالتالي بشجاعتها الناجمة كساتر يحميها.

فتحت الشغالة الباب، اقتحم الشقة رجلان بدون إحم ولا دستور. صاحت فيهما الشغالة منزعجة وغاضبة، تجاهلاها. اتجها مباشرة إلى وداد التي ما تزال جالسة.

أحدهما بدين، في منتصف العمر، يتصبب وجهه غير الحليق، عرقاً وتفوح من فمه رائحة عطنة. الآخر في مقتبل الشباب، نحيل، يرتدي ثياباً لائقة، يبدو أنه

رئيس السمين، لكنه مرتبك بعض الشيء يداري ارتباكه، بابتسامة مصطنعة.

- نعم؟

قالتها وداد بلهجة محايدة. لهجة صاحبة البيت. بينما وقفت الشغالة متحفزة بجوارها تريد أن تحميها.

- مدام روانسيا

نطقها النحيل بصعوبة، يحاول أن يتذكر الاسم الصعب

- مين عايزها؟

- مدام روانسيا؟ لو سمحتى؟..

سؤالان في نفس واحد. السمين يراقب الشغالة منزعجاً

- قصدك مدام رونسيه! والدتي. أنا بنتها. أي خدمة؟ وبعدين مين أنتو؟ وإزاي تدخلوا علينا بالطريقة دي؟

فاجئت نفسها - كما قالت بعد ذلك لرونسي - بأنها تستخدم أسلوب الطبقة (حسب تعبيرها) الذي تستخدمه أمها بنت الباشا.. أسلوب بارد متسلط ومتعال.

تخاذل السمين ونظر بتسائل للنحيل. الذي حاول أن يتماسك، لم يكن واثقاً. هل المطلوب منه في ظروف كهذه أن يقطب أو يداهن؟ أن يتأدب في القول أو أن يطجّن. فتح الله عليه:

- آسفين يافندم. إحنا عارفين أن الشقة ملك مدام (تردد لحظة في الاسم الصعب) المدام والدتك. كان فيه ساكن هنا. عاوزينه في كلمتين

-أنتو مين؟

كانت تعرف وتتجاهل. مواصلة أسلوب الطبقة:

- أمن الدولة

قالها بهدوء وبطء متعمد (بالطريقة التي دربوه عليها) بهدف أن يخيفها.

- أنتم إللي.. واضح إنتو دخلتوا هنا قبل كده. وبالطبع ده شيء غير قانوني. أنا حاشتكي لأونكل سامي بيه في الرياسة (ليس هناك أونكل في الرياسة لكنها تعلمت البلف في حياتها الحافلة)

- موش إحنا يافندم إللي دخلنا. إحنا جينا بعد ما هما دخلوا

معلومة جديدة بالنسبة لها

- هما مين؟

- مش عارف يا فندم (بأدب أكثر هذه المرة، تحسباً لأونكل الرياسة) اؤكد لك أنه موش أمن الدولة (بتخابث) فيه حاجة ضاعت؟

- إيش عرفنّي (بضيق حقيقي هذه المرة) أنا لسه واصله وما جردتش حاجة

- آه. وبالمناسبة حضرتك بتعملي إيه هنا؟

- حضرتي بعمل إيه هنا (بسخرية) شقتنا. الساكن إللي كان فيها مشي. بعت خبر لماما إنه مسافر. (بسرعة الآن) هي أصلها في الأمم المتحدة في نيويورك

- اتصلت مامي (ولم تقل ماما) بيا علشان أبص على الشقة. وأديني هنا أهوه.

يبدو أنه اقتنع. أو لعله أراد أن يقتنع. وقف لحظة متردداً. أشار برأسه للبدين، باتجاه الباب.

- على كل حال، حصل خير. حضرتك بتقولي أنه بلغ أنه مسافر وسايب الشقه. ما تعرفيش مسافر فين؟

- أنا موش سيكرتيرته (بادعاء الغضب بالإضافة لصوت الطبقة)

انسحب الرجلان. الشغالة أغلقت الباب بسرعة. وداد طلبت منها أن تصنع "لهما" قهوة. أرسلتها إلى الشارع لتشتري سجائر. تظاهرت أنها نسيت سجائرها.

قامت بسرعة إلى "المخبأ" الذي أراه لها حينما كانت تزوره. قال لها "شوفي! فيه حاجه مهمة عاوزك تاخدي بالك منها. عندي مخبأ بحط فيه الحاجات المهمة. مفيش حد يعرف سكته غيرك".

قادها من يدها إلى التقويم القديم من العام الماضي، والمعلّق بالقرب من صليب من السعف. أدار التقويم وأراها الكرتونة السميكة في الخلف. وضع إصبعها على حافتها. جعلها تحس بالنتوء الخفيف.

يبدأ أليوشا يومه، منذ لحظات الاستيقاظ البطيئة، في ترتيب زواياه حسب ما يترائى له وطبقاً لهذا يضع برنامج وأولويات يومه. يعيد ترتيبه وهو يحتسي الشاي، يقرأ الصحيفة، يبدؤها بصفحة الوفيات، يتابع، بعين يقظة وقلب واجف، الخط البياني، الصاعد باصرار وثبات، لأسماء معارفه وزملائه وأقاربه وأقارب الآخرين. هذه الصفحة، تحدد له نشاطه ومزاجه اليومي.. يسبح في مجموعة من العلاقات المعقدة والدقيقة والمتشابكة؛ بيئته الطبيعية.

لذلك لم يدهش كثيراً، حينما وجد خلال سباحته اليومية، في الشوارع والمكاتب والبارات "معلومات وطلبات ورجاءات" بأن يتصل برقم تليفون معين لسيدتين تبحثان عنه "لأمر ضروري وهام ومستعجل جداً.. جداً" تعود على مثل هذه الرسائل، تترك له عند مكاتب الاستقبال، وجارسونات المقاهي، وزملاء العمل. فهو في النهاية رجل روتين محدد.

لم يدهش أيضاً، حينما اكتشف، بعد ذلك، أن السيدتين، هما رونسي ووداد يعرف، رونسي، ثم وداد. في البداية من خلال الحديث عنهما، مع صاحبه وبلقاء بالصدفة لا يذكر مناسبته. وأخيراً بالقراءة، في الصفحات التي أعطاها له صديقه، طالباً منه أن "يقول رأيه" منبهاً إياه أنها مجرد الكتابة الأولى. مشدداً عليه أن لا يعطيها لأحد. قرأها وأرجعها. قال له رأياً، مشجعاً على الاستمرار، محذراً إياه من أنه يدخل (أحياناً بدون داع ، وأحياناً بحماقة) في "مناطق خاصة جداً" خاصة، الجزء المتعلق بالمذكرات الشخصية.

جلس ثلاثتهم في الطابق الأخير من فندق سميراميس، في الكافتيريا المكيفة الهواء ساعة الظهيرة، يحيط بهم الزجاج من كل جانب يمنع عنهم ضوضاء الشارع ويتيح لهم الرؤيا الحالمة للنيل.

يحتسون البيرة المستوردة التي أصر الجارسون على تقديمها لهم بحجة عدم وجود بيرة ستيللا المحلية، التي طلبوها.

يتهامسون. رجل وامرأة، فارقا سن الشباب منذ زمن بعيد. وفتاة تدخل في طور الأنوثة المكتملة. لمن لا يعرفهم، يبدون كأسرة يختلسون ساعة، ليبحثوا أمراً،

قـالت له مندهشـة أن هذا المكان مكشـوف. أجابهـا ضاحـكاً "علشان كـده" شرح لها نظـريته. من يأتي ليبحث عن شيء، لن يبـحث عنه في مكان مكشوف. بل سيفكّر في أكثر الأماكن غير المطروقة لا أحد سيفكر في نتيجة حائط قديمة.

نزعت بسرعـة الكرتونة مستخـدمة مقص أظافرها. وجدت المـظروف. خبأته في صدرها. وجـدت ورقة صغيـرة أيضاً داخل المظروف مكتوب عليـها "اتصلي بإليوشا"

قالت لها رونسي حينما قرأت للمرة الثـانية ما كتبه "أبوكي وأنا عارفاه. ممكن الناس (لم تقل رونسـيه احتراماً لمشاعر وداد) يتـكلموا عليه بأي حـاجة، أناني.. نسوان..حـاجات كتيـر.. وممكن أن الحاجات دي كلهـا أو بعضها صـحيح. لكن الحاجة إللي أنا متأكده منها أنه بيؤمن بللي في الجواب.. وده المهم.

تحاول مع رونسي أن تخمن من "هم ".

تلتجأ إلى رونسي لتمـلأ لها الفجوات الكثيرة - والغامضـة - عن سيرة حياة والدها. أن تعيد تركيبها.

تقول لها رونسي، أنها لم تعد تعرف الكثير عنه، مؤخراً، بالرغم من علاقتهما الطويلة، وخاصة بعد ما افترقا كل في سبيله.

تتملص وتختبيء داخل تفاصيل غير هامة. تحس لأول مرة منذ سنوات طويلة، أن هذه الذكريات هي كل ما تستطيع الإمساك به من حـياتها - وحياته - التي تهرب منها. ذكرياتها، كل ما بقي لها من حياتها الماضية.

تحـاول أن تقنعهـا، أن ما تعـرفه يكفـيهـا، لأن تشكّل الصـورة "التي تريدها" صـورة الأب الذي..تأخذها بـعيـداً - برفق - عن الماضي بكل مـا فـيه من فـرح وحزن.. إلى الحاضر، بإلحاح الخطر الذي يخيفهما.

تقنعها أن الخطوة المقبلة الهامة، هي الاتصال بإليوشا.

لا تعرفـان لماذا طلب ذلك. لا تهتـمان الآن بالمعرفـة والبحث عن الأسـباب، بقدر ما تهتم - كل منهما لأسبابها الخاصة - بتفيذ رغبته الغامضة.

* * *

ليس على قدر بالغ من الأهمية، لكنه من الأهمية بمكان، بحيث يجتمعون في ساعة الظهيرة في الكافتيريا الأنيقة بكل ادعائتها التاريخية الزائلة.

سمع منهما ما حدث في الشقة. قرأ الخطاب الوصية. تمعّن في القصاصة التي بها اسمه. عقله طوال الوقت يقوم بمجموعة من الحسابات الدقيقة، والاحتمالات.

يتوقع السؤال، الذي لم تطرحاه بعد فوق المائدة المصقولة التي تراصت فوقها أطباق المزة. يجهز نفسه للإجابات المحتملة الآمنة.. "والله ما عرفش هو فين" أو "هو إلي بيحدد مواعيد وأماكن المقابلات" أو "لو كان عاوز؛ ما كان اتصل بيكم، ما هو عارف تليفوناتكم".. ومع أن هذه الإجابة أقرب للمنطق إلا أنه قرر أن لا يستخدمها، لأنها جارحة، ولأنهما أيضاً يعرفانها ويجهلان السبب المؤلم (لهما على الأقل) في اختياره أو عدم اختياره الاتصال بهما رغم أنه يعرف.. إلخ

سأله في أيام اتصالهما الأولى بعد الاختفاء، لماذا لايتصل بأسرته ليطمأنهم على حاله. أجاب الآخر وهو يحجل في الكعب العالي "كله وقت وليه آدان يا إليوشا" وبالطبع جاء الوقت الآن، خاصة وأنه، اختفى من عند أمين بيك، ولم يقل لأحد (له أو لأمين بيك، إنه خلاص ماشي) خاصة وأن القلاش لا يعرف سكة البنت السودانية. بصراحة لا يريد أن يعرف لأنه خائف. خاصة وأنه سمع طراطيش كلام من المحررين الذين يتعاملون مع "الجهات الأمنية" بأن "الموضوع كبير، وداخل فيه حواديت سلاح" قال لهما، وهو ينظر إلى النيل البعيد، أنه كان يقابله أحياناً، وإنه، كان يعيش في مكان آمن، وإنه كان لا يود أن يوسع دائرة حركته أو اتصالاته حتى لا يحس به "الآخرون" فيرصدون موقعه.

نظرت السيدتان إلى بعضهما. نظرتا إليه. تنبه أنه يستخدم "كان" ابتسم معتذراً. تنهد.

حكى لهما، في عبارات واضحة، وقصيرة، كل ما يعرفه - عرفه - عنه، منذ أن احتك به في الميكروباس، وحتى اختفائه منذ ثلاثة أيام طبقاً لرواية أمين بيك، باعتبار أن الأخير، ما يزال يعتقد، بأن الساكنة عنده فوق واحدة ست سودانية.. إلخ

هزتا رأسيهما في حركة لم يفهمها. هل هي موافقة أم تعجب؟ اغرورقت عينا وداد بالدموع.

تحير أليوشا أيضاً، من موقف أسرته. الحبيبة. العشيقة السابقة. والابنة الغريبة، التي لم تكتشف والدها، إلا منذ سنوات قليلة (ولم يكن الأب يعرف أصلاً بوجودها).. تعطيان كل هذا الاهتمام للغائب. إحساسه أنه لم ولا يهتم بهما بنفس القدر.

ضحكتا، وهو يروي لهما - بطريقته الخاصة - كيف كان أمين بيك يغازل المرأة السودانية الساكنه عنده، فوق.

* * *

شعر فجأة بتعب هائل. ود لو تمدد على الأريكة المجاورة التي تبدو مريحة ويغمض عينيه لحظات، نص ساعة ياخذ فيها نفسه. اغمض عينيه لحظات فعلاً وهو جالس مكانه. حسد صديقه، الذي ترك كل شيء، حتى هويته، ويتحرك على مزاجه وراحته.

تبادلت السيدتان نظرة أحس بها من خلف عينيه المغمضتين. قال دون أن يفتحهما "سيبوا الملك للمالك " وبعد أن فتحهما ضحك وأحس أن التعب يفارقه فجأة، بدت له الحياة - فجأة أيضاً - حلوة "موش عارف بالضبط. يمكن هرب على حته تانيا. قال هذا ليعطيهم، ونفسه، إحساساً بالطمأنينة.

قامت رونسي تذهب إلى التواليت، تابعها - بحكم العادة - بعينيه. رأي جسداً ما يزال مشدوداً. الردفان ما يزالا يلعبان.. والساقان بالسمانه التي يحبها، مستطيلة بعض الشيء وبارزة قليلاً. حينما أدار رأسه وجد أن وداد - الخبيرة - تنظر إليه متأملة.

تعرف من خلال معيشتها مع رونسي أنها "وحيدة" وقد أقلقها هذا بعض الشيء. ما رأته في عينيه، فهمت منه أيضاً أنه "وحيد"..

تضاحك وقال "أبوكي بيعرف يختار النسوان" لم تصدمها كلمة النسوان.

أرادت أن تجاريه فقالت "صـحيح هي كبيره شوية، بس مـره. ثم هي برضه أصغر منك".. نظر إليهـا مندهشاً من ذكائها الغريزي الحـاد قائلاً "بنت أبوكي" قـالت "تعال الليلا دي اتعـشى معانا وخد لك درنك.إحنا بنتـعشى الساعة تسـعه. تعال تمانية ونص. طبعاً ما فيش داعي تجـيب الوليه، اللي راكنة في البيت. علشان تاخد راحتك".

ضحك كـلاهما. وحينمـا رجعت رونسي من التواليت، نظر إليـها باشتـهاء. أحـست بنظراته، فـتورد خـداها وارتفع صـدرها - الذي مـا يزال ناهداً بدرجـة مدهشة - في تنهيدة حرى.

"جميع ما أمتلكه، أحمله داخلي"
شيشرون

لمح بطرف عينه، المسدس البريتا، وقد تزحزح بعض الشيء من مكانه نتيجة لمطبات الطريق. لم يكن يعرف الماركة، ولم يكن يعلم أنه محشو وجاهز للإطلاق. لم يكن يعلم، ولم يهتم. أمامي مجموعة من الاحتمالات: يقتلني، أو أقتله، أو نسقط كلانا في كمين.

الاحتمال الأول، وارد، ولا أملك رداً له أو دفاعاً.

الاحتمال الثاني، وارد بشكل ضعيف، ولكني لن أستخدمه لسبب بسيط؛ ما الفائدة؟ وأنا لم اؤذ أحداً في حياتي، حتى دفاعاً عنها. لسبب أبسط من السابق، أني لا أملك من أمري شيئاً. لم أمتلك من أمري شيئاً، ولن..

الاحتمال الثالث، وارد أيضاً، ولعل هذا هو سبب وجود المسدس.

تذكر، فجأة، رحلة القمص إلى اسطبل عنتر. هل ذهب باختياره كما يبدو، أم أن الحكاية كما تقول تفيده، مكتوب. أدهشته نفسه وهو يتذكر مصائر شخوصه، التي تركها في منتصف الطريق. لويس مثلاً و هل سيصل إلى المضارب؟.. أحس بدفقة حنان تجاهه. يريده أن يصل إلى الخال، وتاجوج، أن ينصب خيمته هناك، أن يعوض الخال عن فقد أخته.. وأن..

سأله يونس دون أن ينظر إليه:

"بتفكر في إيه؟"

أجاب دون أن ينظر إليه:

"كنت بفكر في ناس بعرفهم"

هل سيسألني عن أحبائي.. بنتي، ورونسي، ورونسيه؟ لكن ماذا يعرف عنهم أو عني؟ أفكر فيهم؟ لكن كيف أفكر فيهم وأنا أحملهم داخلي، جميع ما أمتلك!

لكن الآخر لم يسـأله.فقط نظر إليه ملياً.لم يعقّب . رجع ينظر إلى الطريـق الإسفلتي الممتد. لم يتطوع هو بالشرح.

سأله هو:

"على فكرة، اسمك إيه؟"

أجاب دون أن يلتفت إليه:

"يونس مراد. أصحابي بيسموني الحوت. وإنت؟"

ابتسما لبعضهما لأول مرة هذا اليوم.

واصل الجيب العتيق اندفاعه الصاخب نحو طريقه المرسوم.

□ □ □

هناك مجموعة من الكتب والمراجع بالعربية والإنجليزية، ذكرت بعضها في المتن، أذكرها هنا في قائمة كاملة:

"جولة في أقاليم اللغة والأسطورة" علي الشوك، منشورات دار المدى، و"الأساطير والميوجليات السياسية" ترجمة خليل كلفت، منشورات دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. "الجنس عند العرب" الدكتور صلاح الدين المنجد. "الروض العاطر في نزهة الخاطر" للشيخ محمد بن محمد النفزاوي، مكتبة المنار تونس.

ومقتطفات من "العهد القديم" و"العهد الجديد"

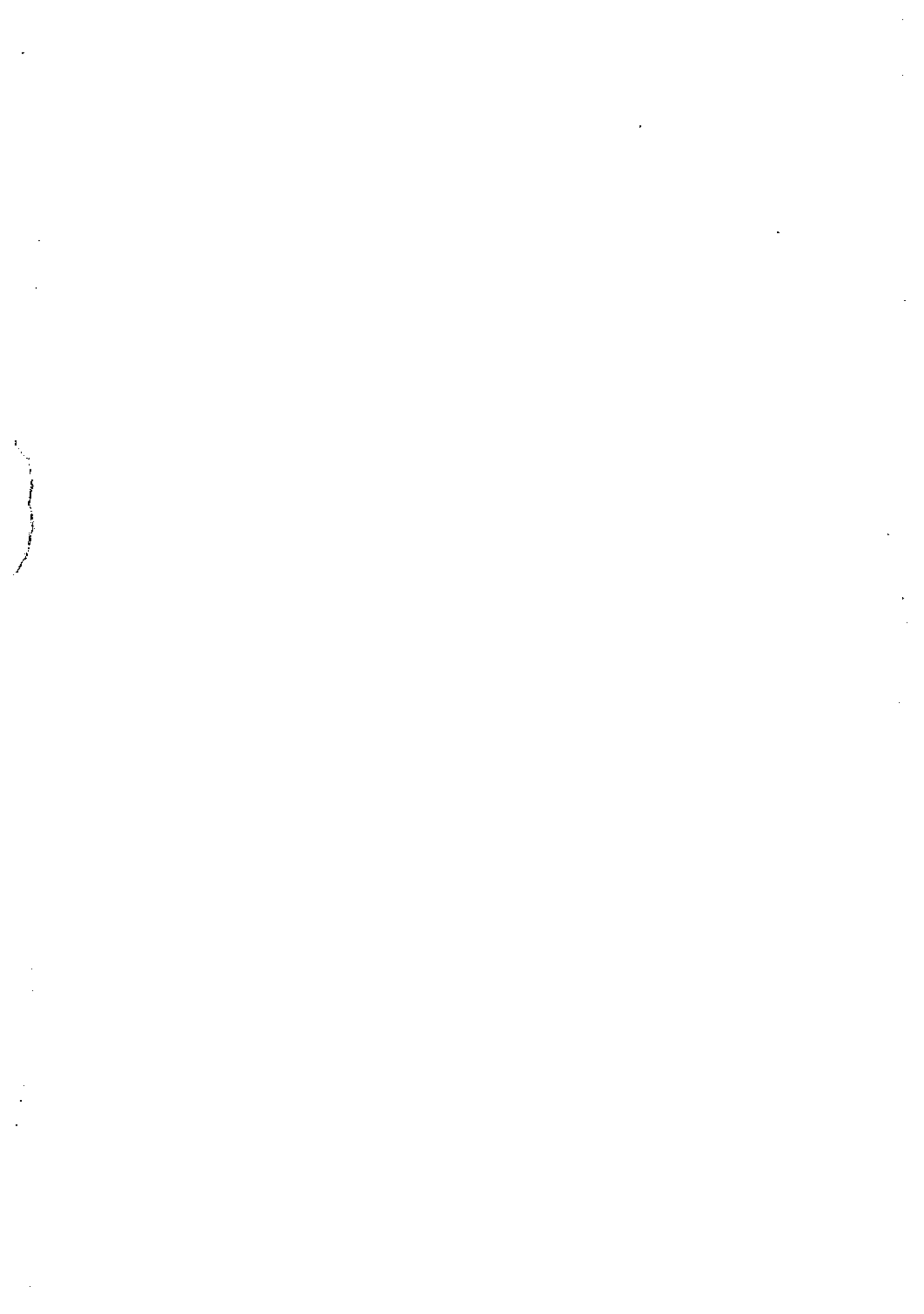
* ANCIENT EGYPTIAN MYTHS AND LEGENDS Lewis Spence

* SEXUAL SECRETS Nik Douglas, Penny Slinger

* EYGYPT MOULIDS SAINTS SOUFIS, Nicolas Biegman

للمؤلف

* إنسان السد العالي ١٩٦٥ بالاشتراك مع صنع الله إبراهيم وكمال القلش
* لومومبا والنفق ١٩٦٨ (مسرحيتان)
* يا لـيل يـا عين ١٩٦٧ (مسـرحيـة) صادرها وزير الثـقافـة الأسبق؛ ثروت عكاشة قبيل العرض
* القرد المفكر ١٩٧٧ (مسرحية للأطفال) مسرح أُوال.. البحرين
* صباح الخير يا وطن ١٩٨٢ مذكرات عن الغزو الإسرائيلي على لبنان
* أطفال السد العالي ١٩٨٤ .. للأطفال
* الراجل إللي أكل بعضـه عن رواية "اللجنة " لصنع الله إبراهيم (قاعـة صلاح عبد الصبور)
* بيضة النعامة ١٩٩٤ رواية عن السيرة ذاتية - رواية منشورات رياض الريس
* صانعة المطر ١٩٩٦ مجموعة قصصية.. المركز المصري العربي
* أورسليم أورشليم ١٩٩٦ مسرحية . رفضتها الرقَابة
* حبيبي.. يا متشائل مسرحية . عن رواية لإميل حبيبي(لم تُعرض)
* في انتظار المخلص (رحلة إلى الأراضي المحرمة)



رءوف مسعد

- ١٩٣٧ : الولادة في السودان - بورت سودان .
- ١٩٤٨ : الشهادة الإبتدائية - السودان .
- ١٩٥٦ : الثانوية العامة - مصر .
- ١٩٦٠ : ليسانس آداب - صحافة - مصر - (يونيو) .
- ١٩٦٠ : الاعتقال والسجن (ديسمبر) بعد محاكمة عسكرية بتهمة الانضمام لتنظيم شيوعي .
- ١٩٦٤ : الإفراج نتيجة العفو العام .
- ١٩٧٠ : الدراسة في بولندا - إخراج مسرحي .
- ١٩٧٥ : العمل في العراق - مؤسسة السينما والمسرح .
- ١٩٧٨ : العمل في الصحافة اللبنانية - بيروت .
- ١٩٨٢ : الغزو الإسرائيلي على لبنان والعودة الى مصر .
- ١٩٨٣ : تأسيس دار شهدي للنشر .
- ١٩٩٠ : تصفية دار شهدي وبداية الإستقرار في هولندا .

بعض ما كتب عن الطبعة الأولى من «مزاج التماسيح»

- انفتاح النص على عالم المؤلف الخاص الملئ بالدهشة

(صحيفة الحياة . . لندن)

- في مزاج التماسيح يوظف رءوف مسعد أشكالاً متعددة للسرد الروائي ويمتزج الخيال بالواقع . . واقع الأقباط المصريين وطقوسهم اليومية ، والعنف الذى يهددهم هم وغيرهم من المسلمين من قبل جماعات الإسلام السياسي الممولة من الخارج . . . . تماسيح رءوف مسعد هي الشخصيات والأفكار والمعتقدات والأيديولوجيات التي انتهى زمانها والتي استطاع أن يصورها بمهارة

(الجمهورية . . مصر

- فانتازيا العنف والجسد والصراع الديني على مساحة واسعة من الأرض ما بين مصر والسودان وأوربا وعلى مساحة أوسع من الخيال

(مجلة الوسط . . لندن

مكتبة مدبولى
ADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١
lat Harb SQ. Tel.: 5756421